الطبعة الرابعة

زمكان

رِوايَةُ



ثروت الخِرباوي

روايـــــــة



تأليف

ثروت الخرباوي



العنوان:

زمـــكـــان

تأليف:

ثروت الخرباوي

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 978-977-14-4596-8
رقـم الإيـداع: 13023 / 2013
طـبعـة 2013



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

تليفـون: 33466434 - 33472864 02
فاكـس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

إهـــداء

زمنٌ ذهب.. وزمنٌ أتى.. وزمنٌ سيجيء، لا الزمن الماضـي بشموخه استطاع أن يتـرك بصمته على الحاضر، ولا الحاضر استطاع أن يقبس لنفسه نورًا من الزمن الماضي.. شموخ الزمن الماضي لم يكن في أفكاره، فلكل زمن مـا يناسبه من اجتهاد فكري ولكـن شموخ الزمن الماضي كان في رجاله الذين ثبتوا على مبادئهـم وأوذوا من أجلها.. والفكر غير المبـدأ؛ فالأفكار تتغير بتغيـر المعطيات، الواقع، الزمـن، والمبـدأ ينبغـي أن يظل ثابتًـا؛ من أجل ذلـك أهدي هذا الكتـاب ـ عبر الزمن ـ إلى رجال عاشـوا مبادئهم ولم يساوموا عليهـا.. أهديه لابن حنبل والعز بـن عبدالسلام وعمر المختار وغاندي وجيفارا.. لعلنا نقتبس من نورهم ونسير على وحي ثباتهم.

الحياة الأولى

زمكان

الحلـــم

«عندي دهشة، ما زالت الحياة تمنحني الدهشـة».
أم العارفين بالله سيـدة الحكمـة «ميمنة النورانية»
رضي الله عنها.

«رأيـت فيـما يـرى النائم أننـي أعيش وكل مـن أعرف على شـاطئ بحر، دخلت إلى البحر لأسـبح وأنا لا أعرف السـباحة فوجدت ماء البحر قرمزيًا فاندهشت، أخذت أتحسس موضع قدمي وأستند إلى سور كبير مشيد وسط البحر، وعندما توغلت قليلًا وجدت الماء قد أصبح رائقًا صافيًا في لون زرقة السـماء ففرحت به أيما فرحة، نظرت إلى الجانب الأيسر للبحر فوجدت بيوتًا مـن فضـة ذات قبـاب خضراء مقامـة على الماء والمـاء يغمر أبوابهـا، أخذتني الدهشـة فأخـذت أعمل الفكر، كيـف يعيش أصحاب هـذه البيوت وكيف يقضون شئونهم! وبينـا أنا كذلك وجدتني قد توغلت كثيرًا في لـُجَّة البحر فنظـرت إلى المـاء فوجدتـه في لـون الحليـب، بياضـه غريـب يبهـج القلوب والأبصـار، اندفعت موجة طيبة إلى وجهي تداعبه وكأنها ترغب في احتضانه

[illegible] حلى من العسل المصفى!! ابتهج خاطري وكاد قلبي يقفز من سعادة مندهشة خالطت عروقه، وإذ نظرت إلى الجانب الأيمن للبحر وجدت بيوتًا شاهقة كالسفن يحملها الماء الأبيض العذب، كانت هذه البيوت شفافة رأيت من خلالها ما خلفها ولكنني لم أر ما فيها! تركت نفسي أسبح دون أن أتحسس موضع قدمي فإذا بالماء يحملني ويدغدغ مشاعري، مكثت في البحر لا أرغب في مغادرته، وكيف لي أن أترك البحر وأنا في عين النعيم!! ولكن الماء حملني للشاطئ وأنا أقاومه، وحين وجدتني أقف على الرمال سعيت سعيًا للناس وصحت فيهم: إنكم لا تعرفون مدى حلاوة الماء الذي في وسط البحر، ادخلوا لتعرفوا، انظروا لتروا، تذوقوا لتتبينوا، وحين استيقظت كانت حلاوة الماء لا تزال على لساني».

وإذ قصصت رؤياي على جدي قال: ستعرف تأويلها بعد حين.

■■■

الزمن والمكان

مع الزمن ينتقل المرء من الشباب إلى الكهولة ثم إلى الشيخوخة، والشيخوخة «عُمْر الحكمة» ومع شيخوختي بدأت الأمراض تغزو جسدي وتزلزل شراييني، هي الأمراض التي تعطيك عبق الحياة الحقيقي وحكمتها، هي التي تجعلك ترى الحقيقة على حقيقتها، تظل تكدح في الحياة وأنت تنظر إليها فتراها أحيانًا صغيرة وأحيانًا كبيرة، تظنها حينًا محدبة وحينًا آخر مقعرة،

وكأنـك تجلس عنـد طبيب العيون تخضع لتجارب العدسـات الصالحة لك، فـإذا تهـادت الأمـراض إلى جسـدك، انطبقت عدسـتها مع حياتـك، وقتئذ سـترى الدنيا بحجمها الحقيقي وتفصيلاتها الدقيقـة، الأمراض تمنح بعضنا الحكمـة، فنعرف أعمارنا الحقيقيـة، بالزمن الذي مر علينـا، والزمن يمر على أجسـادنا ولكنه لا يمر على أرواحنا أبدًا، نظل عمرنا كله نشعر أننا ما زلنا في ميعة الصبا، نقاوم مروره على أجسادنا مقاومة فارغة هشة وهمية، كأن يصبغ البعض شـعره ليقضي على اللون الأبيض، أو يلجأ البعض لأطباء التجميل، ولكـن مهما حاولنا فإن الزمن يمر وسـيمر وسـينظر إلينا شـزرًا وهو يقول: حتمًا سـأضع بصمتي على أجسادكم، الجسد يفنى وتبقى الروح، ولأنها تبقى فإنهـا لا تخضـع لقانون الزمن، في أحلامنا تهيم أرواحنـا عبر الزمن فتعود بنا لطفولتنا، فنتقابل مع رفقاء لنا فإذا بنا نراهم بهيئتهم التي كانوا عليها وهم في عمر الطفولة، نرى ذلك لأن الروح هي التي تسيح في الكون وليس الجسد، النـوم نوع من أنواع الموت، روح النائم تفارق جسـده إلا أنها تظل موصولة بـه، وهـي في حركتها تنطلـق في أزمنة مختلفـة؛ لأنها غير خاضعـة لزمان ولا لمكان.

تفاقـم علـيَّ المرض وعرفـت أن الطبيـب قال لأهـلي إن أيامـي في العمر معـدودة، وإنه لا أمل لي في الشـفاء، الآن يجب أن تتغـير حياتي جملة، في هذه اللحظات لا ينبغي أبدًا أن أخضع أو أضعف أو أركن للألم، يجب أن أمسك القلم وأكتب ذلك السر الذي عاش في وجداني دهرًا.

أخشـى أن يداهمنـي الموت فيمـوت سري معي، أنا لا أخشـى من الموت

أبدًا، فقد عرفته وشاهدته، ثم إنني أنتظره منذ زمن بعيد، توارى الألم واختبأ خلف رغبتي المحمومة في تبليغ الأمانة، إذ انقدحت عزيمتي، وانتويت ما ليس منه بد، فكان أن أمسكت بالقلم، فأخذ يجري بين السطور، يسابق الزمن ليحكي حكاية الزمن، حكاية جدي العمدة الحاج غريب يوسف، هذا هو سره، هذه هي حياته، سأرويها لكم ممتزجة بحياتي، فقد تعانقت الحكايتان، والتقتا، وها أنذا أكتب نصوصها التي اختزنها قلبي وعاشها عمري، لكم ألا تصدقوها، ولكنها ــ رغم أن أي عقل لا يفهم إلا من خلال ما تستشعره حواسه ــ حدثت، رواية جدي لن يفهمها ويصدقها من سيقرؤها بعقله المجرد المتردد، ولكن سيفهمها ويعرفها من سيقرؤها بروحه، فاقرأها بروحك وإلا فدعها ولا تقربها.

■■■

حيوات الحياة الأولى

فتحتُ عينيَّ على الحياة فوجدت كل شيء أخضر، إلا السماء فقد كانت زرقاء صافية تغزوها في أيام الشتاء سحب بيضاء، ثم سرعان ما تتراكم فتصبح ركامًا رماديًا يثير في النفس شعورًا غامضًا يقع بين الاكتئاب والانقباض والترقب والحذر والخوف، وحين ينقشع السحاب تعود للسماء زرقتها المحببة ويعود للنفس اطمئنانها، وعلى امتداد البصر عندما تلتقي الخضرة بالزرقة يتلون الكون أمام نظري فيصبح طيفًا على درجات «السيان» cyan تركوازيًا في أول النهار، مائلًا للزرقة الصريحة في وسط النهار،

تناوشه الأشعة الحمراء قبل الغروب، كل ذلك كان في «أنشاص الخاصة» التي بها ولدت، وفيها رأيت طفولتي، كانوا يطلقون عليها أيضًا «أنشاص التفتيش» حيث كان بها مقر التفتيش الملكي بالشرقية، إذ كانت ذات يوم مقرًّا ملكيًّا، ينتجع فيها الملك فاروق، بها قصره الذي أقامه عام 1946 على ترعة الإسماعيلية، وحفه من كل جانب بالحدائق الغنَّاء الممتدة، وخلف القصر أقيمت أنشاص الخاصة على نمط «الكمبوندات» الحديثة وكأنها مستعمرة سكنية متميزة وسط الكتلة الخضراء الممتدة، أول شيء يقابلك خلف سور القصر هو «سرايا» كبيرة مكونة من ثلاثة أدوار يحيط بها سور مرتفع خلفه صف من الأشجار السامقة تحجب الرؤية، وفي الناحية الثانية المواجهة لسور السرايا حديقة من أبدع حدائق العالم اسمها «حديقة الصَّبار» فيها كل أنواع وأشكال نبات الصبار، بعدهما يوجد المسجد الملكي وهو مسجد كبير له حديقة كبيرة، ثم عدد من الفيلات مشيدة على النمط الإنجليزي، ولكل فيلا حديقة تحتوي على مجموعة من الأشجار والنباتات، وكانت الشجرة المميزة في كل فيلا هي شجرة المانجو التي كانت تثمر مع بداية الصيف وتظل تنتج ثمارها إلى ما بعد الخريف.

وبجوار هذه الفيلات توجد مجموعة من البيوت الصغيرة مشيدة على نظام واحد، وكأنها صف من العساكر المنضبطين، يقفون في مواجهة قليل من الضباط من أصحاب الرتب العالية.

أنشاص التفتيش - أو الخاصة - تقع على الناحية الأخرى لترعة الإسماعيلية، وهي تابعة لمركز بلبيس محافظة الشرقية، وفيما بعد أصبحت

تابعة لمركز مشتول السوق، يصلها بالعالم الخارجي كوبري يعبر الترعة أقيم على نمط كوبري أبو العلا،ولكنه صغير الحجم والطول، وفور أن تدلف من الكوبري ستجد سور القصر على يسارك، وفي مواجهته حديقة النباتات التي كانـت من أعجـب وأندر الحدائـق في العالم، كانت هـذه الحديقة تحتوي على أشـجار مصطفة وكأنها غابة مهذبـة، وفيها فواكه نادرة الوجود في مصر مثل الفرامبواز، والباباظ، والباشن فروت، وأنواع من التوت له ألوان غريبة مثل الأبيض والأحمر، بالإضافة إلى بستان به أنواع مدهشة من الزهور قد لا ترى مثيلًا لجمالها في حياتك.

كان أبي «عبـد الحـق الجوسـقي» مهندسًـا بالإصـلاح الزراعـي بتفتيش أنشاص، إذ بعد ثورة 1952 أصبح القصر الملكي تابعًا للقوات الجوية وكان يُسـتخدم كاسـتراحة لقائد القوات، أما باقي أنشـاص بحدائقها وأراضيها، وورشـها، وإصطبل خيولها، وتفتيشـها كله فقد أصبحت تابعة للهيئة العامة للإصـلاح الزراعي، فكانت السرايا سـكنًا لمدير «التفتيش» وكانت الفيلات سـكنًا للمهندسـين ولطبيـب المنطقة، وكانـت البيوت المتراصة سـكنًا لباقي الموظفـين، وأقـام تفتيش الإصـلاح الزراعي مسـاكن ريفية صغـيرة للعمال والفلاحـين الذيـن يعملـون في الحدائق والـورش وماكينة الكهربـاء، وكان الطريـق العام يفصـل بين هذه المسـاكن وفيلات المهندسـين وكأنه الحجاب الحاجز بين طبقتين من بني البشر.

وفي أنشـاص الرائعـة نشـأت وتنسـمتُ حدائقها واسـتغرقتني طبيعتها، حيـث الخمائل والحدائق وعطر الربيع وسـحر المكان وروعـة الزمان، كانت

الفيـلا التي نسـكن فيهـا مميزة عـلى كل الوجـوه، ورغـم أنها مطابقـة لباقي الفيلات فإنها كانت متميزة بموقعها حيث كانت الغرف الخلفية لها تطل على الحدائق الملكية التي لا يستطيع البصر الوصول إلى منتهاها، كما أن حديقتها كانت أكبر من الحدائق الأخرى وتحتوي على عدد من الأشجار أكثر من باقي الفيلات.

قبل أن أدخل المدرسة أرسلني أبي وأنا في الخامسة إلى كتَّاب الشيخ محمد عثمان لأحفظ ما تيسر من القرآن ولأتعلم القراءة والكتابة والحسـاب، كان الشـيخ محمد هو إمام وخطيب المسجد الملكي، وكان بارعًا في الخطابة مولعًا بالقـراءة، خبـيرًا في تعليـم الصغار، وكان ينتحـي بنا جانبًا من المسـجد قبل صلاة الظهر بسـاعتين فيأخـذ في تحفيظنا قصار السـور، والحروف الهجائية، فنخرج من الكتَّاب ونحن نـُغني « ألفٌ باءٌ أبت ثجحٌّ » وعندما وجد شغفي بالحروف قال لي: أنت تذكرني بشـاعر كبير خرج من كتَّابي هذا، سـألته بنهم المتشوق للمعرفة: وما هو الشاعر؟

- هو الذي يكتب الشعر.

- وما هو الشعر؟

- ألا تغني حينما تخرج من الكتَّاب مع رفاقك « أبت ثجحٌّ »؟

- يعني الشعر أغنية!

- هو كذلك.

- ومن هو الشاعر؟

- الشهيد هاشم الرفاعي.

- اسمه «الشهيد»؟

- لا اسمه هاشم، الشهيد يعني أنه مات في سبيل الله.

- وما معنى « مات»؟

- ألم تسمع عن الموت من قبل!!

كانت هذه أول مرة يحدثني فيها أحد عن الموت مباشرة، كان ذكر الموت يأتي عرضًا في أحاديث البعض ولكنني لم أكن أتوقف عنده، لا بد أنه شيء مثل المرض، ولكن ذكره كان يخيفني ويجزع قلبي، يومها شرح لي الشيخ محمد طبيعة الحياة، ومن هو أبونا آدم، ولماذا خلقنا الله، والموت الذي هو نهاية كل حي، ويوم القيامة، والجنة والنار ويبدو أنه تعجب حينما سألته: هل يعرف كل واحد من الناس متى يموت؟

وقتها ابتسم دهشة وقال: علم ذلك عند الله، فقد أخفى عنا هذا السر.

- ولماذا يخفي عنا؟

- هو يخفي عنا أيضًا موعد يوم القيامة؟

- لماذا؟

- حتى نعبده حق العبادة، فلو عرفنا موعد موتنا لعبدناه فقط قبل الموت.

الموت، الموت، ظلت هذه الكلمة تتردد في أذني، وعندما كان الموت يرد

على بالي كنت أرى بخيالي جسـدًا شـفيفًا أبيض لا ملامح له، ما هذا الخيال؟ ولماذا البياض هو الذي يظهر أمامي عنـد ذكر الموت؟! وعلى مدى عدة أيام كنـت أرى أمـي في الحلـم وهي تبكـي وتلبس السـواد، وكنـت أرى ضيوفًا يدخلون إلى بيتنا والحزن يرتسم على وجوههم، ونساءً يبكين، وامرأة تولول، كنـت أصحو فزعًا، وأحيانًـا كنت أصحو باكيًا، هرعـت لي أمي تطمئن على حـالي، ما الذي أفزعني في المنام، فرويت لها ما رأيته، فبسـملت واسـتعاذت بـالله من الشـيطان الرجيم وطلبت منـي أن أتفل ناحية اليسـار ثلاث مرات ففعلـتُ مثلما قالـت، ثم أراحتني عـلى الفراش ووضعت يدهـا على جبهتي وقرأت لي بضع آيات من القرآن حتى رحت في نوم عميق.

تكـرر الحلـم أكثـر من مـرة، وعرفـتُ أن هذا النـوع من الأحلام اسـمه كوابيـس، ولكـن هل هذا كان كابوسًـا فعلًا؟ عندما أخـذت أقص على أمي تفصيـلات الحلم بدقة متناهيـة، كنت أرويه لها بصورتين، حيث كنت أعيش في أحداثه بشـخصيتين، الشـخصية الأولى هي أنا ذلك الطفل الصغير، أقف سـاهمًا شـاردًا أنظر بذهول إلى أمي وهي تبكي بحرقة وترتدي السواد، وإلى أطيـاف الضيـوف الداخلـين إلى البيـت مقطبـين مكفهرين، وإلى المـرأة التي تولول، والشـخصية الثانية هي أنا الذي يجلس وكأنه ينظر لشاشة كبيرة يرى فيها المشـهد الفائت، قالت أمي وهي تحتضنني: يـا ضنايا، عقلك يتذكر يوم ماتـت جدتك، كنت قد بدأت تدخل عامك الثالـث حينما ماتت، كان كل ما تراه هو ذكريات عقلك عن هذا اليوم، لم تنسه ولكنك دفنته في قلبك؛ لذلك تراه في الأحلام.

جدتي! جدتي لأمي! نعم أتذكر طيفها كملاك يرتدي البياض، كنت «أنده» عليهـا مثـل كل الأحفاد في العائلـة: نينا الحاجة، أو نينا سـيادة، وكان جدي العمدة يناديها دائماً «بالحاجة سيادة» كانت جدتي صاحبة عيون زرقاء ووجه أبيـض مفـرط في الطيبة والهدوء والاسـتكانة والرضا، كانت حـكاءة ماهرة بالفطـرة، أتذكرهـا وهي تحكي لي وأنـا في حضنها وهي جالسـة متربعة على سريرها، حدوتة الشاطر حسن وست الحسن والجمال، وحدوتة قطر الندى، وحدوتة الشـاطر حسن والشاطر محمد والشاطر عليّ الدين، ومغامرات علي الزيبق المضحكة، وحينما كنت أضحك بسـبب مقلب من مقالب على الزيبق كانـت جدتي تزيد من جرعة ضحكاتي فتزغزغنـي من باطن قدمي الصغيرة فتتقطـع أنفاسي مـن كثرة الضحـك، فتقـول لي بطيبة مفرطـة: هاموتك من الضحك يا ابن بنتي، فأقوم هاربًا من أمامها.

لا أعرف لماذا كان الموت شريكًا لنا في الحوادث المفرحة أو التي فيها شغب، رغم أنه في حقيقته كئيب مقبض، أبي عندما كان يغضب عليّ غضبًا مصطنعًا يقـول مهددًا وهو يهم بالقيام: هاموتك من الـضرب، فأجري من أمامه وأنا أكتـم ضحـكاتي، وجدتي تقـول لي: هاموتك من الضحـك، وأختي الكبرى تقول لي عندما تتصاعد شـقاوتي: باموت فيـك، فكنت أظن أن الموت حياة، وإذا بي أفجـع عندما أعرف أن الموت موت، نهاية للحياة، ولكن الشـخصية المصريـة الغريبـة طوَّعت الموت فجعلتـه حياة، في مصر يصبـح الموت طوعًا للحياة، حتى إن الشاعر عبد الرحمن يوسف وجد هذه اللمحة في الشخصية المصرية فكتب في قصيدة «الراحلون بلا قبور»:

فِي مِـصَرَ قَدْ تَبْدُو طُقُـوسُ الدَّفْنِ لِلعَيْنِ الغَرِيبَةِ ذِرْوَةَ اسْتِسْـلامِ شَـعْبٍ لِلدِّيَانَاتِ القَدِيمَةِ والسَّلاطِينِ العُتَاة.

لَكِـنْ طُقُوسُ الدَّفْنِ فِي مِصْـرَ اخْتِـرَاعٌ عَبْقَرِيٌّ يَسْـتَعِيدُ بِهِ الفَقِيدُ وُجُودَهُ فِي قَلْبِ مَنْ عَرَفُوهُ عَبْرَ العُمْرِ كَاليَخْضُورِ يَجْرِي فِي النَّبَات.

فِي مِصْرَ تَخْتَزِلُ الجِنَازَةُ كُلَّ أَشْكَالِ الحَيَاة.

اسـتمر الحلـم معـي لا يفارقنـي حتـى أصبـت بحمـى رفعـت حرارتي وجعلتنـي أدخل في هذيان، تـردد عليَّ بالبيت الدكتور جـورج ميلاد طبيب المنطقـة وصديـق أبي، كنت أنظر إليه بوهن وأنا أراقب ما يفعل، فكان يعطي الحقنة لعم «عبيد» الذي يعمل عندنا في البيت ويطلب منه غليها في الماء، فإذا تم غلي الحقنة كان يخترق بسـنها غطاءً مطاطيًّا لزجاجة صغيرة، ثم يسـحب السائل الذي في الزجاجة ويحقنني به فتندُّ عني صرخة مكتومة متأوهة، كانت يد عمي الدكتور جورج خفيفة جدًّا ولكن الخوف أحيانًا يصنع الألم.

وبعد أن اقتربت من الشفاء أعدت لي أمي دجاجة مسلوقة، وطلبت مني أن آكل منها ما أسـتطيع، راقبتني وأنا آكل، ثم قالت متعجبة: كل ده كان في قلبك وكاتمه، حزنت على جدتك التي ماتت من سنتين، ولم تعبر عن حزنك إلا هذه الأيام!.

فرغـت من الطعام فأغلقت أمي نور الغرفة وقالت لي: نم بسـلام، وقبل أن أهـم بالنوم سـمعت صوت امرأة آتيًا من الصالـة يقول: دي عين وصابته يا بنت خالتي.

دخلت المرأة إلى الحجرة فلم أتبين ملامحها، ولكنني وجدتها تحمل ورقة، أغمضت عيني وأخذت أستمع للحديث، إذ تقول المرأة: خمسة وخميسة في عيون الحاسدين، أنا جبت له عروسة ورق كي أبطل العمل المعمول له، هاتي لي إبرة وركية نار، أخذت أستمع للمرأة وهي تتلو بعض الكلمات التي لم أفهم معناها، ولكنها كانت كلمات منغمة، تعجبت، هل هي شاعرة مثل هاشم الرفاعي؟!

وعندما تسارع صوتها وارتفع فتحت عينيَّ ونظرت إليها مدققًا، فوجدتها متشحة بالسواد ولكن يبدو عليها أنها أكبر من أمي سنًّا، بحلقت في وجهها ثم صرخت منزعجًا، فقد كانت هي المرأة التي تولول في الحلم.

■■■

أصبحت من بعدها أخاف من خالتي مفيدة ابنة خالة أمي، مجرد ذكر اسمها يثير في نفسي حالة من الانقباض، إلا أنني كنت أحمد الله؛ لأنها لا تأتي لزيارتنا إلا نادرًا، نكاد لا نراها إلا في الملمات، وأكاد أقسم أن عقلي الواعي لا يتذكرها إلا بدءًا من ذلك اليوم الذي جاءت فيه لزيارتي إذ كنت محمومًا، وقد اعترتني دهشة ممزوجة بالخوف، كيف تكون هذه المرأة التي أمامي هي نفسها المرأة التي كنت أراها في أحلامي، أختي الكبرى مجيدة التي كانت في الصف السادس الابتدائي وقتها، والتي أرشدتني فيما بعد لطريق القراءة قالت لي: هذا طبيعي فعقلك الباطن يتذكرها، كانت خالتك مفيدة تنوح وتولول يوم أن وصل لنا خبر موت جدتي سيادة، نسيها عقلك الذي تفكر به، ولكن عقلك الباطن ظل محتفظًا بالحدث.

قلـت وأنا أنظر لها بعين جاحظـة: وهل للبطن عقل؟ أنا أعرف أن العقل في الرأس، والمعدة في البطن كما قلتِ لي من قبل، فهل هناك عقل احتياطي في بطني بجوار معدتي؟!

أخـذت مجيدة تشرح لي ولكنني لم أفهم نصـف كلامها، بالكاد عرفت أن الأشـياء المؤلمة يخفيها الواحد منا ولا تسـتدعيها ذاكرته، ولكنها تظل مخبوءة في مـكان سري بالإنسـان، فأخذت أفكر بجدية: «يجـب أن أخترع ذات يوم اختراعًـا يمنـع الذكريـات من الدخـول إلى العقـل الباطن، يجـب أن يتذكر الإنسان كل الأشياء، ليس عليه أن ينسى».

النسـيان رحمة من الله: هكذا قال لي الشـيخ محمد عثمان عندما ذهبت إليه في الكتَّاب بعد شفائي، ثم استطرد: وما سمي الإنسان إنسانًا إلا لأنه ينسى، ثـم قرأ لي من القرآن ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ أخذت أسـتحثه كي يروي لي المزيد من قصة سـيدنا آدم وستنا حواء، فروى لي الكثير، ثم قال: وبعد أن نزل آدم إلى الأرض أصبحت ذريته مثله، تنسى، والنسيان رحمة من الله.

سألته: ومن الذي جعله ينسى؟

- الله.

- ولماذا عاقبه إذن على النسيان؟

- ومن قال إن الله عاقبه؟

- ألم يطرده من الجنة؟

- نعم لم يطرده، الله خلق سيدنا آدم ليكون في الدنيا، والجنة هي مكافأته يوم القيامة، ولكنه جعله ينسى لحكمة عنده، فخرج من جنة الخلق، فجنة آدم لم تكن هي جنة الآخرة، ولكنها كانت جنة أخرى خلقه الله فيها، والله يا بُني لا يعاقب على النسيان فرسولنا الكريم يقول: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» لولا النسيان يا بُني لمات الإنسان من الهموم، الحزن في أوله يولد كبيرًا جدًّا، كأنه أكبر عملاق في الدنيا، شايف قصر الملك كبير ازاي؟ الحزن في أوله يكون مثله، ثم برحمة الله يصغر هذا العملاق المزعج، ويظل يصغر ويصغر حتى يتلاشى.

ثم وضع أصبعه على سجادة المسجد فعلقت بها ذرات من التراب، واستطرد: أو يصبح صغيرًا مثل ذرة التراب، ولولا هذا لكبس الحزن على أنفاسنا وما تحركنا على الأرض خطوة.

بعد أيام قليلة نشبت حربٌ في أنشاص، فعند الظهر بينما أنا في البيت سمعنا أصوات طلقات رصاص تدوي في كل مكان، وتعالى صراخ الناس، أصاب الذعر أمي، فهي لا تعرف ما الذي حدث، وأبي في الشغل، كل إخوتي في البيت ما عدا مجيدة أختي الكبرى، فقد كانت تستذكر عند صديقتها في الدراسة «نجاح» بنت عم فتحي شرشر الموظف بالتفتيش، فقد اقترب موعد امتحانات شهادة «القبول».

دخل علينا عم عبيد الذي يشتغل عندنا، وقال: إن الجيش يضرب في الأهالي، وهناك حرب أهلية.

قالت له أمي بذعر: لماذا يا عبيد ما الذي حدث؟

- عربـة جيـش صدمـت في الطريق الخارجـي بنتًا صغيرة مـن الفلاحين فقتلتهـا، وعندمـا وقفت العربة لتسـتطلع الأمر، طلع عليهـا الأهالي وقتلوا السائق وعسكريًا وضابطًا، فجاءت سيارات جيش محملة بالجنود وهـم الآن ينتقمون من الأهالي.

- ولكن هذا بعيد عنا.

- لا، فقـد هرب الأهالي إلينا يختبئون في الحدائق، والجيش يجري خلفهم وهم الآن في شوارع التفتيش، وضرب النار على آخره يا ست هانم.

قالـت أمي وهي تكاد تولول: مجيدة موجـودة عند نجاح شرشر يا عبيد، روح هاتها بسرعة.

- يـا نهار اسـود، الدكتورة عنـد نجاح شرشر «كان عبيـد يطلق على كل واحد منا اسمًا خاصًا به، فمجيدة دكتورة، وهادية أستاذة، وأنا برنس، ومروة النونَّة، وأحمد دُكش».

هـرع عبيد إلى الخارج، وفي الحال كانت أمي تدير منفلة التليفون وتطلب مـن عامل السـويتش «الخاص بمنطقة التفتيـش» أن يوصلها برقم 16 الذي هـو رقـم عـم فتحـي شرشر، اطمأنت عـلى مجيـدة وأخبرتها أن عبيد سـيأتي لاصطحابها على أن يسلكا طريقًا آمنًا.

بعـد أن عـادت مجيـدة، عـاد أبي أيضًا واجتمعـت الأسرة كلهـا، وظلت الحرب الأهلية مشـتعلة طوال النهار، اتصل بنا جدي العمدة، ليطمئن علينا

وقال إنه سمع أخبار هذه الحرب من راديو إسرائيل، ولكن الراديو المصري لا يذكر شيئًا عنها، وبعد أن طمأنته أمي على أحوالنا وأننا جميعًا بخير، قال لها: سأرسل لكم سيارة تأتي بكم عندي في البلد، ولكن أمي صرخت فيه: تبعت سيارة فين، الحكاية زادت وعدت، لا يوجد أحد يتحرك ولا يمشي في الشارع إلا ويضرب بالنار.

جلست أنا ومجيدة وهادية في الدور الأرضي للفيلا، لا نستطيع أن نبرحها ولو حتى للحديقة، فقد كانت حديقتنا وحدائق الفيلات الأخرى مخبأً للهاربين، عبيد وحده هو الذي كان مسموحًا له بالخروج حيث كان يأتينا بالأخبار كل حين، ومنه عرفنا أن الأهالي لا يحملون أسلحة ولكنهم فقط يحملون مواسير حديد يشتبكون بها مع الجنود، وحين كان أبي يود استطلاع الأمر من شرفة الفيلا كانت أمي تجذبه جذبًا من ثيابه ليبقى في الداخل حتى لا يعرض نفسه للخطر، ولكن أصوات الرصاص كانت تتزايد وكان قلبي يقفز قفزًا مع كل طلقة رصاص، علام هذا ولِمَ؟.

وعندما كان عبيد بالخارج كنا نسمع صيحاته وكأنه يشجع مباراة كرة، فيقول تارة: يابن العفريتة، اخبطه في دماغه، ثم بأعلى صوته: حاسب يا عم مغاوري الواد العسكري جنبك، تعالَ استخبا هنا، وتارة أخرى يقول: مات، مااات، مااااات، وكنت أسمع «مات» هذه فيرتجف فؤادي.

انتهت الحرب الأهلية في نفس اليوم ولكن صدر قرار عسكري بمنع التجول، وجاء بنشرة الأخبار بالتلفزيون «أن بعض الأهالي في أنشاص قاموا

بشغب بسبب حادث سيارة جيش، وأن المشاغبين قتلوا ثلاثة من قواتنا المسلحة، وأن الرئيس أصدر قرارًا بحظر التجول في أنشاص إلى أن تستتب الأمور» ولم يرد بنشرة الأخبار عدد القتلى من الأهالي.

وفي اليوم التالي عرفت من عبيد أن الشيخ محمد عثمان شيخ الجامع والكُتَّاب كان من ضمن القتلى، مات الشيخ محمد!

■■■

كانت الدنيا وكأنها تتحداني، مات الشيخ محمد الذي حدثني عن الموت، عندما أوصل لي عبيد الخبر زاغت عيني وجف حلقي، التزمت عدة أيام بالصمت التام، وكنت أقف شاردًا في الصالة العلوية للفيلا وأنا أبحلق في لا شيء، كأنني أنظر للفراغ، وذات يوم وعقب أن صليت العشاء مع أبي في المسجد أخذت أدعو الله قائلًا: يا رب لا تجعل الملائكة تنسى حسنات الشيخ محمد فأنت جعلت الإنسان ينسى، والإنسان غير الملائكة، ولا تطرد الشيخ محمد من الجنة كما طردت سيدنا آدم، فهو يحب جنة الآخرة أكثر من حبه لجنة أنشاص بتاعة الملك، آسف يا رب أنت لم تطرد سيدنا آدم من الجنة كما قال لي الشيخ محمد، أنت لا تطرد أحدًا من عندك يا رب لأنك كريم.

وفي اليوم التالي بينما كنت ألعب في مدخل الفيلا رأيت سربًا من النمل يمشي بهمة في طابور طويل، جلست وأخذت أترقبه، كان النمل يحمل ذرات صغيرة وفتافيت على رأسه، كانت هذه الفتافيت أكبر من حجم النملة كلها، ومع ذلك فالنملة الصغيرة تحملها ببساطة، عنَّ لي خاطر، لماذا

لا أصنع الموت، لماذا لا أجعله أمامي مرئيًا، أمسكت بعصا صغيرة، فجعلتها حاجزًا يحول بين النمل واستمراره في طريقه، فإذا به ينحرف بجوار العصا ويستكمل مسيرته، وضعت أصبعي على عدد من النمل ودهستهم، ماتوا، وجدت حالة من الهرج والمرج تجتاح الطابور، حتى النمل يدرك الموت، انتظرت قليلًا دون أن أتدخل، فوجدت النمل عاد لسيرته الأولى، يسير في الطابور المنتظم وهو يحمل حبات الفتافيت، ولكنني رأيت عددًا آخر من النمل يأتي إلى النمل الميت ويحمله، راقبته فوجدته يدخل به إلى حفرة في الأرض، توقفت وعدت إلى داخل الفيلا.

بعد أيام أتى إلينا وافد جديد للعمل في بيتنا معاونًا لعبيد، وسيختص بشئون الحديقة ومتابعة الدواجن التي نربيها في الحوش الخلفي للفيلا، وعند هذا فلا جديد، فقد كان البستاني السابق عليه اسمه «حسن الصادق» ولكن الجديد الذي كلبشني هو أن محمدًا هذا أُشتهر بين الناس باسم «محمد الميت».

أخذت أراقبه بحذر، والهواجس تنتابني، هل محمد هذا هو الموت؟! أو لعله يعرف سيدنا عزرائيل الذي كان الشيخ محمد عثمان قد أخبرني عنه أنه هو قابض الأرواح! وفي إحدى المرات رأيته يصلي بالحديقة، ويسجد على الطين الذي في الأرض، تعجبت جدًا، كيف يصلي هذا الرجل على الأرض دون أن يفرش سجادة صلاة، هذا والله أمر عجيب! اقتربت منه، وما إن أتم الصلاة حتى سألته: إنت بتعمل إيه؟!.

قال: أصلي الظهر.

- على الطين! من غير سجادة صلاة؟!

ضحك وهو يقول: هذا حلال طالما أن الأرض غير نجسة.

- أليس الطين نجاسة؟

- لا يا برنس، فالله خلقنا من الطين.

- الطين الشوكي؟!

ضحك مرة ثانية: اسمه التين الشوكي، مش انت عارف الحروف وفاهم الفرق بين الألف وكوز الذرة.

- لا أنا عارف الألف لكن لا أعرف كوز الذرة.

- ما علينا، المهم أنك تعرف أن الأرض طاهرة والطين طاهر طالما لا مؤاخذة ما فيش عليه مخلفات البهائم، رسولنا قال هذا.

- قال إيه؟

- قال إن ربنا جعل الأرض مسجدًا طاهرًا للمسلمين.

- طيب انت عايش ولا ميت؟

فوجئ محمد بالسؤال وقال: أنا عايش لكن شهرتي الميت.

- ليه؟

- من أعوام وانا شاب صغير أغمي عليَّ فظن أهلي أنني مت، فأحضروا لي الكفن، وغسلوني، وقبل أن يدفنوني في الأرض ربنا بحكمته تدخَّل فقمت

من الإغماء وإلا لكنت قد مت فعلًا، فالناس كبَّرت والنسوان زغردت، ومن ساعتها أطلقوا عليَّ محمد الميت.

- وهل الميت يتم دفنه في الأرض؟

- أي نعم.

وحكى لي محمد الميت قصة أول قتيل في البشرية وكيف أن الغراب أرشد القاتل عن طريقة الدفن.

- وهل الغراب راح للنمل؟

- يروح للنمل ليه؟

- أنا قتلت شوية نمل، فحضر بسرعة فريق نمل وقام بحمل النمل الميت ودخل به في حفرة تحت الأرض.

- ربنا بيهدي كل الخلق وبيعرفهم الحق.

أصبح محمد الميت رفيقًا لي عندما يأتي للفيلا نهارًا، وبعد أن كنت أخاف منه استأنسته وفرحت به وبطريقته في الحديث.

وفي بداية العام الدراسي كانت أيامي الأولى في مدرسة بساتين الإسماعيلية الابتدائية القريبة من الفيلا، دخلت إلى الصف الأول الابتدائي وأنا أتقن الكتابة والقراءة، يرحمك الله يا شيخ محمد يا من علمتني القراءة والكتابة، وبارك الله في أختي مجيدة التي جعلتني متقنًا لهما، كان محمد الميت هو الذي يقوم بتوصيلي للمدرسة كل صباح، ثم كان يأتي بعد انتهاء اليوم الدراسي لاصطحابي للبيت،

وفي المدرسة التقيت بأصحابي من أبناء الموظفين والمهندسين، بعضهم كان في سني وصفي وبعضهم كان أكبر مني بعام أو عامين، وفي المدرسة رأيت الأستاذ حمدي شملول الناظر، أحببناه كثيرًا، وشغفنا به وبطريقته الأبوية، فقد كان رجلًا طيبًا تربويًّا، فاهمًا، وكانت المدرسة تحفة تعليمية، ففيها مسرح كبير، وبها معمل للتجارب، ومكتبة كبيرة كان يشرف عليها وقتها أستاذ من أحب أساتذتي هو «الأستاذ عبدالقادر اليماني».

وبدخولي المدرسة أصبحت الأمور المتاحة لي أكبر مما مضى، فالآن أنا أخط السير قدمًا في عالم الكبار، أصبحت تلميذًا في المدرسة، أجلس في الصف الأول وأستمع لدروس أبلة «نبوية» وفي الفصل معي أصدقاء تلفُّهم سذاجة الطفولة، كان منهم محمد جمعة، وعدلي عبد الغفار، وسوسن ابنة الدكتور جورج ميلاد، وممدوح حفني، وأحمد فتحي شرشر، وكنا جميعًا نؤلف فريقًا متفاهمًا متعاونًا، ننتبه للدروس معًا، ونلعب معًا، ونمارس كل الأنشطة معًا.

كانت هادية أختي تسبقني بعامين دراسيين، وكانت تسبقني في حب القراءة، وفي أحد الأيام الأولى للدراسة جاءت لي في الفسحة وطلبت مني أن أذهب معها إلى مكتبة المدرسة، لم أكن مستوعبًا لمعنى المكتبة، إذ وقع في خلدي أنها مكتبة خشب صغيرة مثل التي في بيتنا، ولكنني وجدتها قاعة فسيحة يحيط بجدرانها مكتبة ضخمة فيها عدد مذهل من الكتب، صحت مندهشًا عندما رأيت المكتبة مثل «علي بابا» حينما وقع على كنز المغارة، قلت لهادية وأنا منشده للكتب: إيه ده، إيه ده؟!.

ـ كتـب جميلة، سـتحبها، بـدلًا من أن تلعب في الفسـحة تعـال هنا واقرأ القصص الجميلة.

ذهبت إلى أصحابي مسرعًا وأنا أخبرهم عن المفاجأة التي عثرت عليها في المكتبة، سألتني سوسن ميلاد: كتب كثيرة يا عبد الله؟

قلـت لها وأنا أمط الكلمات وأفتـح ذراعي للدلالة على كثرة هذه الكتب: قد الدنيا.

كان هذا الخبر مفرحًا لنا جميعًا، فكلنا تعلمنا القراءة والكتابة قبل المدرسة في كتاب الشيخ محمد، حتى سوسن ميلاد! ورغم تنوع شخصياتنا فإننا جميعًا كنا نحب القراءة، لربما كانت هي إحدى الوسائل القليلة للتسلية، وكان أكثر مـن يتسـابقون للقراءة من فريقنا، محمد جمعة، وسوسـن ميـلاد، وأنا، وكان لهادية أختي الفضل في إدخالنا إلى عالم المكتبات والقصص.

كان أول كتـاب وقع عليه بصري في مكتبة المدرسـة عنوانه «موت نملة» اسـتلب هذا الكتاب نظري فأخذته كي أقرأه في البيت، لم يكن الكتاب كبيرًا إذ لم يتعـد بضـع صفحـات فيها العديد مـن الصور، ولكنـه كان يحكي قصة نملة ضحت بحياتها في سـبيل أن تعيش أسرتهـا، وقفتُ عند الصفحة الثانية وقـرأت فيها: «وقام الولد الشـقي بهدم جحر النمل، فخرجـت نملة تعاتبه: لمـاذا فعلت هذا بنا؟ فلـم يرد الولد عليها، فقالت: سـأقف مدافعة عن أهلي حتى ولو كنت أنت أكبر مني، فقتلها الولد، فحزنت كل الكائنات عليها».

يـا ألله، أنـا فعلت مثل هذا الولد، قتلت نملًا بريئًا، أنا مجرم قاتل، قضيت

بقيـة اليـوم وأنا أبكـي في داخلي، وبعد فترة وجيزة نسـيت الأمـر وهان عليَّ الخطب، ففهمت قيمة أن ينسـى الإنسـان أحزانه، إلا أنني أصبحت عاشـقًا للمكتبة أهرع إليها في الحصص الخالية وفي الفسـحة، وأسـتعير في آخر اليوم كتابًـا أقـرؤه في البيت، ومـر العام الـدراسي، وانطلقنا في الإجـازة الصيفية، حيـث أخذت أصطحب أتـرابي فنذهـب إلى حدائق الملك، حيـث الجداول والظـلال والخمائـل والأشـجار الباسـقة، وعند الغـروب كنـا نذهب لترعة الإسماعيلية فنجلس في ولهٍ لمشاهدة مشهد عجائبي من مشاهد الكون، حين تغيـب الشـمس عن الوجود في موكـب برونزي تتيه به العقول، لا شـك أن الطبيعة الساحرة عكست صورها في وجداننا فاتسع أفقه ورحب خياله.

وفي أرجـاء الحدائـق أخذنا نتعـاون مع الطبيعة ونشـتبك معهـا، فأخذنا في تسـلق الأشـجار وكأننا قرود، وانتظمنا في قطف الأزهـار وإعداد باقات للزهور نتسـابق بها، وبرعنا في اختراع الألعاب ووسـائل التسـلية فكنا مثلًا نجمع أغطية زجاجات الكولا ونثقبها ونمرر منها «أسـتك» فتتكور فنصنع منها عجلة صغيرة نشـبكها «بسيخ حديد مطاطي» ونجري بالسيخ الذي في نهايته العجلة في سباقات ساذجة وكأننا نقود سيارات فارهة.

في منتصف العام التالي وبينما نحن في الفسـحة، وإذ كنت في المكتبة عاكفًا على كتاب يحكي رحلات جلفر في بلاد الأقزام، جاء لي محمد جمعة وسوسـن ميلاد وهما في حالة هلع والدموع تنهمر من عيونهما، ما الذي حدث؟

مات الأستاذ حمدي شملول ناظر المدرسة الذي كنا نحبه.

■■■

الموت هو القاعدة، والحياة هي الاستثناء، إذن لماذا كانت الحياة؟ من أجل الموت، إنك لا تستطيع الموت إلا إذا كنت حيًا، فالعدم غير قابل للموت، ولكن هل الموت عدم؟ بما أن العدم غير قابل للموت إذن العدم غير الموت، ما الموت؟ ولماذا كل شيء في الدنيا يقبل المساومة والتأجيل والمفاوضة إلا الموت؟ الموت هو الشيء الوحيد المنضبط في الكون، ولكنني لا أفهم من هذا التعريف معنى الموت، فقط عرفت دقته.

هلاوس في هلاوس أخذت تنتابني، وتشد عقلي الصغير شدًّا وأنا راقد على فراشي، أخذت أتمتم بكلمات غير مفهومة، جسَّت أمي جبهتي ثم صرخت: يا لهوي الولد سخن، اتصلي يا مجيدة ببيت الدكتور جورج بسرعة.

لم يكن الدكتور جورج موجودًا، فحضرت إلينا مسرعة زوجته طنط سعاد عبد الله، كانت لديها خبرة كبيرة في التمريض اكتسبتها من زوجها، قامت بقياس الحرارة واستمعت بالسماعة إلى صدري، وقامت بقياس نبضي، ثم أدارت منفلة التليفون وطلبت توصيلها بالوحدة الصحية، تكلمت مع عمي الدكتور جورج قليلًا وشرحت له الحالة، بعد قليل جاء حامد تومرجي الدكتور وهو يحمل معه أدوية، وكالعادة تم غلي الحقنة، ثم قامت طنط سعاد بحقني، لم أشعر بشيء فقد رحت في إغماءة.

ظللت قيد الفراش فترة حتى هزل جسدي - الذي كان أصلًا هزيلًا - وكان الدكتور جورج يمر عليَّ يوميًا، أما طنط سعاد فكانت لا تكاد تفارقنا حتى تعافيت.

أصبحت مشهورًا «بالإغماء» ما إن يحدث شيء مفزع حتى أروح في إغماءة وكأنني أحتمي بالغياب عن الوعي، من الأشياء التي لا أستطيع تحملها، ولكن الهواجس لم تتركني لحالي: «الإغماء هو نوع من الموت، فأنا لا أعرف ما الذي يدور فيه، كما أنني أنقطع عن الدنيا ساعتها، ولكنني أنقطع أيضًا عن الدنيا ساعة النوم، إذن النوم نوع من الموت، ولكنني في النوم أرى أشياء وأحلم، في النوم أعيش في دنيا أخرى، إذن الموت هو حياة ولكن في دنيا أخرى».

استرحت لهذا التعريف، وتكلمت مع مدرستي أبلة نبوية فيه، تعَجَّبَتْ وقالت: كيف لعقلك الصغير أن يفكر في هذه الأشياء، أنت ما زلت صغيرًا، لا تفكر في الموت، الحياة قدامك طويلة، لكن لن أقول لك إلا: اطمئن، لما بنموت بنذهب إلى دنيا أخرى غير الدنيا بتاعتنا، بنروح عند ربنا.

زاد اطمئناني، فما قالته لي أبلة نبوية يتفق مع ما فكرت فيه، إلا أنني تعجبت من أن الأبلة نبوية تظن أن التفكير في الموت يجب أن يكون مقصورًا على الكبار فقط! وكأن الصغار لا يجوز لهم التفكير فيه، مع أن الذي مات أولًا في حادث الحرب الأهلية طفلة صغيرة، وترتب على موتها موت الكبار، الكبار يظنون أن عالم الصغار بليد وغبي ومحدود، ليس فيه تفكير ولا رأي، ولو سمعوا الحوارات التي كانت تدور بيننا لتعجبوا من عمقها، كنت دائمًا أجمع أصدقائي الذين في سني وأحكي لهم الحواديت التي كنت أسمعها من الكبار، وكان أحد مدرسينا واسمه الأستاذ يسري يختارني ومعي محمد جمعة وسوسن ومنى الجبالي؛ ليحكي كل واحد منا للفصل ملخصًا لكتاب قرأه،

فحكت لنا سوسن ملخصًا لقصة سيدنا يوسف، وحكى محمد جمعة قصة عن حرب عام 1956، ثم وقفنا معه بعدها ننشد «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر فوق كيد المعتدي، والله للمظلوم خير مؤيدِ»، وحكت منى الجبالي قصة سندريلا، وحكيت أنا قصة جلفر في بلاد الأقزام، وأخذ الأستاذ يسري يسأل كل واحد منا عن الذي استفاده من القصة التي قرأها، وأذكر أنني قلت له: استفدت أني عرفت أن الدنيا فيها حاجات كثيرة فوق عقلنا، وأننا لا يمكن أن نعرف كل حاجة في الدنيا، لازم يكون فيه حاجات لا نعرفها، يعني أيام النبي ما كان أحد يعرف شيئًا عن التلفزيون، ولو رحنا لهم وحكينا عن التلفزيون لن يصدقونا، ولو حد حكى لجلفر أن فيه في الدنيا أقزام بحجم النمل ما كانش هايصدق، لكن لما سافر شاف، ولو حكى للناس مش هايصدقوه لأنهم ما شافوش.

وبالرغم من عمق الصغار فإن هناك أشياء كثيرة بديهية لا يعرفونها، فكلنا كنا نجهل معنى الملكية الخاصة، فكان في ظننا أن ثمار الحدائق من مانجو وبرتقال، وفرامبواز وتوت هي من أملاكنا الشخصية ولنا الحق في اكتنازها فكنا نسطو على هذه الثمار كما نشاء في أي وقت، ومع الجهل بمعنى الملكية وحدودها كنت - أنا ورفاقي - نجهل كيف يتكاثر الإنسان، ونجهل تعدد الأديان واختلاف مذاهب الناس، وكأن هاتين المنطقتين من الأشياء المحرمة التي لا يجوز الاقتراب منها، ولكن يحدث أحيانًا ما ليس منه بد.

يمر الزمن علينا سريعًا، ولكنني لم أكن أشعر أبدًا بالزمن الذي يمر، فالأحداث التي تتوالى علينا هي هي لا تتغير، ولكن في بعض الأحيان

كانـت تحـدث بعض التفصيـلات الصغيرة التـي تصير فيها بعد محـل حديثنا وحكاياتنا، صرت في الصف الثالث الابتدائي، وفي شـهر رمضان الذي كان يـأتي أيامها في أوائل الشـتاء كانـت الدنيا تتغير معنا، وتضيـف نوعًا آخر من الألعـاب والأحـداث لحياتنا، كان الحـدث الأول هو انضـمام صديق جديد لمجموعتنـا وهـو عصام ابن الدكتـور جورج ميلاد، كان قـد التحق بالصف الأول الابتدائـي، وكانـت شـقيقته سوسـن تتعهـده برعايتهـا وكأنـه ابنهـا فاعتبرناه جميعًا صديقًا لنا نصطحبه في كل ملاعبنا، ونسند له الأعمال الخفيفة والألعاب اللطيفة التي لا تشق عليه، وكان هو يبدو أكبر من عمره في الذكاء والفراسـة، وكان مثلنا شـغوفًا بالقراءة، وكأننا كلنا خلقنـا من طينة واحدة، وفي شـهر رمضان كانـت مجيدة أختي الكبرى تقودنا في طرقات أنشـاص في قافلـة كبـيرة من أطفـال المنطقـة ـ وكانت هـي القائدة دائمًا ـ ونحن نمسـك بالفوانيـس ذات الشـمعة ونؤرجحها يمينًا وشِـمالًا بشـكل رتيـب، ومجيدة تغنـي ونحن نغني وراءها «حلُّو يا حلُّو، رمضـان كريم يا حلُّو، فك الكيس وادينا بقشيش لا نروح ما نجيش يا حلُّو» ثم نختتم تلك القافلة الغنائية عند أذان العشـاء حيث يذهب من يذهب إلى بيته، ويذهب بعضنا لصلاة العشاء بالمسـجد، وفي سهرة من السـهرات بعد أن لهونا وجرينا وغنينا رأيت عصام جورج يهم بالذهاب مع شقيقته سوسن إلى فيلتهم، فناديته: تعال سنستكمل اللعب بعد الصلاة، فاستأذن من سوسن فأذنت له على ألا يتأخر، وقالت لي: عصام معاك على ضمانتك يا عبد الله.

أخذته واقتربت من الجامع وقلت له: سندخل لصلاة العشاء أولًا.

قال لي: أنا لا أصلي في الجامع!

فقلت له متعجبًا: لماذا؟ أنت كبير الآن ولازم تصلي.

- أنا مسيحي فمينفعش أصلي في الجامع.

- إزاي يعني؟! ما هو أنا مسلم وينفع أصلي في الجامع، أنت شكلك لا تعرف شيئًا، تعال وأنا أعلمك.

جذبته من يده فانقاد لي، ودخلنا على صنابير الوضوء، وقلت له: اعمل زيي بالضبط.

ففعل مثلي، ثم دخلنا وانضممنا للصف الأخير وبعض المصلين ينظرون إلينا شزرًا، لم ألق بالًا لهذه النظرات وقلت لعصام: افعل مثلما نفعل، إذا ركعنا فاركع، إذا سجدنا فاسجد، ففعل، وانتهينا من الصلاة.

أخذ بعض المصلين ينظرون إلينا بدهشة وأنا لا أعلم سبب دهشتهم، بل إنني اندهشت لدهشتهم، خرجنا مسرعين وعصام يقول لي: هما بيبصوا علينا كده ليه؟

قلت له بعبارات سريعة: معرفش، دي ناس غريبة والله!

وعند مدخل فيلا الدكتور جورج، سألت عصام: يعني إيه إنت مسيحي؟ هل المسيحيون لا يعبدون ربنا؟

- لأ، طبعًا بنعبد ربنا.

- وازاي لغاية دلوقت لم يعلمك أهلك الصلاة، أنت كبرت يا عصام؟

- أنا أصلي زي ماما وبابا.

- يعني بتصلي في البيت؟

- كلنا في البيت نصلي قبل الأكل دايماً وساعات ماما بتصلي واحنا نصلي معاها.

- اشمعنى يعني بتصلوا قبل الأكل! انتم ناس غريبة جدًّا! يعني لا يوجد عندكم الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء.

- نحن نصلي في كل وقت!

- يااااه انتم باين عليكوا متدينين قوي!

- لكن صلاتنا مش زي صلاتكم.

- يعني إيه؟ مش بتتوضوا ومش بتقروا الفاتحة؟

- لا مش بنتوضا، لكن بنستحمى كتير، وماعندناش فاتحة.

- يا سلام دي صلاة جميلة وسهلة دي اللي بالحُما ومن غير فاتحة.

وفي اليوم التالي بالمدرسة أغاظتني سوسن دون سبب، فانتظرت إلى أن انتهت الحصة، وقلت لها بصوت مرتفع وكأنني أزفها: يا مسيحية، يا مسيحية، يا مسيحية.

بهتت سوسن وكأنني ألقيت حجرًا على رأسها.

وفي البيت بعد الغداء جاءت سوسن لبيتنا، صعدت للدور العلوي، وسلمت على أمي وقالت لها: ينفع يا طنط إن عبد الله يفضل في المدرسة يقول لي «يا مسيحية يا مسيحية».

صرخت أمي: يا نهار اسود! ليه كده يا عبد الله.

ـ هي التي بدأت، أغاظتني فأغظتها.

ـ إنت غلطان جدًّا، غلط كبير إننا نغيظ حد بالدين.

ـ طيب فين الغلط، أنا قلت: إنها مسيحية، دول حتى يا ماما لا يعرفون الفاتحة ويصلون قبل الأكل!

ـ إنت مالك هما دينهم كده، هما مسيحيين، وبيعبدوا ربنا بطريقتهم.

ـ لأ، مش كلهم مسيحيين، عصام مسلم.

ـ مسلم ازاي يا ولد، أنت هاتخرف، اعتذر لسوسن حالًا.

ـ أنا آسف يا سوسن، لكن عصام مسلم وكمان صلى معايا امبارح في الجامع.

وهنا قفزت سوسن من السلالم في خطوتين وأمي تناديها أن تعود، ولكن سوسن ذهبت، وجريتُ أنا من أمام أمي خوفًا من العقاب «والشبشب الطائر» يخطئني وصوته يصفر في أذني، وأنا أتعجب: «ما الذي فعلته حتى أستحق العقاب؟».

عرفت في اليوم التالي أن عصام تعرض لعقاب كبير من أمه، عدت إلى البيت ساهمًا وأخذت أفكر: لماذا نختلف في الأديان، وما المسيحية؟ ألسنا جميعًا أبناء آدم وحواء، وكلنا نؤمن بالله، فلماذا يكون هناك مسلم، ومسيحي؟ ما بال الناس يختلفون ويتفرقون؟ ولكنني أخطأت، فلطالما أن دينهم يمنعهم من الصلاة في المسجد فما كان ينبغي أن آخذ عصام للصلاة، هم أحرار، كل إنسان حر في عبادته، لقد حفظت مع الشيخ محمد عثمان الآية التي تقول

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ نعم حفظتها، ولكنها آية عن الكافرين، والكفار غير المسيحيين؛ لأن المسيحيين؛ يعبدون الله كما قالت لي أمي: هم يعبدون الله بطريقتهم، ونحن نعبد الله بطريقتنا، المسألة بسيطة.

أجمعت أمري وتوجهت إلى بيت الدكتور جورج، تمليتُ اللافتة على باب الفيلا «الدكتور جورج ميلاد خليل» وكأنني أراها للمرة الأولى، اليوم أدركت أن الكون يحمل بشرًا ليسوا شيئًا واحدًا، ولكن طنط سعاد اسمها «سعاد عبد الله» وأنا اسمي عبد الله! فهل هي مسلمة ونحن لا نعرف؟!

طرقت على الباب ففتحت سوسن، أشاحت بوجهها عني فقلت لها بصوت خفيض: ممكن أشوف طنط سعاد.

- اتفضل.

دخلت مسرعًا، فصاحت سوسن بصوت مرتفع: ماما، عبد الله عاوزك.

سمعت صوتها وهي تقول: اطلع يا عبد الله يا حبيبي.

صعدت الدرج للدور العلوي، فوجدتها تجلس على أريكتها المعتادة، اقتربت منها وقلبي يرتجف للمرة الأولى، هذه أول مرة أقابل فيها طنط سعاد وأنا أشعر أنني أذنبت في حقهم، قلت لها وأنا أغالب بكائي: أنا آسف يا طنط، أنا غلطت وماكنتش فاهم، غلطت إني خليت عصام يصلي في الجامع وغلطت لما غظت سوسن، لكن هي غاظتني الأول.... وقبل أن أستكمل حديثي سمعت صوتًا مكتومًا يبكي آتيًا من غرفة قريبة، فاندفعت في البكاء.

■■■

ربتت طنط سعاد على كتفي وقالت لي: خلاص أنا سامحتك يا عبد الله، كلنا أولاد حواء وآدم، والمفروض إن الدين بيخلينا نحب بعض، احنا كلنا لا نعبد إلا الله، احنا ولاده يا عبد الله.

تعجبت من تعبير كلنا أولاده! كيف نكون أولاد الله وهو الذي خلقنا؟! وما هي أبوة الله لنا؟ فقلت لها: لا أفهم يا طنط، يعني إيه احنا أولاده؟!

- مش مامتك بتحبك قوي؟

- آه.

- وعاوزة لك الخير وبتضايق لما بيغمى عليك؟

- آه.

- ربنا كذلك، يحبنا زي احنا ما بنحب أولادنا أو أكتر كمان، ربنا يحبنا لأنه خلقنا يا عبد الله، ولو ما كانش بيحبنا ما كانش خلقنا.

- ممكن أسأل حضرتك سؤال؟

- اسأل يا حبيبي.

- هو بابا حضرتك مسلم؟!

سمعت من خلفي صوت سوسن وهي تكتم ضحكتها، وابتسمت طنط سعاد دهشة، ثم قالت: علشان اسمه عبد الله يعني؟ لا يا حبيبي هو مسيحي بس كلنا عبيد لله، وكلنا مستسلمين لله.

- طيب فين عصام؟ أنا سامع صوت عياط جوه.

- عصام متعاقب.

- سامحيه يا طنط علشان خاطري، أنا هادخل أصالحه.

ابتسمت وأومأت موافقة فهرعت إلى غرفة عصام، وقلت له إذ دخلت: هات لعبة السلم والثعبان، سأغلبك كالعادة.

وفي هذه المرة تركته يهزمني، وكانت أسعد هزيمة نلتها في حياتي.

بعد أيام جاء لي خبر مفزع لم أستوعبه، قال لي أبي ونحن على مائدة الغداء:

- صديقك أحمد شرشر سيترك أنشاص إلى الأبد.

- ليه؟!

- والده تم نقله لمنطقة الإصلاح الزراعي في الدلنجات، وسيسافرون غدا.

- فين الدلنجات؟!

- بعيدة، موجودة في مكان بعيد عن هنا.

تركت مائدة الغداء دون أن أستكمل طعامي، إلا أنني قلت: شبعت والحمد لله.

وعلى الفور عدوت إلى بيت أحمد، وجدته فرحًا وكأننا في يوم من أيام العيد، قلت له: هو صحيح انكم ها تعيشوا في بلد تاني.

- أيوه، الدلنجات، دي بلدنا أصلًا وكل قرايبي هناك، دي بلد جميلة.

- لا يوجد أجمل من أنشاص.

- بيتهيألك.

- يعني أنت فرحان؟!

- طبعًا.

- طيب اكتب لي عنوانك وسأرسل لك جوابات.

فكتب لي في ورقة: (اكتب على الظرف: الدلنجات، محافظة البحيرة، يصل ويسلم ليد الأستاذ فتحي شرشر ومنه ليد ابنه أحمد، شكرًا لساعي البريد).

كانَ أحمد شرشر من الأصدقاء المقربين مني، وكنا نتنافس في «الخط العربي» والحق أنه كان أبرع مني في هذا المضمار، كان يتفنن في تحسين خطه، وكان بارعًا في بري القلم الرصاص بطريقة تجعل الكتابة مميزة، ولم يكن أحد يباريه في هذا المجال، أما شخصيته فكانت ودودة مسالمة هادئة، لم يحدث أن أثار مشاكل مع أحد، ولذلك كانت له مكانته عندي، وإذ سينتقل والده لبلد آخر آن لنا أن نفترق، ولم يكن الفراق بالنسبة لي سهلًا أو عاديًا.

وفي اليوم التالي تحاشيت مقابلة أحمد، إلا أنني كنت أرقب بيته عن بعد، فضلًا عن أن صديقنا عدلي عبد الغفار كان يأتي لي بالأخبار، وحين تحركت سيارة العفش، وتحركت خلفها سيارة كبيرة تحمل أسرة «عمي فتحي شرشر» أخذت أنظر إليها بأسى، وقبل أن تغيب السيارتان عن نظري عدوت بأقصى سرعة خلفهما وأنا أبكي، وعدلي يجري خلفي وهو يصيح: رايح فين يا مجنون.

أبطأت من سرعتي فاستطرد علي: كفاية كده، احنا بعدنا.

كنا قد اقتربنا من كوبري أنشاص فجلست على الأرض صامتًا لا أحير جوابًا.

جلست باقي النهار في حديقة بيتنا ساهمًا واجمًا أخط بالعصا خطوطًا متشابكة على الأرض وأحدث نفسي، ما هذا الذي حدث اليوم؟

- هذا فراقٌ للأحبة.
- مثل الموت؟
- نعم مثل الموت.
- لن أراه مرة ثانية.
- والموت كذلك، إذا مات الشخص فإننا لن نراه مرة ثانية.
- ولكن المسافر موجود.
- وكذلك الميت موجود.
- المسافر أستطيع أن أرسل له خطابًا.
- ونحن نزور نينا الحاجة وهي ميتة، وأسمع أمي وهي تكلمها وتحكي لها أحداث حياتنا.
- ولكننا لا نراها.
- والمسافر لا نراه.

• ولكن الميت يرانا والمسافر لا يرانا.

• إذن الميت أفضل من المسافر.

• ولكن يظل في نفوسنا أمل بمقابلة المسافر، فقد يعود وقد نذهب إليه.

• والميّت نراه في الحلم كما رأيت الأستاذ حمدي شملول، وسنذهب بالتأكيد للميت عندما نموت مثله، وهناك في هذا المكان المجهول الذي لا أعرفه سنلتقي.

• إذن السفر والموت قريبان، كأنهما توءمان.

استرحت للنتيجة التي وصلت إليها، إلا أنني كنت حزينًا لأن أحمد لم يشعر بالحزن الذي كان في داخلي، كان في دنيا أخرى، يتشوق لبلده، كان صريحًا عندما قال: إن بلده أجمل من أنشاص، هل كل واحد في الدنيا يعتبر بلده أجمل البلاد؟

كنت أشعر بموجدة تجاه أحمد شرشر لأنه كان سعيدًا بانتقالهم للدلنجات في الوقت الذي كنت فيه حزينًا لهذا الفراق، أحمد كان في دنيا أخرى غير الدنيا التي كنت فيها، وبعد أسبوع كتبت خطابًا لأحمد، رأيت أن أضع له فيه بعض حبات من الفرامبواز والتوت حيث كان مغرمًا بهما، إلا أنني نحيت هذه الفكرة من خاطري واكتفيت بأن كتبت له: «أخي الحبيب أحمد إني مشتاق إليك كما يشتاق الجندي إلى الميدان، والبستاني إلى البستان، والمؤمن إلى شهر رمضان، وأبلغك أني بخير أنا والأسرة كلها، وكل من عندنا في أنشاص يسلمون عليك، علي ومحمد وسوسن وممدوح، وكل أولاد عم

علَّام يسلمون عليك خاصة صلاح، وأرجو أن تكون أنت والأسرة الكريمة بخير، وسلامي لهم كلهم» ثم عنَّ لي خاطر فاستطردت كاتبًا: «ملحوظة: كنت أريد أن أرسل لك حبات فرامبواز في ظرف الجواب ولكنني نسيت وأغلقت الظرف قبل أن أضع فيه الفرامبواز، فعذرًا والمرة الجاية سأرسل لك فرامبواز كتير... ملحوظة ثانية: رد على هذا الجواب في أسرع وقت: أخوك المشتاق عبد الله».

مرت الأيام وتوارى أحمد شرشر في الذكريات، لم أعد أذكره كثيرًا، وانشغلت بأحداث جديدة مدهشة حدثت في أنشاص، إذ عرفنا من الناظر الجديد الأستاذ فرحات أن الرئيس جمال عبد الناصر سيأتي لزيارة أنشاص ومعه بعض رؤساء أجانب، أخبرونا أننا ستدرب على أغانٍ معينة سننشدها وقت استقبال الضيوف، تحولت أنشاص كلها إلى خلية نحل، كان الحدث مذهلًا بالنسبة للصغار، ولكن يبدو أن الكبار كانوا قد تعودوا على تلك الزيارات إذ استقبل الملك فاروق عام 1946 في قصر أنشاص كل الملوك العرب بمناسبة إنشاء جامعة الدول العربية، كانت زيارات الملوك هذه من القصص التي كان القدماء في أنشاص يحكونها للصغار، فكان عم «الشافعي» طباخ الملك يحكي لنا عن الولائم، وكان عم «الطوخي» مصور الملك يحكي لنا عن أهم الصور التي التقطها آنذاك، ولماذا يزين بها حوائط الاستديو الخاص به، كنا نستمع لهما بشغف رغم أننا كنا نعلم من أهالينا أن «الشافعي» لم يكن طباخًا للملك بالمعنى المعروف، ولكنه كان صبيًا من جملة مساعدي الطباخين، إلا أنه تميز في هذا الفن بعد ذلك وأصبح الطباخ الخاص لمنطقة

الإصلاح الزراعي والمسئول عن إعداد الولائم للضيوف المهمين الذين يأتون كثيرًا لزيارة مدير التفتيش، أما عم الطوخي فكان يصور العاملين في القصر وكان فنانًا في التصوير ومبدعًا فيه.

كان عم الشافعي مُكلفًا أثناء زيارة الرؤساء الأجانب وعبد الناصر لأنشاص بإعداد وليمة ضخمة لهم، وكان عم الطوخي مكلفًا من مدير التفتيش بتصوير الأحداث وطوابير الاستقبال، وكنا قد حفظنا جميعًا الأناشيد الحماسية، واصطففنا منذ الصباح الباكر في مدخل أنشاص، وأخذنا نغني معًا في بروفات ميدانية «تيتو، خروشوف ونهرو، أحسن رؤساء في الدنيا، ومعاهم عبد الناصر حررنا من بريطانيا».

كان اختيار مدير المنطقة وكبار المسئولين في أنشاص قد وقع على أختي مجيدة وصديقتها منى عباس كي تقدما للرؤساء باقات الورد، وكنت أقف في أحد الصفوف الخلفية إلا أنني كنت أشرئب بعنقي وأستطيل بهامتي حتى أرى المشهد، كنت أتوق شوقًا لرؤية مجيدة وهي تقدم الزهور، وكدت أفقد وعيي من فرط الذهول وأنا أرى طيف عبد الناصر وهو ينحني لمجيدة آخذًا منها باقة الورد، ولكنني على حين غرة سمعت خلفي صوت خوار آتيًا من بعيد، تغافلت عن الصوت برهة، فعاد الصوت من جديد، لم يكن الخوار عاديًا ولكنه كان دالًا على ألم ومعاناة، طبيعته تختلف عن الخوار الذي أعرفه، إذ كان خافتًا لاهثًا متقطع الأنفاس، شدني حب الاستطلاع، أجننت أنا؟ أأترك هذا الاستقبال الذي لن يتكرر لأجري وراء صوت بقرة تخور؟! ولكن هذا هو الذي حدث، انسللت من الطابور وتتبعت صوت البقرة، كان آتيًا

من حظيرة الإصلاح الزراعي الكبيرة التي تبيت فيها الأبقار والخرفان وباقي الدواب، وكانت فيما مضى إسطبلًا عملاقًا لخيول الملك، اقتربت من الحظيرة فاقترب صوت الخوار إلا أنه كان أكثر تقطعًا وخفوتًا، شيء ما أثار الرهبة في نفسي قبل أن أرى المنظر، وحين دلفت إلى الحظيرة وجدت الدكتور محسن الطبيب البيطري للمنطقة ومعه مجموعة من عمال الإصلاح الزراعي وهم يحيطون ببقرة نائمة على جنبها على الأرض، تنتابها ارتعاشات تشنجية، كان أحدهم يجلس عند رأسها ويربت عليه، وآخر يجلس القرفصاء عند النصف الأول من بطن البقرة وهو منهمك في تدليكه، أخذت أمعن النظر وأنا ذاهل عن الدنيا كلها، كان الدكتور محسن يقول لأحد العاملين: هات الحفَّار.

فأعطاه أحدهم آلة غريبة تشبه السكين، فقام الطبيب بشق جزء من بطن البقرة من الناحية اليسرى الخلفية، والبقرة مستسلمة تمامًا لمصيرها، ثم قال الطبيب: هات المشرط، فأعطاه نفس الرجل مشرطًا، فأخذ الطبيب يوسع من الفتحة التي شقها في بطن البقرة، ثم قام بإدخال ساعده كله في بطن البقرة، وأخذ يدير ساعده ويحركه في بطنها وكأنه يبحث عن شيء. كنت قد انقطعت تمامًا عن الدنيا التي في الخارج وأصبحت دنياي كلها منحصرة في هذا المكان، رآني بعض العمال وأنا أبحلق في المشهد إلا أن أحدهم لم يعلق ولم يوجه لي حديثًا وكأنه من الطبيعي أن أكون بينهم، قال العامل الذي كان يربت على رأس البقرة: البقرة ماتت يا دكتور. لم يعقب الطبيب ولكنه صاح: أمسكت رجلها، أول ما تطلع حد ييجي يشد معي.

ومن بطن البقرة الميتة أخرج الطبيب قدمًا لبقرة صغيرة، فاشترك معه

أحـد العمال، وأخـذا يجذبان القـدم، والعـمال يصيحون: «هيـلا هيلا، صل عالنبـي» ثم خرجت بقـرة صغيرة كاملة من بطن البقرة الكبيرة الميتة، ألقوها عـلى الأرض، ثـم حملها عاملان مـن قدميها الخلفيتين بحيث أصبح رأسـها لأسـفل، وأخذ الطبيب يضرب ضربات خفيفة على رأسها المضرج بالدماء، وآخر يصب بعض الماء على هذا الرأس الذي لا تبدو عليه حياة، كرروا هذه العمليـة عدة مـرات وألقـوا البقرة الصغيرة عـلى الأرض، وأخـيرًا حركت قدميهـا وأخرجـت من أنفها صفيرًا دل على أن الهـواء أخذ يتدفق إلى رئتيها، فصاح العمال: الله أكبر الله أكبر، وأخذوا يحتضنون بعضهم فرحًا.

وهنـا جلس الطبيب على الأرض وتنفس الصعداء وقد امتلأت ملابسـه بالدمـاء التي تناثرت من البقرة الكبيرة، نظر الطبيب نظرة أسـى للبقرة الميتة وسمعته وهو يقول بصوت خافت: سبحان الله ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾.

خرجـت مسرعًا من المـكان وأنا أجري ما وسـعني الجهد وكأنني أهرب من شيء، ثم أتوقف فجأة وكأنني أنتظر شـيئًا، كنت حائرًا مضطربًا مرتبكًا، كيـف يجتمع الموت والحياة في آن واحد؟ إذن الموت والحياة شيء واحد، إنهما يلتقيان، بقرة جاءت إلى الدنيا، وبقرة ذهبت إلى دنيا أخرى، ولكن أين كانت البقرة قبل أن تولد؟

- كانت في بطن أمها.
- وأين كانت قبل أن تدخل لبطن أمها؟
- كانت عدمًا، لاشيء.

• إذن هل الحياة تخرج من العدم؟

• أبونا آدم كان عدمًا قبل أن يخلقه الله، الدنيا كلها كانت عدمًا.

• إذا كان الله خلق الدنيا من العدم، فمن هو الذي خلق الله؟

• أستغفر الله، أستغفر الله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هذه أشياء ينبغي ألا أفكر فيها أبدًا.

تَفَلْتُ عن يساري وكأنني كنت في كابوس وجريت إلى البيت أستكين تحت شجرة المانجو، وتحت الشجرة رأيت نبتة صغيرة تحاول شق طريقها للحياة فأحضرت نضحة ماء وألقيت بها على النبتة فاهتزت، ففرحت، إلا أنني سرعان ما تجهمت، ما هذا الذي كنت أحدث به نفسي؟! هذا كفر، لقد أصبحت كافرًا ويجب أن أقتل نفسي.

■■■

تعرضت في داخلي لتأنيب ضمير قاسٍ، ما هذا التخريف الذي دار في خاطري، عبيد الذي يعمل عندنا قال لي منذ أيام: لا تفكر في هذه الأشياء وإلا كفرت، وأنا فكرت، إذن أنا كفرت، والكافر يجب أن يقتل نفسه، هكذا قال الشيخ «علي الدين» خطيب المسجد الذي خلف الشيخ محمد عثمان، كان الشيخ علي الدين في خطبة الجمعة يتوعد الكفار بعذاب الله في نار جهنم خالدين فيها، ويقول: إن الله لن يتوب عليهم إلا إذا قتلوا أنفسهم ثم قرأ آية من القرآن تقول: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ

إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ولكنني لم أعبد العجل، أنا فقط فكرت في حياته وموته، هذا صحيح ولكنني فكرت في كلام آخر وسألت نفسي: من خلق الله؟ وهذا كفر، ويجب أن أتوب، ولكن التوبة كما قال الشيخ تكون بأن أقتل نفسي، لذلك سأقتل نفسي.

ظللت ساهرًا الليل أفكر في طريقة أقتل بها نفسي دون أن أتألم، وفي اليوم التالي بعد أن عدت من المدرسة قلت لنفسي: فلأتمهل قليلًا، ينبغي أن أموت وأنا شبعان، أتناول الغذاء أولًا ثم أفكر ماذا أفعل.

شبعت وتناولت الفاكهة ثم قلت لنفسي: أنام قليلًا حتى أموت وأنا مستريح.

نمت فترة طويلة حتى أيقظتني أمي، فأخذت أتلكأ في القيام وكأنني أهرب من موعد ثقيل، ولكن اتهامي نفسي بالكفر قطع عليّ طريق التلكؤ، الآن لا بد مما ليس منه بد، إلى الموت، فلأتوجه لترعة الإسماعيلية وألقي بنفسي فيها.

وعلى حافة الترعة أخذت الأفكار تتداعى على رأسي، أنا كافر، أنا كافر، ليس كفرًا هينًا، بل إنه أغبى كفر في العالم، جاءت لحظة المواجهة، سأموت الآن وأعرف حقيقة الموت، هناك أشياء لا يمكن أن نعرفها كاملة ونحن في الحياة الدنيا، هناك أشياء ستظل الأسئلة فيها معلقة لا تجد إجابة حتى نذهب إلى ربنا، يجب أن أذوق الموت بنفسي لأعرفه، هل يمكن أن نعرف طعم شيء إلا إذا تذوقناه؟ والميت الذي مات لا يستطيع أن يحضر للحياة فيخبرنا عن الموت.

ولكن انتظر هناك معضلة كبرى، فالشيخ نفسه قال في خطبة أخرى إن من يقتل نفسه يموت كافرًا!! فهل التوبة من الكفر تكون بالكفر؟! هذا أمر

عجيب، يعني لو لم أقتل نفسي فإن الله لن يتوب عليَّ، ولو قتلت نفسي حتى يتوب الله عليَّ فإنني سأموت كافرًا، وبذلك لن يتوب الله عليَّ، لقد أغلقت في وجهي جميع السكك، أنا في حيرة.

ابتعدت قليلًا عن حافة الترعة وجلست أتأمل وأفكر بهدوء، من هو الكافر؟ ومن هو المشرك؟

- هل كل من لايؤمن بالله يصبح كافرًا؟
- وهل كل من يعبد غير الله يصبح مشركًا؟
- وهل كل من لا يؤمن بالإسلام يصبح كافرًا؟

لم يجد ذهني الصغير إجابة عن هذه الأسئلة، ولكنني قفزت فجأة: أنا أؤمن بالله، وأؤمن بالإسلام وسيدنا محمد، أنا أصلي، وأصبحت أصوم، بل أنا أفعل كل التعليمات الدينية التي يقولها لنا الأستاذ محمود مدرس الدين، وأقرأ القرآن، وأحفظ كثيرًا من الأحاديث، الشيخ عليّ الدين غلطان، وعبيد غلطان، ربنا لن يحاسبني على التفكير أبدًا، ووجدتني فجأة أصيح: هيييه. وأخذت أجري وأنا أقول بنغمة واحدة، أنا مسلم، أنا مسلم، أنا مسلم، وبعض الفلاحين العائدين إلى بيوتهم ينظرون لي باستغراب، ونساؤهن ينظرن لي ويضحكن، وواحدة من الفلاحات تقول: ابن الباشمهندس اتجن. وعند الفيلا توقفت وفكرت: هل أنا مجنون؟ ياللمصيبة! أنا مجنون مثل الأستاذ أسعد المدرس في مدرسة الشهيد هاشم الرفاعي الثانوية.

■■■

يمر الزمن ولكن الأطفال لا يشعرون به، وكأنهم لا يكبرون أبدًا، ومع ذلك فكل أمنياتنا أن نكبر ونصبح مثل الكبار، لنا شوارب، ونلبس النظارات، ونمسك الغليون مثل الأستاذ أسعد المدرس المجنون، لماذا يرد الأستاذ أسعد على بالي، ألأنه يمسك الغليون ويرتدي بذلة بيضاء وببيونة حمراء، ولماذا يرتبط الغليون عندي بالأستاذ أسعد مع أن أبي وكل أصحابه يستعملونه في تدخين دخان «التوباكو»؟ نعم هذا صحيح ولكن الأستاذ أسعد يتميز عن الجميع بشرب الهواء من غليون فارغ لا يوجد فيه دخان، ولا يتم إشعاله بالولاعة أو الكبريت، لذلك كنت أحيانًا ما أمسك غليون أبي وأضعه في فمي وأنفخ فيه وهو فارغ من الدخان مثل الأستاذ أسعد بالضبط، وبهذا أكون مجنونًا، ينقصني فقط أن أرتدي البذلة البيضاء والببيونة الحمراء حتى يكتمل المشهد، ولكن ما الذي جعل الأستاذ أسعد مجنونًا؟

يقولون: إنه كان عبقريًّا، مدرس رياضيات، عبقريًّا، والعباقرة مجانين، ويقولون: إنه ضبط زوجته في وضع مخل مع أحد طلبته فأصابه الجنون، المهم أنه دخل مستشفى الأمراض العقلية بالخانكة عدة أشهر ثم فر منها وأخذ يظهر في أنشاص أحيانًا ويختفي في أحايين كثيرة، وكان عندما يظهر يتصرف بغرابة تجعلنا نخافه، فقد كان يدخل المسجد ليصلي جماعة، وفي نصف الصلاة كان يترك الصلاة ويقول بصوت مرتفع: أنتم لا تعرفون الصلاة، أين أنتم من صلاة زمان وفاتحة زمان وقرآن زمان، أتعتبرون هذه صلاة؟

وفي مرة أخرى دخل المسجد بعد صلاة الجماعة، فوقف يصلي منفردًا، فإذا بمجموعة من الفلاحين لا يعرفونه يدخلون للصلاة خلفه، وفي منتصف

الصلاة سلَّم وقال: أتموا صلاتكم فإن إمامكم كافر. فوقع المصلون في حيرة، ماذا يفعلون، وخرجوا جميعهم من الصلاة وهم يلعنونه، لولا أن أحد الموجودين بالمسجد كان يعرفه، فأخبرهم بحاله عن طريق الإشارة فسكتوا عنه، وإلا لكانوا قد فتكوا به.

السؤال الذي كان يحيرني وقتها: هل الأستاذ أسعد المجنون يعتبر كافرًا كما يقول عن نفسه؟

هو مجنون، والمجنون لا عقل له، طيب لو كان واحد من الناس غبيًّا ولم يفهم معنى الدين والإسلام، وأن الله هو الذي خلقنا، فهل يعتبر كافرًا؟ وبنفس الطريقة لو أن المؤمن الحقيقي لم يستطع شرح معنى الإيمان بالله لواحد كافر، والكافر بالتالي لم يقتنع، فهل هذا كافر حقيقي وسيعذبه الله؟ هذا ليس عدلًا، ربنا هو الذي خلق عقولنا، وعقولنا التي خلقها لنا الله لم تفهم، ثم يعذبنا الله لأنه خلق لنا عقولًا لا تفهم! أين العدل إذن؟ إذا كان الموضوع بهذا الشكل فإن الله غير عادل.

ياللمصيبة، سأعود للتخريف مرة أخرى... ولكن هذا ليس تخريفًا، هذا مجرد تفكير، وربنا لا يحاسبنا على التفكير لأنه عادل.... يا ألله، ما هذا التناقض! هذه موضوعات يجب أن أغلق عليها عقلي بالضبة والمفتاح، الشيطان هو الذي يوسوس لي بها، فإذا جاءت على خاطري سأقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾.

ولكن كيف أقنع عقلي بالسكوت وعدم التفكير؟ عقلي يؤلمني جدًّا بهذه الأشياء، ولكن تمهل يا عبد الله، أنا ما زلت صغيرًا، لم أكبر بما فيه الكفاية.

ولكن الكبار أنفسهم ليست لديهم إجابات لكثير من أسئلتي.

اصمت، لا تفكر.

وكيف أصمت؟

اقرأ القصص الجميلة المسلية.

عندما أقرأ مجلة ميكي تزيد الأسئلة في ذهني، فكل الشخصيات التي في ميكي لا تموت، وتظل في نفس العمر لا تكبر أبدًا، سوسو، ولولو، وتوتو، يظلون صغارًا طول الوقت، وميكي وبندق وبطوط يظلون كبارًا، وعم دهب والجدة بطة يظلون جدودًا، ثم إن كل الشخصيات لا تتغير، الطيب يظل طيبًا، والشرير يظل شريرًا، والساحرة تظل ساحرة، عندما أبدأ في كل قصة من ميكي أعرف نهايتها من البداية؛ لأنه لا جديد، فلماذا في ميكي لا يمر الزمن على الناس؟ وما هو الزمن؟ ولماذا نكبر؟ لماذا لا نظل كما نحن مثل شخصيات ميكي؟

ما بال هذا الطفل النكد الذي يفكر في أشياء غريبة؟ لماذا لا يفكر مثل باقي الأطفال، وما الذي حرك عقله ناحية هذه الأشياء؟ وكيف يفكر بهذه الطريقة؟

يبدو أن هذا كله كان تجهيزًا له حتى يستقبل في مقبل الأيام سرًّا رهيبًا يعجز العقل البشري عن تصديقه، ولكنه حدث.

■■■

في ثلاث سنوات حدثت أشياء مرعبة، وقعت نكسة 1967 ومصر، التي كانت زعيمة المنطقة، تلقت هزيمة ساحقة مؤلمة من إسرائيل! ورأينا في السماء الطائرات الإسرائيلية وهي تغير على مطار أنشاص وتلقي عليه بالقذائف، ثم رأينا الجنود المصريين الذين كانوا في المطار وهم يهربون ويسلكون الحدائق ويغيرون ثيابهم حتى يسهل لهم الهرب من الجندية والحرب، انتاب الفزع أنشاص كلها، وأخذنا أبي إلى قرية السعيدية القريبة من أنشاص والتي كان جدي لأمي عمدة لها، لنقيم عنده أيام الحرب، في المحن يقترب الناس من بعضهم ويتآزرون، فما بالك بالأقارب والجدود والأبناء والأحفاد؟

وفي العام التالي مات محمد الميت، مات محمد الميت ذلك البستاني الطيب المستكين، مات محمد الميت الذي حكى لي قصة قابيل وهابيل وبعض قصص الأنبياء، مات حقيقة لا خيالًا ولا تمثيلًا ولا إغماءً، عندما وصلني الخبر من عبيد ذهبت إلى بيته في الفلاحين، وعلى باب الدار صحت بأعلى صوتي متشنجًا: محمد الميت مغمى عليه، لم يمت، هاتوا له دكتور.

ولكن الدكتور جورج خرج من الدار واقترب مني وربت على كتفي وهو يقول: محمد الميت مات.. ثم وجه حديثه لعبيد: يا عبيد خذ عبد الله إلى بيته.

وفي العام الذي يليه مات عبيد، مات الذي كنت أركب خلفه الدراجة فيسابق بها الريح وأنا أصرخ وهو يضحك، مات الذي كان يحملني فوق كتفيه ويجري بي في البيت، ويصعد السلالم عدوًا، مات الذي كان يمسك

سلكًا كهربائيًّا عاريًا ثم يلمس يدي لمسة خفيفة فتنتابني رعدة الكهرباء فأجري هاربًا وأنا أكاد أموت من الخوف والضحك في آن واحد وهو يجري ورائي ضاحكًا وأنا أقول محذرًا: عبيد بيكهرب، عبيد بيكهرب.

وفي العام الثالث كانت الطامة، كنت قد أصبحت في الصف الثاني الإعدادي بمدرسة الشهيد هاشم الرفاعي في أنشاص الرمل، ذهبت إلى المدرسة صباحًا مع أصحابي إلا أن أحد المدرسين كان واقفًا عند باب المدرسة واجمًا، وإذ اقتربنا من الباب قال لنا: عودوا إلى بيوتكم فقد مات جمال عبدالناصر، لم نستوعب الكلام، هل من الممكن أن يموت جمال عبدالناصر مثل بقية الناس؟ إنه مختلف عنهم جميعًا.

عدنا إلى بيوتنا فوجدنا الخبر قد وصل إلى أهالينا، رأيت الرجال في طرقات التفتيش وهم يبكون، ورأيت النساء في الشوارع يولولن بحرقة، كل الفلاحين كانوا في الطريق العام وكأنهم لا يصدقون بل يرفضون التصديق، فهؤلاء أخذ كل واحد منهم خمسة أفدنة بعد أن كانوا أجراء لا يملكون شيئًا، وهم على ذلك يعملون في الإصلاح الزراعي ولهم رواتب ومعاشات.

أما الموظفون والمهندسون فقد رصوا كراسي أمام مقر هيئة الإصلاح الزراعي وجلسوا في حزن وصمت، وصوت الشيخ مصطفى إسماعيل يخرج من إذاعة القرآن الكريم، وعن بعد جلسنا على الأرض وأخذنا نبكي بأصوات خافتة أقرب ما تكون إلى الأنين، ثم سرعان ما تصاعد الأنين وصار نحيبًا.

أريد أن أقهرك أيها الموت، حين أكبر سأصير طبيبًا وسأبحث عن علاج للموت، سأجعل الناس يعيشون للأبد، لن تقهرني أبدًا، ولكن يبدو أن الموت أخذ في اعتباره هذا التحدي فناوشني في أغلى من أملك، إذ لم يكد العام الدراسي يمر وبعد الامتحانات وقبل ظهور النتيجة، وفي أحد أيام الخميس حتى عاد أبي إلى البيت في موعده المعتاد، ودخول أبي للبيت كانت تعقبه مراسم معينة، إذ كنا نصمت جميعًا ولا نتكلم إلا همسًا، إذ لا يصح أن نتكلم أمام أبي بصوت مرتفع، فإذا كنا نتشاجر كففنا عن الشجار، وإذا كنا نلعب ونلهو كففنا عن اللعب وانضبطنا، ثم نقترب منه الواحد تلو الآخر ونسلم عليه ونقبل يده، ويدخل هو إلى غرفته ليغير ملابسه ريثما تضع أمي مائدة الغذاء فيقوم أبي بالنداء علينا، فنأتي من حجراتنا ونجلس على المائدة، كل واحد منا على الكرسي المعتاد له، فيتلو أبي دعاء الطعام ثم يبسمل فنفعل مثله ونبدأ في الأكل.

بعد ذلك دخل أبي إلى غرفته لينام القيلولة، كان لا يمكث في نومه أكثر من ساعة، ولكنه في هذا اليوم ظل نائمًا فترة طويلة حتى أيقظته أمي ليلحق صلاة العصر، وفي المساء نده عليّ فذهبت إليه، أجلسني بجواره على كنبته المفضلة، ووضع يده على كتفيَّ ضامًّا إياهما، كان أبي رجلًا طيبًا بلا حدود، كل الناس يعرفون أنه صاحب قلب أبيض شفاف، لم يحمل حقدًا ولا ضغينة لأحد، وكان بالرغم من صرامته الظاهرة وجديته الواضحة يسبغ علينا دائمًا حنانه المفرط، فسكن في قلوبنا حبه واحترامه.

قال أبي: أنت كبرت الآن يا عبد الله، أصبحت رجلًا.

استربت من طريقة الحديث، إلا أنني قلت له: نعم.

قال: وتؤمن أن الموت والحياة بيد الله.

- نعم.

- أنت رب الأسرة من بعدي.

سكت ولم أرد.

- أنا أجلي اقترب وسأموت في هذه الأيام.

- بعد الشر،هل أنت مريض؟

ـ لا، لا أشعر بأي مرض ولكنني رأيت في أحلام كثيرة أنني سأموت، جاء لي الأموات من أهلي في المنام وأخبروني أنهم ينتظرونني قريبًا.

- هذه كوابيس اتفل عن يسارك يا أبي وقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ابتسم أبي وقال: لا، ليست كوابيس إنها حقيقة، المهم أن تتماسك بعد موتي لأنك ستكون القائم بشأن هذه الأسرة، وقد تركت لك في هذا الظرف كل الأوراق التي ستساعدكم في المعاش، وتستطيع أن تلجأ للباشكاتب الأستاذ عبد الشكور وهو سينهي لك كل الإجراءات، وقد كتبت لك ورقة وضعتها في الظرف فيها وصيتي، عليك أن تقرأها بعد أن أموت مباشرة.

غاب صوت أبي عن أذني فقد لفني اكتئاب مريع، وتاهت أفكاري وانفصلت شعوريًا عن اللحظة التي كنت فيها وكأنني أصبت بالعمى

والطرش، ولم أشعر إلا وأبي يخبط على كتفي ويقول لي: مالك؟ أنت رجل، يجب أن تتمالك نفسك، الموت مكتوب علينا جميعًا.

اغتصبت ابتسامة باهتة وقلت لأبي وأنا أهم بالانصراف: هذه كوابيس وأنت بخير والحمد لله يا بابا، ربنا يطول عمرك.

وعند فجر الجمعة سمعت صوت أبي وهو يخرج من غرفته ذاهبًا للحمام حتى يتوضأ فقمت مسرعًا، كنا نصلي فجر الجمعة في المسجد دائمًا، وبعد أن توضأت أنا كذلك، قال لي أبي: أنا متعب بعض الشيء وسأصلي الفجر في البيت.

قلت له: وأنا سأصلي خلفك.

انضمت أمي إلينا في الصلاة وبعد أن انتهينا، قامت أمي وهي تقول لأبي: سأصنع لك كوب الشاي باللبن، فرد عليها رافضًا وقال لها أن توقظه بعد ساعتين، وساعتها سيشرب الشاي باللبن.

دخلت إلى فراشي لأستكمل نومي، إلا أنني استيقظت على أمي تهزني بعنف وهي تنتحب: أبوك مات يا عبد الله، أبوك مات يا عبد الله.

قفزت من الفراش قفزًا وأسرعت إلى حجرة أبي فوجدته نائمًا على شقه الأيمن، أمسكت يده فوجدتها باردة، ووجدته وكأنه في نوم هانئ، رأيت على الكومودينو المصحف الذي كان يقرأ منه فأمسكته وفتحته وإخوتي يحيطون بالفراش ويبكون، كانت الصفحة التي فتحت عليها المصحف هي أول سورة النحل، قرأت أول آية ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ فأغلقت المصحف.

■■■

كانت مقبرة الأسرة في قرية الجوسـق التابعة لمركز بلبيس والتي ينتمي لها أبي، صممـت عـلى أن أدخل القبر مع أبي، سـأكون آخر مـن يخرج من القبر، حـاول أعمامي أن يثنوني عن ذلك، إلا أنني رفضت بجدية مفرطة، وكان أن دخلـت معه وأخذت أراقب أحد الأعـمام واثنين من الأقارب وهم يجمعون بعـض العظم الذي في المقبرة ويكومونه في جانب داخل قطعة قماش مهترئة، قال العم: هذه عظام الأجداد والأعمام رحمة الله عليهم، الفاتحة لهم.

تلقـى القريبـان اللذان معنا جثـمان أبي الملفوف في كفنه، وسـاعدناهما أنا وعمي، أدار عمي الجثمان كي يكون مستقبلًا القبلة، ثم فك الأربطة وأمسك بعض التراب من القبر وَرَشَّهُ على الجثمان وأنا أتعجب مما يفعل.

كنـت منفصلًا تمامًا عن ذاتي وكأنني لسـت أنا، ولكننـي لم أبك أبدًا رغم انفطـار قلبـي، ومع ذهولي الذي كان باديًا عليَّ عرفـتُ لماذا دخلت إلى القبر، فقد وضعت في ذهني أنني أريد أن أواجه الموت في عقر داره، أليس القبر دارًا للمـوت، أنـا الآن معه في داره وأتحداه، أأنت يا مـوت أبليت عظام أجدادي وأعمامي وستبلي عظم أبي؟ لن أهتم بك ولن أبالي، أنت يا موت لا شيء.

حين عدت للبيت قرأت الوصية:

«ابنـي الحبيـب عبد الله، هذه وصيتـي عن المدخرات، فـلا تقلق فهي مع والدتك وهي سـتكفيكم كثيرًا إن شـاء الله، اهتم بنفسك وبإخوتك وكن أبًا لهم جميعًا، الدفن في الجوسق والعزاء على المقابر ولا داعي لغير ذلك».

ولكن الأعمام والأخوال صمموا على إقامة عزاء كبير على مدار ثلاثة أيام

أحدها كان في الجوسق، والثاني كان في أنشاص، بعد مراسم العزاء تغيرنا كثيرًا إذ أصبحنا أسرة حزينة لا تعرف مكانًا للسعادة، وزاد من حزننا أننا يجب أن نترك السكن في الفيلا لأنها مخصصة للعاملين فقط، أما الذين تركوا الخدمة موتًا أو معاشًا فعليهم المغادرة.

كانت مجيدة أختي قبل وفاة أبي بعامين قد التحقت بكلية طب عين شمس، وكانت تسكن عند أحد أخوالي وتأتي إلينا الخميس من كل أسبوع وتعود للقاهرة الجمعة، وبعد وفاة أبي رأت أمي أن نستأجر لأنفسنا شقة بالقاهرة بجوار خالي في شارع ابن سندر بسراي القبة لتجمع شمل الأسرة، ولكن شمل الأسرة يتأبى على التجمع، فقد أصر جدي لأمي «العمدة غريب يوسف» على ألا أترك مدرستي «الشهيد هاشم الرفاعي» خاصة وأنني سألتحق في بداية العام بالشهادة الإعدادية، وأي تغيير للبيئة التي نشأت فيها أو المدرسين الذين تعلمت على أيديهم قد يؤدي لنتيجة سلبية، فوافقتُ ووافقت أمي المغلوبة على أمرها.

وفي السعيدية تكون لي رفاق جدد، كلهم من أقاربي ومن جيلي، وبعضهم معي في نفس المدرسة، إذ تبتعد مدرسة هاشم الرفاعي عن السعيدية بنفس المقدار الذي تبتعد فيه عن «التفتيش» وكنا نذهب إليها من السعيدية في القطار، في حين كنا نذهب إليها من التفتيش في «الترولي» الذي كنا نطلق عليه ترولي الملك.

كان رفاقي الجدد هم مصطفى الشرقاوي ابن خالتي «فاطمة» وأحمد ابن

خالي سعيد، وحسن ابن جدي أحمد « جدي أحمد هو الشقيق الأصغر لجدي العمـدة» كنا نمضي يومنا معًا لا نفـارق بعضًا إلا وقت النوم، وكانت أطيب أوقات المذاكرة عندنا هي تلك السـاعات القليلة التي نسـتذكر فيها دروسنا في مَقام «سـيدي سعيد» الذي كان يتوسط المسـجد الكبير بالقرية. كان أهل القرية يحكون كثيرًا عن كرامات سيدي سعيد، وكان كل ما يعرفه الناس عنه أنه كان من الصحابة الذين جاءوا مع جيش عمرو بن العاص إلى مصر، وأنه أقام في بلبيس فترة ثم تركها في آخر أيامه وأقام في هذا المكان وشيد لنفسه بيتًا صغيرًا فيه، أصبح مقامًا له فيما بعد.

كان جدي العمدة رجلًا شديد الطيبة إلا أنه كان في نفس الوقت حازمًا، شـخصيته طاغية ورأيه حكيم، ولديه فراسـة غريبة، بحيـث كان يعرف من عيوننـا الأخطاء التي ارتكبناها، ومع شـدته كنا نحبه ونسـعد بالجلوس معه والاسـتماع إليـه، وجدته نمطًـا فريدًا مـن النـاس، كلماته، عباراته، تفسـيره للأحـداث السياسـية، قراراتـه كعمدة، فهمـه للدين، كل هذه الأشـياء كان مختلفًـا فيها عن باقـي الناس، حتى إنه كان يخبرنا بأننا سـننتصر على إسرائيل بعـد عامـين ولكن أحـدًا مـن أقاربنا لم يكـن يصدقـه، كانـوا يعتبرونه «كبر وخرَّف» ولكنه دائمًا كان متأكدًا مما يقول.

وكان في عبادته مختلفًا عن الذين أعرفهم، فقد كان ينام بعد صلاة العشاء بسـاعة، ولكن نومه كان متقطعًا إذ كان كثيرًا ما يقوم للذهاب إلى دورة المياه ثـم يعود إلى فراشـه حتى يسـتيقظ تمامًـا في الثلث الأخير مـن الليل، ويظل صاحيًا يصلي متهجدًا لله، وكنت أحيانًا أستمع له وهو يدعو الله قائلًا: اللهم

اغفر لأخي أحمد الشيباني، وأخي عبد الله، وأخي مصطفى، اللهم أسعدهم واجمعني بهم في جنات الفردوس.

وكان يقضي يومه ما بين قراءة القرآن وتصريف أمور البلد، إلا أنه كان يعتمد بشكل كبير على خالي سعيد الذي كان يساعده في شئون العمودية.

وفي شهر رمضان كان يأتي إلى بيت جدي «الشيخ عبد الرحمن عرفة» وهو رجل من رجال القرآن ويمت لنا بصلة قرابة، وما إن يدخل الشيخ إلى الدار بعد صلاة العشاء حتى يلتف حوله رجال الأسرة وشبابها وأطفالها فيبدأ في قراءة القرآن بصوت ندي خاشع، ويستمر في القراءة إلى وقت السحور، فيتسحر ثم ينصرف.

وغالبًا كان المكان يخلو من الأقارب قرب السحور، إلا أنني كنت أظل جالسًا مع الشيخ أسمعه وهو يقلد الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وكان حين يقرأ وأنا جالس معه وحدي يتوقف عند بعض الآيات ويشرح لي معناها ببساطة شديدة.

وفي إحدى الليالي كان يقرأ من سورة النحل ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ كان جدي يجلس معنا وقد انفض القوم إلى شئونهم، استوقفت الشيخ وسألته: كيف يكون أمر الله قد أتى ومع ذلك لا نستعجله؟

قال الشيخ: نزل الأمر بأمر الله من عند الله إلى الدنيا، ولكنه لم يدخل إلى علمنا بعد، وسيدخل في علمنا عندما يقدر الله ذلك.

لم أفهم شيئًا من الشيخ، فهممت أن أستفسر منه ولكن جدي أوقفني وقال لي: ستتحدث عن ذلك لاحقًا.

لم يتحدث بعدها جدي معي في هذه الآية، ومرت الشهور ونجحت في الإعدادية، وعدت إلى القاهرة حيث أمي وإخوتي، إلا أنني كنت قد تعودت على السعيدية وعلى الساعات التي أقضيها مع رفاقي، والساعات التي أجلس فيها مستمعًا لجدي، فكنت أقضي الإجازة الصيفية كلها بالسعيدية.

وفي الإجازة التي حصلت بعدها على الثانوية العامة قضيت شهور الصيف عند جدي، وفي هذه الإجازة قص لي جدي حكاية وقعت له وعاش فيها، كانت البداية عندما قلت له ذات يوم: لم تجبني يا جدي عن سؤالي القديم.

ابتسم جدي وقال: نعم.. الآية التي قرأها الشيخ عبد الرحمن، أعرف أن هذه الآية تشغل بالك منذ أن فتحت المصحف يوم موت أبيك فوجدتها أمامك.

ذهلت، لم أكن قد قلت لأحد من قبل أي شيء عن هذا الأمر، فكيف عرف جدي؟! استرسل جدي: هناك أشياء لا تستطيع أن تعرف معناها إلا إذا عشتها، فعقولنا نسبية، والعقول النسبية لا تستطيع أن تفهم الأشياء المطلقة ولكنها تستطيع أن تلمس جانبًا منها، وقد تلمس جوانب أكثر لو عاشت حقيقة في المعنى، ولكن كل الحقيقة ليست معنا، الحقيقة عند صاحب الحقيقة.

وجدت كلام جدي غامضًا، لأول مرة لا أفهمه، وقبل أن أستفسر قال لي: انتظر، ستعرف حالًا ما خفي عليك، هذه الآية ترتبط بغيب غاب عنا

خبره، ولكنه مع ذلك موجود في دنيانا، والله يقول لنا: إننا سنعرف هذا الشيء قريبًا، هل فهمت؟

أومأت أن نعم، عاد للكلام قائلًا: ليلة القدر ننتظرها في شهر رمضان، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- نقول إنها تتنزل إلينا في الدنيا في العشر الأواخر من رمضان، أو في الليالي الفردية من العشر الأواخر، ويظل الناس ينتظرون الليالي الفردية بفارغ الصبر، ثم بعد ذلك هناك من يقول: إنها كانت في يوم كذا، والآخر يقول: لا، إنها كانت في يوم كذا، وذاك يدلل على رأيه بعلامات يذكرها، وهذا يذكر علامات أخرى رآها في اليوم الذي حدده.

- نعم أنا سمعت مثل هذه الحوارات كثيرًا.

- وطبعًا أنت تعرف أن الدول العربية تختلف أحيانًا في بداية رمضان على حسب اختلافها في رؤية الهلال.

- فعلًا يا جدي، هذا صحيح.

- وبالتالي يا عبد الله تكون الليالي الفردية عندنا زوجية عند البلد الآخر الذي صام قبلنا أو بعدنا.

- لم آخذ بالي من هذا الموضوع من قبل!

- والسؤال هو متى تكون ليلة القدر؟

- علمها عند الله.

- والله أعطى لنا مفاتيح هذا العلم.

- كيف؟

- ليلة القدر موجودة بيننا، وما علينا إلا أن نسعى للوصول إليها، لذلك فالرسول قال التمسوها، والالتماس مستمد من «اللمس» واللمس لا يكون إلا لشيء موجود وملموس، فأنا مثلًا لو خبأت كنزًا في مكان لا يعرفه أحد، وحددت له علامات، وقلت لك: التمس هذا الكنز، فإنك ستبحث عنه وفقًا للعلامات التي قلتها لك، ولكن في كل الأحوال الكنز موجود ولكنه غُيِّب عنا.

- فهمت، معنى ذلك أن الغيب لا نعرفه ولكنه موجود في الدنيا، والله إذا أراد؛ يكشفه لمن يشاء.

استمر جدي وكأنه لم يسمعني: وعلى نفس المعنى كل الاختراعات الحديثة كانت غيبًا ثم كشف الله سرها لمن شاء من عباده، الراديو كان غيبًا والتلفزيون، والتصوير، والتليفون، ولذلك تجدني مشغوفًا بكل الاختراعات، فأنا أول من اشترى راديو ترانزستور في الشرقية كلها، واشتريت تلفزيونًا مع بداية الإرسال رغم أنه لم تكن هناك كهرباء عندنا في الريف كله، وأظنك شاهدت هذا التلفزيون وهو يعمل ببطارية السيارة التي كنا نشحنها يومًا بعد يوم، وتعرف أن لديَّ ثلاجة كانت تعمل بأنبوبة البوتاغاز، ولا يوجد اختراع عرفته البشرية إلى الآن إلا وهو عندي، بل إنني سأريك شيئًا ما يذهلك.

أخـرج جدي من جيبه صورة له وهو في الخمسـين مـن عمره، وكان معه في الصـورة شـخصان لا أعرفهـما، أحدهما يبدو في الخمسـين مثلـه وإن كان شكله ليس غريبًا عنّي، والثالث يبدو أكبر منهما سنًّا، وجبتاه غائرتان وعيناه جاحظتان، وجانبا وجهه مليئان بالتجاعيد، وعمامته غريبة.

- هذه صورة ملونة يا جدي! والتلوين لا يوجد إلا في بعض استديوهات بالقاهـرة، فهـل كانت هـذه الصورة أبيض وأسـود ثم لونتهـا حديثًا في أحد الاسـتديوهات؟ ثم من هـذان الرجلان اللـذان معك في الصـورة، أحدهما شكله ليس غريبًا عني.

- هذا علم سـأقوله لك اليوم إن شـاء الله، وستجد في الذي سأرويه لك إجابات قد تساعدك على فهم أمور شغلتك كثيرًا.

- أي أمور؟

- المـوت، والحيـاة، والزمـن، والكفر، والإيـمان، والشرك، والإسـلام، والمسيحية، والجنة، والنار، والرحمة والمغفرة، والعدل، والحرية، والعقل.

- يـا جدي أمـرك معي غريب! من أين عرفت أن هذه الأشـياء شـغلت بالي؟

- أنـت رويت لي بعضها عرضًا، وأنا تفرسـت في البعض الآخر، واليوم وفي الثلث الأخير من الليل ستسـتيقظ معي فنصلي ركعتين ثم سـأروي لك أمرًا، ستظنه أسطورة، وما هو بأسطورة، ولكنه حقيقة مسطورة.

لم أسـتطع النـوم، أخـذت أتقلـب يمينًا وشِـمالًا وأترجى النـوم أن يزور

جفوني ولكنه أبى واستعصم، كان شغفي بمعرفة الأسطورة فوق احتمالي، وأنا بطبيعتي مشغوف بالمعرفة؛ فظللت أفكر في ماهية هذه الأسطورة حتى سمعت صوت جدي يدعوني للاستيقاظ، فقمت مسرعًا وكأنني أسبق جسدي حتى أقف على هذه الأسطورة.

كان رأسي مشوشًا وأنا أصلي الركعتين وراء جدي، وبعد أن فرغنا من الصلاة روى لي جدي حكاية لم أستوعبها، كان يمسك الصورة وهو يحكيها، وكان يبكي في بعض مواضعها، حتى إنني كنت أبكي معه، وحين وصل إلى نهاية القصة علا نشيجه، وفقدت وعيي.

■■■

الإغماء هو عادتي المفضلة عندما يشق الأمر عليَّ، هكذا كنت منذ الطفولة الباكرة، وكأنني أحتمي به من الأشياء التي فوق تصوري وفوق احتمال قلبي أو عقلي، أفقت من الإغماء فوجدت جدي ممسكًا بقطعة قماش في حجم المنديل، قام بتدليك وجهي بها، شممت رائحتها فوجدتها معطرة بعطر لم أشم مثله من قبل، عطر لا أستطيع أن أصفه فهو فوق الخيال وفوق النُّهى، لا يكفي أن أقول: إنه رائع، بل إن أدق وصف له أنه ليس من دنيانا أبدًا.

قلت لجدي بصوت باهت: هل الذي قلته لي يا جدي حقيقي.

- وهل جربت عليَّ كذبًا قط؟

- لا.

- ولكن العقل لا يستوعب أن هذا الأمر حدث فعلًا.

- العقل لا يستوعب أشياء كثيرة، ولكنها موجودة أو حدثت، عقولنا ضعيفة، والدنيا ممتدة، والكون يتسع، والعلم عند الله يعطي منه ما يشاء لمن شاء، في الوقت الذي يشاء وبالطريقة التي يشاء، لا راد لمشيئته.

- ليس كل العلم يصدقه الناس يا جدي، معظم العلوم لم يصدقها الناس وأنكروها قبل أن تفرض نفسها.

- يا بُني، إن الناس أبناء ما تعودوا عليه وأعداء ما يجهلونه، لا تقبل عقولهم ما لا يفهمونه، لذلك فأنا أوصيك أن تكتم ما قلته لك عن الدنيا كلها، لا تحكه لأحد، ولو خرجت على الناس بالسر الذي قلتُه لك لاتهموك في دينك وعقلك، وإن أحسنوا الظن بك فسيقولون: إن هذه مجرد «تهاويم» خطرت على قلب أحد الصوفيين ما بين اليقظة والمنام. أنا أشفق عليك وعلى دنياك. قالها لي جدي برفق وأناة.

- إذن سأحتفظ بالسر يا جدي، ولكن إذا وجدت أن العالم يحتاج إلى أن يعرف ما أخبرتني به فسأحكيه ساعتئذ، لابد وأن أكتب للناس وقتها سرك، هذا علم والعلم يجب أن أبوح به.

- ليس عليك هذا، فهناك علم يجب أن تُعَلِّمه للناس، وهناك علم لا يطيقه الناس، لا تثريب علينا إن كتمناه عنهم.

- ولا تثريب علينا كذلك إن قلناه لهم عندما نجدهم على شفا حفرة من الهلاك.

- وهل تريد من العقول يا ولدي أن تقبل وتفهم ما يتجاوزها؟! أخشى أن يظنها الناس حدوتة من نبت الخيال.

- العلم كله يا جدي في الحكاية، فإذا مجّت عقول أجيالنا حكايتك، وسخرت من سرك، فستأتي أجيال في قادم الأزمان ترحب بها، بل لعلها قد تكون وقتئذ من الثوابت التي لا شك فيها، من يدري؟! ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ألم يقل الله ذلك؟

- إذن أنت تعرف الحكاية وتحفظها كما تحفظ اسمك، لك أن تخبر الناس بها ولكنني ناصحك أن تُحسن اختيار الزمان، هذه هي الأمانة التي سأتركها لك، ولك حرية التبليغ و الكتمان.

أذّن الفجر، فقمنا للصلاة، وبينما جدي يؤم العائلة كلها للصلاة غاب في السجدة الثانية في الركعة الثانية، فتململ أحدنا، ونحنح آخر، ولم يصدر صوت من جدي! فقام خالي سعيد وهز جدي الذي كان ساجدًا، ولكنه كان قد مات.

كان عزاء جدي فريدًا في الشرقية كلها فلم يحدث أن تجمعت قرى بأكملها لتوديع ميت، حتى إن الناس من كل القرى والمدن القريبة والمراكز والعزب والكفور كانوا يتوافدون على الجنازة بشكل أكبر من قدرة القرية على استيعابهم، وكانت الغنيمة التي احتفظت بها لنفسي هي صورة جدي الملونة مع الشيخ أحمد والشيخ مصطفى، ومعها قطعة القماش ذات الرائحة الذكية التي تترك بهجة في النفس وجلاءً في الروح.

كنت وقتها على مشـارف الشباب، أتلمس خطواتي في الحياة،ومن بعدها أخذتني الدنيا بأريجها وريحها وضجيجها، انفعلت مع الحياة وانفعلت معي، حنكتني الأحداث وتجاريب الحياة، تزوجت وأنجبت، نجحت كثيرًا وفشلت كثـيرًا، ومع رحلة الحياة لم ينقطع السر عني ولم يغادرني، بل تستطيع القول: إنه كان يرسـم الكثير من خطوات حيـاتي ويحدد بعض اختياراتي، يزورني في الأحلام دومًا فأعيش معه وأنفصل عن الدنيا كلها، ولكن مع إلحاح السر على ذاتي وكينونتي كلها فإنني لم أفصح عنه لأحد ولا حتى لأقرب المقربين مني، غريبة تلك النفس التي تظل عمرها محدودبة على سر كوني أقرب للخيال هو مـن الحقيقة! هناك حقيقـة تدركها الحواس وحقائق أخـرى تُعْجـزها، ومن الحقائق ما تذهل بسـببها العقول والأفئدة، فإذا عجزت وذهلت اسـتشرفتها الأرواح.

شيئًا فشـيئًا ومع مرور الزمن أصبحت حكاية جـدي سر أسرار حياتي، وكأن هـذه الحكايـة ابني الصغير الذي أتعهده بالرعايـة والمتابعة، أقارن هذا السر دائمًا بالواقع الذي نمر عليه ويمر علينا،أتأمل آيات الكون، أسرع الخطى ناحية من سـمعت عنهم الصلاح والعلم والحكمة فأجالسهم، ألتقط المعرفة من أي طريق، تعرفت على شـيوخ كنت أحسـبهم على شيء فإذا بهم كالوعاء الفـارغ، وصاحبت نفرًا مـن الرجال تزدريهم الأعين وهـم في حقيقتهم نور آدمي يسري بين البشر، لو علم الناس والملوك فضلهم لتقاتلوا على الجلوس معهـم والأخـذ منهم وهم مع ذلك نكـرات بين النـاس، وفي كل رحلتي في الحياة كان «سر جدي» وحكايته هما شغلي الشاغل وحلمي الأعظم.

ولأن الأمانـة التـي حملتها عـلى كاهلي والسر الذي ضمـخ فؤادي يتعلق بالزمن فقد أصبحت «قصة جدي» حياة كاملة أعيشها وأحلم بها، هي حياة تحولـت إلى حلـم سرمدي، أذهـب في أحلامي إلى طفولتـي، أراني في صباي الأول عاكفًـا عـلى كتاب أو متجولًا في حديقة أو جالسًـا وحـدي على ترعة الإسـماعيلية، وأراني في حلـم آخـر وأنا أصـل إلى قمة الدهشـة عندما يخرج جـدي مـن «محفظته الكبـيرة» قطعـة القـماش البيضـاء الغريبة النسـج ذات الرائحـة الذكية، والتـي تقرأ فيها عبارة مطرزة على النسـيج «من أبي عبد الله أحمد بن محمد الشـيباني لعبد الله غريب بن يوسـف السـعيدي الثقفي باركك الله ورفع قدرك في الدنيا والآخرة».

والآن إذا وصلـت رسـالتي إليكم، فترحموا على أحمد بن محمد الشـيباني، والحاج غريب بن يوسـف السـعيدي الثقفي، والعبد الفقير إلى الله ناقل هذا العلم عبد الله أبو يحيى الجوسقي.

الحياة الثانية

زمكان

الإنســــان والإنســــان

«يجتازنا الزمن ولا نجتازه، يمر بنا ولا نمر عليه، وحين يمر بنا لا نستطيع أن نخرج منه أو نوقفه إلا أن يشاء الله. إن الله على كل شيء قدير».

الشيخ محمد الفضالي

ولما كان يوم الثلاثاء الموافق الحادي والعشرين من شهر رمضان من سنة مائتين وتسعة عشر للهجرة، والذي يوافق التاسع والعشرين من شهر سبتمبر عام 834 ميلادية،

استشاط الخليفة أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد غضبًا: أقسم أن أقتل هذا الشيخ الغبي المهرطق[1] الذي لا يفهم شيئًا ولا يحب أن يفهم، ما بال هذا الرجل يتمادى في غيه، ما باله لا ينزل على رأيي حتى بلغ به الصلف أن جاهر بمعارضتي أنا المعتصم بالله، ألم ير علماء البلاد وهم

(1) المهرطق هو الذي يبتدع في الدين ما ليس فيه.

يتقاطرون عليّ، وينحنون أمام رأيي ويقرون بأن القرآن مخلوق، هذه قضية منطقية لا شك فيها، ألم يقرأ هذا الشيخ الخرف ما قاله الله في محكم كتابه ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ فكل ما جعله الله فقد خلقه، ليس هذا من عندي ولا هذا من ظنوني، بل إن الله هو الذي قال ذلك ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ جعل أي خلق أيها الغبي الذي لا يعرف شيئًا عن القرآن، أليس في عيني هذا المتمرد نظر؟! كيف يظنه الناس فقيهًا أو عالمًا أو محدثًا، إنه ومن معه شر الأمة ورءوس الضلالة، إذن لا بد مما ليس منه بد، إذا لم يعدل هذا الشيخ عن بهتانه فسأقتله، أقسم أن أقتلك يا بن حنبل وليكن ما يكون.

اقتيد ذلك الشيخ المريض المنكود[1] أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني لمجلس الخليفة وهو يرسف في الأغلال، تثاقلت قدماه وهو يئن في داخله من الضعف والمرض والوهن والأثقال، سمع ابن حنبل صوتًا صافيًا نديًا، انتبه للصوت وأرهف السمع، ولكنه أدرك أن هذا الصوت ليس صوت أحد الجالسين في مجلس الخليفة، كما أنه لم يصله من خلال الأذن، من أين أتى هذا الصوت الشجي وكيف تردد في فؤاده؟! وي[2]، إنه صوت لا تدركه الأسماع ولكن تدركه القلوب! هذا صوت انتقل إلى روحه من روح أخرى، وكأن أحدًا يخاطبه عن بعد، كان الصوت في بدايته بعيدًا ثم أخذ في الاقتراب شيئًا فشيئًا، اجتمع الحرف مع الحرف والكلمة مع الكلمة، فانسابت المعاني

(1) منكود: أي تعس سيئ الحظ.

(2) وي: كلمة تقال للتعجب.

واضحـة إلى قلـب ابن حنبل، ها هو يرهف روحـه للصوت وهو يقول: لك الله يابـن حنبل، أنت في ضعفك جبل شـامخ، يزيـدك موقفك قوة على قوة، يحمل جسدك الأغلال والأثقال والأقياد، وتحمل روحك الأمانة التي حمّـلها لك رسول الله ﷺ، وتحتمل إرادتك تلك المحنة، أنت تنوب عن الأمة كلها، أنـت الآن في موضع الرسـالة، ومن كان نائبًا ورسـولًا لا يضعف ولا يلين، لا تخف يا بن حنبل، لن يقتلك الخليفة، لن يستطيع ولو اجتمعت معه الأمة عـلى قلب رجل واحد، بل سـيخلد ذكـرك، افتر ثغر ابن حنبل عن ابتسـامة سمحاء أضاءت وجهه كأنه انتهى من وضوئه توًّا.

نظر إليه الخليفة المعتصم: ويحك[1] يا أحمد، أفي هذا الموقف تبتسم؟! والله ما أراها إلا ابتسامة سخرية، ومع ذلك فأنا عليك شفيق، وإني لأشفق عليك مثل شفقتي على هارون ابني، فأجبني.

نظـر ابن حنبـل لقيوده، وتفـرس حاله، ونظـر حواليه وهو يزم شـفتيه، ثـم استـشرف بوجدانه حـال الأمة كلهـا ثم قال بصـوت شـديد الوهن: يا أمـير المؤمنين، أعطوني شـيئًا من كتاب الله أو سـنة رسـول الله ﷺ، يقول ما تقولـون، يا أمير المؤمنين، أتكلم معك وقد أثقلتني الأقياد، ولكن الحق أحق أن يتبـع، أنا يا أمـير المؤمنين أؤمن بحديث جدك ابن عبـاس الذي رواه عن رسول الله ﷺ، فعندما جاء وفد عبد القيس لرسول الله أمرهم بالإيمان بالله، فقال: أتدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسـوله أعلم. فقال: شـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة و.......

---

(1) تقال للتوبيخ.

قاطعه المعتصم بحسم: ماذا تقول في القرآن؟

كاد ابـن حنبل أن يقع على الأرض من شـدة الأثقـال والأغلال والوهن إلا أنـه تماسـك واشرأب بعنقه وهو يقـول: كلام الله، قديم غير مخلوق، فقد قـال الله تعـالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

المعتصم: أعندك حجة غير هذه؟

ابن حنبل: نعم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فلم يقل خلق القرآن.

ضجر الخليفة من ابن حنبل، وتأفف من ثباته: عليك لعنة الله يا بن حنبل لقد كنت طمعت فيك، وقع في ظني عندما رأيتك أنك رجل علم وفهم، فإذا بك رجل غم وهم.

ثم نظر حواليه وقال موجهًا حديثه لأحدهم: ماذا تقول في هذا؟

وقـف أحمـد بن أبي داود قاضي قضـاة المعتصم وقد أعـماه الغضب: اقتله يا أمير المؤمنين حتى نستريح منه، هذا كافر مضل.

قال الخليفة: إني عاهدت الله ألا أقتله بسيف ولا آمر بقتله بسيف.

سـكت ابـن أبي داود برهـة ثم حك عمامته بيـده وهو يقـول: اقتله ضربًا بالسـياط، الأشراف يُقـتلون بالسـيف، والعبيد يُقـتلون بالسـياط، وهذا في مرتبة العبيد.

صاح الخليفة: ستموت اليوم يابن حنبل شر موتة.

ولما كان يوم الخميس الثامن من ذي الحجة من عام 1366 هجرية، الذي يوافق الثالث والعشرين من أكتوبر سنة 1947 ميلادية:

بعد صلاة الفجر يوم التروية تحركت القافلة الصغيرة متجهة من مكة صوب منى وهم يرتدون ملابس الإحرام، ركب الحاج غريب يوسف ومعه زوجه «سيادة» ناقة تقدمت الركب، وكان قد اشترى من جدة « شُقدُف» يوضع على ظهر الناقة فيسعهما، والشقدف عبارة عن سريرين منفصلين بطول الإنسان وله فراش من أعلاه يقي الراكب من الشمس والمطر، وسارت خلفه بقية النوق وفوقها «المحفات» تحمل زوج ابنته «ناجية» الحاج محمد فرَّاج، وبعض الحجيج من مديرية الشرقية، وتوسط الركب ناقة تحمل متاع الحجيج، أخذ ابن المطوف محمود بن عبد القادر الهمداني موقعه كحادٍ للركب[1]، صدح بالتلبية «لبيك اللهم لبيك» فارتجت القافلة من صيحات الملبين، انتفض قلب الحاج غريب يوسف انتفاضًا إيقاعيًا مع أصوات الملبين، وارتجف رهبًا مع ارتجاف الناقة في سيرها، فها هو في الحج للمرة الثانية في حياته، كانت الرحلة الأولى شاقة إلا أنها كانت أروع ما مر على حياته، وها هي الرحلة الثانية يصطحب فيها زوجته أم أولاده «سيادة علي عرفة الرفاعي» من نسل السيد أحمد الرفاعي والتي يصل نسبها لسيدنا الحسين رضي الله عنه، أما هو فيصل نسبه إلى قائد الجند الأموي الحجاج بن يوسف أبي عقيل بن الحكم الثقفي من ثقيف بالطائف. كان فؤاد زوجته

---

(1) الحادي هو الذي يسوق الإبل بالغناء.

يرتع في فيض من إيمان ورضا وقناعة لا مثيل لها، وكان قلبه بين اثنتين، فهو الحاكم الذي لا يلين، وهو الزاهد الصوفي الذي لا ينقطع عن البكاء من خشية الله، منذ أن أصبح عمدة لقرية السعيدية بمركز بلبيس مديرية الشرقية منذ سنوات قليلة وهو يديرها بقوة شكيمة ومضاء عزيمة ونفاذ بصيرة، وكان في ذات الوقت يتفرغ للعبادة وكأنه لا يحكم ولا يدير.

كان الظاهر بيبرس قد أقام هذه القرية عام 668 هجرية 1269 ميلادية إبان حكمه، جعلها درة من الدرر الفريدة في مديرية الشرقية ناحية بلبيس، وجعل في أوسطها قصرًا له - لم يُقم فيه أبدًا - حتى عدها المؤرخون من أعماله العمرانية النيرة، ولأن الظاهر بيبرس كان ممن يتفاءلون ويتطيرون فقد أشار له أحد المنجمين أن يطلق على هذه القرية اسم السعيدية نسبة إلى أحد الأولياء المدفونين فيها « سيدي سْعِيد» - والفلاحون ينطقون سعيد بتسكين السين وكسر العين على عادة طريقة نطق المصريين أيام الفراعنة - والذي كان مقامه مزارًا لأبناء قرى حفنا والجوسق والعبسي وبير عمارة وهي القرى التي تحتضن المقام وتحيط به.

وفي نهاية حكم الظاهر بيبرس اشتعلت النار في قصره بالسعيدية وامتدت إلى بيوت القرية فأحرقتها بالكامل فابتأس بيبرس واعتبر أن هذا الحريق نذير شؤم، وبالفعل لم يمر العام حتى مات بيبرس مسمومًا بسم كان قد أعده لأحد القادة من قواد جيشه ولكنه أخطأ وتجرعه.

أقام بعض المماليك قرية السعيدية مرة أخرى بعد ذلك طمعًا في قصرها

وموقعها وغيطانها، إلا أن ما حدث في السابق تكرر مرة أخرى، فقد احترقت القريـة بكاملها، سـبع مرات والقرية تُبنى ثم تُحرق حتـى أطلق عليها الناس اسم «المحروقة».

ومـع ذلك لم ينصرف الناس عن السـكن في تلك القرية، وكيف يتركونها وفيها مقام «سـيدي سـعيد» الذي لم تصل إليه النار ولا لمـرة واحدة رغم أنه كان في قلـب القريـة؟! كانت النار تصل إلى جميع الدور فإذا أتت ناحية المقام انحرفت بها الرياح إلى جهة أخرى فيظل المقام سليمًا، وهو الأمر الذي جعل أهل القرية أشد الناس تمسكًا بها تبركًا بسيدي سعيد ومقامه الغريب.

مـرت الأزمان والقرية واقعة في لعنة الحريق، قامت فيها حرائق لا حصر لهـا حتـى اعتبرها الفلاحـون قرية موبـوءة بالحريق إلا أنهـم في ذات الوقت اعتبروهـا واقعـة في حماية سـيدي سـعيد، ولكن شـيئًا ما يمنع بركة سيدي سـعيد مـن أن تحـل بالمـكان! وفي كل مـرة يشـتعل فيهـا حريق بالبلـد يهرع الأهـالي للمقام يوقدون له الشـموع ويقدمون له النـذور، ومع ذلك فلا يمر العـام حتى يتكرر الحريق مـرة أخرى حتى بات أمرًا اعتياديًـا مألوفًا على مر الأجيـال، وإذ كان الفلاح من أعيان تلـك القرية يذهب إلى بلبيس في حاجة له، سواء للاتفاق مع « الخواجة «فرغوبلي» تاجر الأقطان، أو ليشتري ماشية لأرضـه كان الخواجـة أو التاجر يقول له: أأنت من قرية المحروقة؟ إذن يجب أن تقوم بتوريد القطن قبل موسـم الحريق. أو إن كامل ثمن الماشـية يجب أن يتـم سـداده قبل أن تشـعلوا النـار في قريتكم، فيضحك الفلاح ملء شـدقيه وهو يقول: القطن بتاعي واخد من بركة سيدي سعيد فلا تمتد له النار، كنت

تيجي تشوف الحريق بتاع «أول عمنَوِّل» النـار كلت الدنيا كلها وجت على داري ووقفت.

أو يقـول لتاجـر المواشي: طـب دا ديك النهـار لما النار مسـكت في البلد وكانت رايحة نحْية الزريبة يادوبك قلت يا سـيدي سعيد قامت النار حودت بعيد غادي.

أخـذ الأهـالي يبحثون عن حلـول لمواجهة هذه الحرائق مجهولة السـبب، وفي ليلة صيفية هادئة اجتمع أحد رجالات القرية واسـمه «يوسـف غُرَيِّب» ومعه إخوته غـَريب وحفني وحسن، مع جده لأمه الشيخ «حسن أبو عرفة» عمدة القرية، وضم الاجتماع رءوس عائلات فراج والأهواني وعرفة وغالي. كان الحـاج حسـن أبو عرفة عمدة المحروقة مـن كبار ملاك الأراضي في تلك الناحيـة وكان يقتنـي عددًا من العبيـد جعل بعضهم لحراسـة مخازنه وغلاله وأطيانه، وجعل البعض الآخر لخدمة البيت والأضياف، يعرف النـاس قدره ونسـبه إذ يصل نسـبه للسـيد أحمد الرفاعي وصولًا إلى سـيدنا الحسين رضي الله عنـه، وكان أهـل المنطقـة يطلقون عليه « الشـيخ حسـن أبـو عرفة حفيد النبـي» وهـو الأمر الـذي كان يضيف إلى مقامـه مقامًا وعلـوًّا، ورغم تنامي نفوذه وسـلطانه في قرى المنطقة فإنـه كان رجلًا حكيمًا حصيفًا حافظًا للقرآن رءوفًا بالناس رحيمًا بعبيده، لم يره أحد ينهر أو يسخط أو يتأفف، فإذا قال له أحدهـم إن شئون العمودية تقتضي الحزم والغلظة، كان يرد قائلًا: إنما أتأسى بجدي النبي ﷺ.

وفي الاجتماع الـذي انعقد في بيـت العمدة أو «البيت الكبـير» كما كانوا يطلقـون عليـه، قـرر الحـاضرون بناء مسـجد كبير يحيـط بالمقام، فقد سـمع يوسـف غُرَيّب من الشـيخ ذائـع الصيت محمد الفضالي أن المقام بلا مسـجد كالرجـل بـلا بيت، ولعل الحرائق التي تنشـب في البلد يكون سـببها غضب سـيدي سـعيد على إهمال أهل البلد له وعدم بناء مسـجد له، أيكون عندهم سيدي سعيد ولا يبنون له مسجدًا ويقيمون مسجدهم بعيدًا عن المقام؟!

المهـم أن بنـاء المسـجد اكتمل ودخل المقام إلى المسـجد وأصبـح له خادم مقيم ينظفه ويقوم على شـأنه وشـأن شـموعه وبخوره ونذوره، ولكن ما إن حال الحول حتى نشب حريق كبير في البلد كالعادة!!

ولما كان يوم الأربعاء الموافق الثاني والعشرين من شهر رمضان من سنة مائتـين وتسعـة عشر للهجرة، والتـي توافق الثلاثين من شهـر سبتمبر عام 834 ميلادية

اجتمـع خلق كثـيرون أمام بيت ابن حنبل في حي الكـرخ ببغداد يطلبون الاطمئنـان على الإمام، فخـرج عليهم ابنه عبد الله وقال لهم: إنه الآن في أسر المعتصم لا يعرف شيئًا عن حاله منذ أن أخذوه من الدار.

وأين هو الأسر يا عبد الله؟ هكذا قال له أحد الخلق.

ـ الأسر في القصر.

ضجـت الرعية بالبـكاء وجأرت[1] بالدعاء والتـضرع حتى خرج عليهم

(1) جأرت: استغاثت ورفعت صوتها.

مـن بيت مجاور لبيت ابن حنبل رجل رَبْعَة ليس بالطويل ولا بالقصير أبيض الوجه مُشـَرَّب بحُمرة، أخذ هذا الرجل يصيح بصوت جهوري آسر فسكت الناس عن الكلام وأخذوا ينصتون له وكأن على رءوسهم الطير.

- يـا عبـاد الله، إن الله لا يسـتجيب لقـوم قعدوا، إن الله لا يسـتجيب إلا لمـن يتحرك صوب الحق، إن تنـصروا الله ينصركم، إمامكم الآن يُمتحن عن الأمة كلها في فتنة عمت وطمت[1]، وسـيجلدونه في أحد أفنية قصر الخليفة، فاذهبوا إليه وانصروه.

تحـرك النـاس عـلى الفـور زرافـات[2] وفـرادى، واتجهـوا صـوب قصر الخليفـة، وعنـد أسـوار القـصر وجـدوا جماعـات مـن النـاس يصيحون ويصخبـون، والجنـد يحاولون منعهم مـن التقدم، ظل النـاس على تجمعهم، وكانـت أعدادهـم تتزايد كل برهة حتـى أصبح الرائي لا يسـتطيع الوصول ببصره إلى نهاية الجموع.

ظـل العامـة خـارج القـصر ينتظـرون نتيجـة الامتحـان، وما عتَّمـوا أن هجسـوا[3] بامتحـان إمامهم وتعذيبه حتى عراهم الاضطـراب، ولج[4] بهم القلق، وظهر كأن قصر الخليفة سـيغدو هدفًا لهجومهم، فأخرج المعتصم لهم «إسـحاق بن حنبل» عم الإمام أحمد ليمـوِّه عليهم بأن الخليفة لم يلحق بأحمد

---

(1) عمت وطمت: زادت وغطت.

(2) زرافات: جماعات.

(3) ما عتموا أن هجسوا: ما لبثوا أن خطر على بالهم وسرعان ما انتابتهم الهواجس.

(4) ولج بهم القلق: داخلهم القلق.

أذى ولم يصبه بسوء، وقف إسحاق بن حنبل بين الناس قائلًا: أيها الناس، إن إمامكم ابن أخي بخير حال وهو يناظر العلماء إلا أن دروب الجدل طويلة، وسيعود إلى بيته بعد المناظرة سليمًا مكرمًا إن شاء الله.

ومن جوف الناس برز عبد الله بن أحمد بن حنبل وتقدم ناحية باب القصر فأفسح له الجند وأدخلوه فوقر في يقين الناس أن الإمام في خير حال، فهدأت النفوس إلا أنهم ظلوا على حالهم لا يغادرون أماكنهم قيد أنملة.

وعند الفجر رفع رجل الأذان ثم أقيم للصلاة، وإذا بمن رفع الأذان يتقدم الصفوف ليؤم المصلين، قال: الله أكبر. فكبر الناس ودخلوا في الصلاة، سكت طويلًا ثم قال: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله. تعجب الناس مما حدث وقالوا: مخبول يؤم المصلين! إنا لله وإنا إليه راجعون. فصاح الرجل: إي وربي، إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد مات القرآن، مات القرآن، كيف أصلي بكم والقرآن قد مات، مات القرآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فهيا بنا نغسله ونكفنه وندفنه!!

صاح الناس: أنت مجنون، أنت مجنون.

قال الرجل الغريب: لست أنا المجنون، بل المجنون هو من يقول إن القرآن مخلوق، فكل مخلوق لا بد وأن يموت.

ولما كان يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من شهر رمضان من سنة مائتين وتسعة عشر للهجرة، والذي يوافق اليوم الأول من شهر أكتوبر عام 834 ميلادية؛

دخل ابن حنبل على مجلس الخليفة وهو مكبل بالأغلال مثقل بالأقياد يرسف[1] من وطأة ما هو فيه، قال له الخليفة المعتصم بالله: هذه فرصتك الأخيرة أيها الشيخ الخرف، هل ما زلت على قولك؟ إنك إذن من الذين سلكوا مسلك الثنويين والوثنيين والمجوس الذين جعلوا الإله الواحد آلهة متعددة ، أنت بقولك هذا تجعل من القرآن إلهًا، يا بن حنبل، كل ما عدا الله مخلوق، فهل القرآن هو الله في زعمك؟!

كانت الدنيا تدور بابن حنبل، وكان الألم يعتصره، ولكنه كان ثابتًا على موقفه، مرت عليه في هذه اللحظة ذكريات حياته، يتذكر يوم أن كان طفلًا صغيرًا وجنازة تخرج من بيتهم، فقد مات أبوه، لم يكن وقتها يستشعر معنى اليتم، ولكن الرجل الطيب الذي كان يحنو عليه اختفى، أين ذهب؟ كان هذا هو السؤال الذي ظل يسأله أمه، وكانت الأم تجيب الصغير بفطرتها: لقد ذهب إلى مكان أحسن من مكاننا.

فيرد الصغير وهو يحبس دموعه: وهل هناك أحسن من بيتنا؟

- نعم يوجد يا بُني.

- نعم عرفت، ذهب إلى قصر الخليفة.

- بل ذهب إلى قصر رب الخليفة.

- ومن رب الخليفة؟

---

(1) يرسف: يمشي ببطء من ثقل القيد.

- الله ربنا جميعًا.

- أنا أريد أن أذهب إلى ربنا.

تلاشت الصورة من ذهنه على صوت المعتصم وهو يغلظ له القول: أجب أيها السفيه، هل القرآن هو الله؟

رد ابـن حنبل بصوت مرتفع: أحد صمد، لا شـبيه له ولا عدل، وهو كما وصف نفسه.

ارتفـع الضجيـج في مجلـس الخليفـة مـن أتباع هـذا السـلطان، يوجهون الأسئلة لابن حنبل، وهم يطمعون في هزيمته وقهره وإذلاله.

أغمـض ابن حنبل عينيه، غاب مرة ثانيـة بروحه عن أهل المجلس وكأنه ليـس معهم، هـام في دنيا أخـرى، جرت في خيالـه صورة الإمام الشـافعي، كان قد مات منذ خمسـة عشر عامًا، ولكنه كان ماثلًا أمامه وكأنه يشـد أزره، شـاخصًا أمام بصيرته يهدهد جأشـه، ندت عنه ابتسـامة شـاحبة وهو يتذكر نبوءة الإمام محمد بن إدريس الشـافعي، النبوءة، نعم النبوءة! لله در الشافعي أي رجـل كان! لا يـزال ابن حنبـل يتذكر ذلك اليوم الذي جـاء له فيه رجل من مصر يُدعى الربيع بن سليمان، دخل الرجل عليه في المسجد وأخذ ينظر إليـه مليًا، وعندما عرفه وتيقن أنه هو سـلم عليه وقال له: أنا رسـول أخيك محمد بن إدريس الشافعي وقد أرسل إليك هذا الكتاب. فرح ابن حنبل فرحًا كبيرًا، يا ألله، ما هذه الليلة السعيدة،أستاذي وشيخي الشافعي بنفسه يرسل لي رسـالة! أخذ ابن حنبل يسـأل الرجل عن الشافعي وأحواله وأحوال أهل مصر قبل أن ينظر في الكتاب، ثم قال للرسول: هل نظرت في الخطاب؟

قال الرسول: لا.

فض ابن حنبل الختم وقرأ الكتاب حتى إذا بلغ موضعًا منه بكى.

قال رسول الشافعي: يا أبا عبد الله، أي شيء قد كتب إليك؟

ابتسم ابن حنبل: ذكر الشافعي في كتابه لي أنه رأى النبي ﷺ في نومه وهو يقـول لـه: بشِّر هذا الفتى أبا عبد الله أحمد بن حنبل أنه سـيمتحن في دين الله، ويدعى أن يقول القرآن مخلوق، فلا يفعل، فإنه سـيضرب بالسـياط، وأن الله عز وجل ينشر له بذلك علمًا لا يطوى إلى يوم القيامة.

فرح رسول الشـافعي وقال لابن حنبل: هذه بشارة ورب الكعبة، إن الله سينشر لك علمًا لا يُطوى إلى يوم القيامة، فأي شيء جائزتي عليها؟

عـاد ابـن حنبل بوعيه إلى مجلـس الخليفة على صوت الوزيـر ابن أبي داود وهـو يقول: تبًّـا لك، إنك أحدثت في ديننا أمرًا عظيمًا، ليسـت أمامك فرصة أخرى للعدول، فإما أن تَعدل، وإما أن تُقـتل.

ظـل ابن حنبل سـاهمًا وكأنه لم يسـمع الوعيـد، وعاد بروحه إلى رسـول الشافعي حامل الخطاب، رأى نفسه وهو يخلع من على كتفيه غطاءً كان يتدثر به من البرد ويعطيه للرسـول هدية، ابتسـم ابتسامة هادئة بشوشًا وهو يتذكر تلـك اللحظة وفرحة الرسـول بالهديـة، ومرت الأحداث عـلى ذهنه فزادت ابتسـامته اتسـاعًا على وقارها وهو يتذكر وقع الهدية على الشـافعي نفسه «إذ عـاد الربيع بن سـليمان إلى مـصر ودخل على الشـافعي، فعـرف الإمام قصة الثـوب، فقـال للرسـول: والله لا نفجعك فيه ولكن اغسـله وجئنا بمائه. ولما

غسله وأعطاه الماء في قنينة، أخذ الشافعي يمسح كل يوم من هذا الماء على وجهه تبركًا بذلك الفتى المغمور الذي سيمتحن ذات يوم في كتاب الله وفي دين الله وسيثبت على الحق!».

وها هو الآن يُمتحن وفقًا لنبوءة الشافعي ورؤية رسول الله ﷺ، انتبه ابن حنبل على رجال يجذبونه بغلظة إلى آلة الضرب ليربطوه فيها، فأوقفهم بقوة شكيمته ونظر إلى الخليفة: يا أمير المؤمنين، لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث، فبم تستحل دمي؟ يا أمير المؤمنين، اذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يدك، يا أمير المؤمنين راقب الله.

بوغت الخليفة بكلام ابن حنبل فتغير وجهه وأطرق برأسه وانسابت الدموع من عينيه، وظهر لين قلبه من قسماته، كاد الخليفة أن يوجه حديثه للجنود بترك الرجل المقيد بالأثقال، ولكن الوزير أحمد بن أبي داود قفز من مكانه وكأن عقربًا لدغه: يا أمير المؤمنين، إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، وإن هذا الدعي الكافر غلب خليفتين، أتقبل أن يغلبك رجل من أغمار أمتك؟ عاد الهياج إلى وجه الخليفة فأخذ يتجول في المكان حيرة، ماذا يفعل وايم الله، أيتركه، أم يقتله؟ ابتعد الخليفة إلى أقصى المكان وكأنه يبتعد عن الذنب الذي يوشك أن يقع فيه، ثم طلب كرسيًّا فأتوه إياه ثم جلس وقال: اضربوه.

تقدم صاحب الشرطة إلى الخليفة باضطراب وقال له: رجل يبدو أنه مجنون يثير الناس خارج الأسوار ويقول لهم: إن القرآن قد مات.

قفز ابن أبي داود خطوة وقال للخليفة، أرأيت كيف يعبثون بعقول الناس؟

رد عليه الخليفة وقد ضاق صدره: هذا كلام المجانين، ليس على المجنون حرج يابن أبي داود.

ضحك ابن حنبل، وما رأوه ضاحكًا من قبل، فقال له الخليفة: علامَ تضحك يا رجل؟

قال ابن حنبل: هي منحة لا محنة، فقد فَقِه العامة ما جهلته الخاصة، هذا الرجل يرد عليكم، يقول إذا كان القرآن مخلوقًا فحق عليه الموت مصداقًا لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

تمعر[1] وجه الخليفة وقال للجند: اضربوه، قطع الله أيديكم.

استمهلهم ابن حنبل ثم أخذ صُرة صغيرة من قماش وربطها إلى كم قميصه، فقام إليه صاحب الشرطة إسحاق بن أبي إبراهيم المصعبي وسأله: ما هذه الصرة التي صررتها في كم قميصك يا أحمد؟

نظر له ابن حنبل بوجهه الهادئ المتعب: فيها شعرتان من شعر النبي ﷺ.

وإذ جذب أحد الجنود قميص ابن حنبل ليمزقه نهره صاحب الشرطة: لا تمزقه، ولكن انزعه عنه.

تقدم الجندي الأول فضرب ابن حنبل ضربتين والخليفة يقول له: أوجع، قطع الله يدك. فقال ابن حنبل: بسم الله.

---

(1) تمعر: تغير لون وجهه وعلته الصفرة.

وضربه الجندي الثاني فقال ابن حنبل: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وضربه الثالث، والرابع والخامس وهكذا دواليك وابن حنبل يقول عقب كل ضربة: «القرآن كلام الله غير مخلوق»، ثم «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، ثم «ما شاء الله كان»، ثم «هذا في رضى الله»، وعند الضربة الثلاثين انقطع رباط سرواله وكاد السروال يقع فتنكشف سوءته، فرمى ابن حنبل طرفه نحو السماء، وحرك شفتيه قائلًا: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش إن كنت تعلم أني على الصواب فلا تهتك لي سترًا ولا تُبد عورتي، فما أسرع أن ظل السروال في مكانه لم يتحرك رغم انفصال رباطه عنه!

ومع توالي الضربات خف أثرها عليه،وعاد ابن حنبل إلى أزمنته وهو بعد صغير، فرأى أمه وهي تتعهده برعايتها وترسله وهو في الخامسة عشرة من عمره إلى المُحدث «هُشيم بن بشير الواسطي» ليتلقى منه علوم الحديث، رأى ابن حنبل نفسه وهو يحث الخطى ناحية المسجد الذي يلقي فيه بن بشير دروسه، يسير بخطواته الوئيدة وهو يحمل معه جرابه الذي فيه لوحه وريشته وقطعة جبن صغيرة وكسرة خبز، ثم رأى نفسه وهو يجلس على شيوخ الحديث فيأخذ منهم ويسلك دروبهم، ثم إذا به يرى نفسه في السجن مقيدًا بالأغلال وهو شيخ عجوز: أترى كان موقفي صحيحًا عندما تمسكت برأيي في قضية خلق القرآن؟

- لماذا لا أفعل مثل باقي العلماء وآخذ بالتقية، أقول للخليفة ما لا أعتقد حتى أنجو من الضرب والقتل؟

■ وهل ثباتي هذا سيجعل هذا الخليفة المغرر به يعدل عن موقفه؟

■ أحمد بن أبي داود لعب بعقله، أقنعه، فماذا سيجديه ثباتي؟

● ما هذا الذي أفكر فيه؟! لا يعنيني اقتناعه أو عدم اقتناعه، يعنيني الحق والباطل واللعب بعقول العامة وتحريف الدين.

● إن ترخص كل الناس فلا ينبغي أن يترخص ابن حنبل.

عاد ابن حنبل إلى دنيا الضرب والجلد، لم يعد لوقع السوط على ظهره أي ألم، وكأن جسد الإنسان جُبِل على اعتياد الألم حتى يصبح جزءًا منه.

وبينما هو في الضرب رأى ابن حنبل رجلًا يعرفه، رَبْعَة[1] أبيض الوجه مشربًا بحمرة يقف أمامه، تمتم ابن حنبل: هل بصري يخاتلني[2]، أم أن ما أراه وهم اعتراني من أثر الضرب! هذا هو جاري في السكن عبد الله الرصافي، كيف دخل إلى هذا المكان؟! خاطبه الرصافي برفق وكأنه سمع تمتماته: نعم أنا هو، اثبت يا بن حنبل.

- وهل لي إلا أن أثبت؟ ولكن يخيل إليَّ أن أحدًا معك.

- وهل ترى الذي في معيتي؟

- أراه ولكنه كواقف خلف غَمَامة لا أستطيع أن أتبين تفاصيله!!

- بصرك لم يدركه ولكن روحك هي التي أدركته فاستبصرته وستراه

(1) ربعة: متوسط القامة ومعتدلها.

(2) يخاتلني: يخادعني.

شاخصًا أمامك في أقل من لمح البصر، هل لا يزال جسدك يشعر بألم الضرب؟

- لا يوجد ألم! هل توقفوا عن ضربي؟

- لا ولكن الله جعل ضربك بردًا وشفاء كنار إبراهيم.

- كيف دخلت، وكيف لم يمنعك الجند؟!

- هم لا يرونني، فقد قست قلوبهم ولف الصدأ أرواحهم.

- أأنا أهذي؟

- أنت في كامل وعيك، انظر لقد انتهوا من ضربك وهم يحملونك الآن إلى حجرة من حجراتهم، سأحملك أنا وسأخرج بك من هذا المكان، فهم لا يقدرون على حمل رجل مثلك.

كان الرصافي يحمل دورقًا طف[1] الماء فيه حتى سطحه، وضع أصابعه في الدورق ثم نثر الماء الذي علق بأصابعه في وجه ابن حنبل، وأخذ يمسح بالماء على هذا الوجه الأسمر الوجيه.

انتبه ابن حنبل للدورق، فابتسم وقال للرصافي: هذا دورق أعرفه ويعرفني، تحمله وتحملني، سقيتني منه مرة، ومسحت منه على وجهي اليوم فلا تضع في فمي ماء فإني صائم، ولكن إلى أين ستحملني؟ سيبحثون عني في كل مكان.

---

(1) طف: ارتفع.

- سيرونك أمامهم مغشيًا عليك، ولكنك ستكون معي.

- يبدو أن الحمى أصابتني، أنا محموم، أين ستذهب بي؟!

- أنت صحيح ولست محمومًا، وسأذهب بك إلى مصر.

- عند الشافعي صاحب النبوءة! اللهم ارحمه رحمة تليق بك، والله إنه أحد ستة أدعو لهم كل يوم في قيام الليل.

- هناك أثرك يا من تباركت بشعرات رسول الله ﷺ، الماء الذي غسل به الشافعي ثوبك، وجعل الماء في قنينة ليمسح به على وجهه كل يوم، كان الشافعي يتبرك بأثر منك يا بن حنبل.

- ومن أنا حتى يتبرك بي الشافعي؟!.

- أنت ابن حنبل من ذاد عن الأمة في فتنة خلق القرآن.

- إن أمرك عجيب يا رصافي، تأتيني في هذا الموقف لتذكرني بالشافعي وحاله معي، ثم إذا بك تدبر أمر سفري لمصر دون أن تحفل بمن سيطاردنا من رجال المعتصم! أي قافلة تلك التي ستقلنا إلى هناك وأي ناس سيرافقوننا، ثم لماذا مصر؟!

- قافلتنا لن يطاردها أحد، وسنذهب لمصر لترى فتنًا كقطع الليل المظلم.

- صه، كأنني رأيت من قبل نفس ما يمر بنا الآن، هو هو، أظنك أتيت لي في سجن العامة بدرب الموصلية منذ عدة أشهر ودار بيننا نفس الحديث.

- حدث وسيحدث، قلت لك من قبل إن الزمن يدور بنا ولا نديره.

- كثير من كلامك يا رصافي مثل كلام الصوفية، ولكنني أرى بعيني ما يعجز عقلي عن تفسيره، ولكن هل يتحمل جسدي سفرًا.

- جسدك سيتبع روحك، وستكون في مصر بالنفس والروح، إن شاء رب العزة.

- يارب سلم سلم، عرفت أن حاكمها «كيدر نصر بن عبد الله[1]» يمتحن العلماء هناك في خلق القرآن، أتخرجني من حفرة لتوقعني في نقرة؟ سيسلمني الوالي «كيدر» للمعتصم، لا شك في هذا.

- زمان «كيدر» ولّى يا بن حنبل، وهناك من هو ألعن من كيدر، وفتنة خلق القرآن هي أهون الفتن، فماذا لو رأيت ما هم عليه الآن؟!

- يارب سلم سلم، دعني هنا في محنتي.

- أتكون فتنتهم ولا ابن حنبل لها؟!

- إذن خذني وانطلق، ولكن كيف تأخذني! وكيف أغيب عن هؤلاء الذين أثقلوني بالأغلال فلا يلحظون غيابي؟!

- بقوة ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾.

- سمعتها منك من قبل.

---

(1) كيدر نصر بن عبد الله: هو حاكم مصر في زمن الخليفة المعتصم بالله، وكان يمتحن العلماء أيضًا في خلق القرآن وفقًا لأوامر المعتصم.

ولما كانت الساعة الثامنة من صباح يوم الخميس الثامن من ذي الحجة من عام 1366 هجرية، الذي يوافق الثالث والعشرين من أكتوبر سنة 1947 ميلادية،

توقفت النوق في الطريق للراحة رغم أن مِنى كانت على مرأى البصر، قال ابن المطوف للعمدة الحاج غَريب يوسف: إننا نأخذها يا حاج غريب على مرة واحدة دون توقف، ولكن لأجل خاطرك وخاطر الحريم فإننا أنخنا المطايا هنا لراحتكم وراحتهم، المسافة قصيرة كما رأيت، وأنت حججت معنا من قبل وتعرف الدروب والمسالك، فوالذي نفسي بيده لقد سلكت بكم أقصر الطرق وأكثرها راحة وأمنًا، قل لمن معك أن ينتشروا في المكان مقدار ذبح شاة وسلخها، أي بالكثير نصف ساعة، ولكن فليحذروا من الصيد أو قطع الحشائش أو فعل أي شيء يخرجهم من إحرامهم، ولكن لهم فقط قتل الحشرات الضارة.

جلس الحاج غريب بجوار زوجته «سيادة عرفة» في مكان قصي يستريحان فيه من عناء حركة واهتزاز الناقة التي كانا يركبانها، ورغم أن الحاج غريب كان قوي الشكيمة كجده الأكبر الحجاج بن يوسف الثقفي، فإنه كان ضعيف الجسدِ واهنُ كأبيه يوسف غُريِّب.

ومع ذلك فإن ضعف جسد أبيه «يوسف غريب» لم يمنعه من الإصرار هو وباقي رءوس العائلات في البلد من الجهاد ضد الحرائق التي ما فتئت تشتعل في قريتهم كل حين، ولسبب لا يعرفونه استمر غضب «سيدي

سعيد» على أرض القرية وموقعها فلم يسبغ حمايته عليها، لك الله يا سيدي سعيد، أتختار هذا المكان مدفنًا لك ومكانًا لمقامك ثم تترك النار ترتع في بيوت أهل الناحية دون أن يكون لك حول ولا قوة؟! وفي سبيل إرضائك أقام الفلاحون مسجدًا لك اقتطعوا نفقاته من «لحم الحي» حتى يضم بين جنباته مقامك، ورغم ذلك يا سيدي سعيد لم يهنأ أهل البلد إلا بضعة أشهر وبعدها قامت قيامة الحريق المعتاد!!

ولكن على من؟ أبضعة حرائق تفت في عضد رجال القرية الذين جُبلوا على خوض الصعاب! إذا عُدتِ يا نار، عُدنا يا رجال.

عاد يوسف غريب وإخوته مرة أخرى للاجتماع مع رءوس العائلات في البلد بقيادة العمدة الحاج حسن أبو عرفة الرفاعي وعقدوا العزم مع الشيخ محمد الفضالي شيخ الطريقة البيومية على إقامة احتفال كبير في البلد قربى لله، على أن يكون ذلك إحياء لمولد الشيخ علي نور الدين البيومي الأحمدي مؤسس الطريقة البيومية، وفي اليوم الموعود من عام 1887 ميلادية تقاطر على قرية المحروقة الأتباع والمريدون من أبناء الطريقة البيومية، وجحافل لا حصر لها من أبناء ومريدي كل الطرق الصوفية، ليحتفلوا مع أبناء المحروقة بمولد سيدي علي البيومي، رضي الله عنه وأرضاه.

نصب يوسف غريب - بإشراف جده حسن أبو عرفة ومعه عائلات البلد - الخيام والمضارب خارج حدود القرية لتستقبل كل الوافدين المحتفلين، وذبحوا الذبائح ومدوا الموائد، وقضت القرية ليلة لم تقض مثلها

مـن قبل في الذكر وسـماع التواشـيح، ولا تزال الأجيال تلهـج بذكرها وذكر الذبائح التي آلت يومها إلى البطون.

انفـض المولـد والكل على يقين من أن القرية لن تعـرف للحرائق طريقًا، فكيف تقترب النار من أرض شـهدت ذكرًا لله في مولد سـيدي علي البيومي الأحمـدي؟ هـذه أرض اجتمع فيها الأسـياد، فمقام سـيدي سـعيد يتوسـط القرية، ومولد سيدي البيومي يحيط بأطرافها، أهناك حماية أكثر من ذلك؟!.

مرت الشـهور ولا حس ولا خـبر على نار أو حريق، اتخـذت دور القرية كل الاحتياطـات الممكنـة لمنـع الحرائق، فامتنعـوا عن وضع حطـب القطن وحطب الذرة وقش الأرز فوق الأسـطح، واكتفـوا فقط بوضع « الجِـلة» - والتي يطلقون عليها اسـم المسك - لتقابل الشـمس في شروقها وتودعها في غروبها.

ظلـت القريـة ببركة سـيدي البيومي وفضل سـيدي سـعيد تنعـم بالبعد عـن الحرائق فـترة وصلت إلى عامين، وفي تلكم الأيام تزوج يوسـف غريب مـن فتاة وضيئة فاتنة اسـمها عيوشـة من عائلـة « العِجْل» بأنشـاص الرمل وبنـى عليهـا في ليلة كألف ليلة، ذبح فيها الذبائـح وأولم وأطعم أهل القرية، وبارك زواجه الشـيخ محمـد الفضالي الذي أحضر معه بعض كبار المنشـدين مـن مديرية الشرقيـة ومديرية الدقهلية هدية منه للعريس الشـاب زينة عائلة «غريـب» والذي اجتمع له نبـل الأصل وشرف الأرومة وكرم المحتد، وكلما بعدت الشقة بين أهل القرية وبين ذكرى آخر نار اشتعلت في دورهم هدأت

النفوس وتباركت بليلة المولد ثم بزواج يوسف غريب آخر نسل الحجاج بن يوسف الثقفي.

وما إن وضع أهل القرية بطيخة صيفي في بطونهم حتى هاج حريق لم يكن لـه مثيلًا من قبل، وكأنه كان يدخر قوته ليفني القرية عن آخرها، وكالعادة لم يُصب المسـجد ولا مقام سـيدي سعيد بأي خسـائر اللهم إلا مجرد «الحوسة» نار لحقت بجدران المسـجد وطالت سور المقام، وعادت ريما لعادتها القديمة «وكأنك يا بو زيد ما غزيت».

أصبحـت القريـة أطلالًا ينعق عليهـا البوم، ترى الحـزن في عيون الناس وقلة الحيلة بادية في قسمات وجوههم، ماذا يفعلون؟ وكيف يتصرفون؟

وقبـل فجر أحـد الأيام توجه ركبٌ غريبٌ جاء مـن خارج القرية صوب مسـجد سـيدي سـعيد، كان عـلى رأس هـذا الركب الشـيخ محمـد الفضالي حيـث كان في انتظاره يوسـف غريـب وعدد من أعيان القريـة، صلى الجميع صلاة الفجر ثم جلس الشـيخ الفضالي ومعه زمرة من أهل الطريقة يقرءون أورادًا تُبعـد النار والشرر والضرر عن القرية، وعند الضحى صلى كل واحد مـن الحاضرين صـلاة الضحى فرادى، ثم استمروا في أورادهـم وأدعيتهم وقرآنهم إلى أن رُفع أذان الظهر.

وبعد صلاة الظهر اصطحب يوسـف غريب الأضياف وأعيان القرية إلى بيته، بعد أن استأذن في ذلك من جده العمدة الحاج حسن أبو عرفة، وكان قد قام بترميمه على عجل، وفي أروقة الدار ودهاليزه وغرفه كانت الدنيا «تضرب

تقلب» فقد انشغل الجميع بإعداد الطعام، فقد وقفت شقيقته «كاملة» على الكوانين التي يطهى فيها الطعام، تُخرج صواني وتدخل غيرها، يتحلق حولها عدد من الإماء والخادمات يساعدنها ويستجبن لطلباتها، وبجوارها وقفت الأم «أمونة» ابنة العمدة حسن أبو عرفة ومعها عدد من عبيد أبيها ممن لم يبلغوا الحلم بعد، تنهر وتأمر حتى يخرج الطعام في أشهى صورة، إلا أن زوجته عيوشة كانت في شهرها الأخير تنتظر مولودًا حان موعد نزوله إلى الدنيا، وإذ خشي عليها زوجها يوسف فقد أمرها بالاحتجاب في هذا اليوم وعدم مغادرة الفراش.

وبعد أن انتهى الأضياف والأعيان من تناول الطعام وشرب القهوة، انفرد الشيخ الفضالي بيوسف وأسر له بسر جعل وجهه يكاد ينطق من الفرحة.

خرج يوسف ومعه الأعيان في توديع السادة الصوفية حتى وصلت الركائب إلى قرية الجوسق فسلموا عليهم سلام مودع، وقال الشيخ الفضالي قبل أن يستدير بوجهه إلى ناحية الطريق: خذ بالك يا سيد يوسف من ابنك القادم، فالبركة معه إن شاء الله.

وعند عودة يوسف وأعيان القرية ألح عليه الشيخ مصطفى الأهواني زوج شقيقته كاملة أن يصدقه القول: ما الذي قاله لك الشيخ الفضالي يا يوسف عندما انفرد بك؟

بدت الحيرة على يوسف، أيجيب أم يسكت؟ إلا أنه عزم أمره وأخبر زوج شقيقته بالسر: قال لي الشيخ الفضالي إن هذه القرية ملعونة من أيام الفراعنة،

لذلـك لم يبـن أحد في هذه الأرض، ولم يسـكن فيها إلا سـيدي سـعيد الذي حصنه الله بالقرآن، ويقال - والعهدة على الشيخ الفضالي - إن سيدي سعيد صحابي جليل وهو جد أحد شيوخ الإمام أحمد بن حنبل، وكان من الصحابة الذيـن جاءوا مع جيش عمرو بن العاص، ثم اسـتقر به المقام في هذا المكان، وقد عاش فيه وحده مسـتهزئًا بما قيل له عن لعنة الفراعنة، ورغم أن سـكن سـيدي سـعيد في هذا المكان قد أزال جزءًا من رهبة الناس من هذه الأرض الموحشـة، فإنهـم ظلوا عـلى بعدهم لا يريـدون الاقتراب منهـا أو المرور بها، لذلك كانت منطقتها بورًا وقاحلة، بعيدة عن القرى المجاورة التي أقسـمت ألا تقترب منها حتى لا تنالها لعنة الفراعنة، إلى أن رآها بيبرس فأعجبه المكان فأصلح أرضها وأقام قصره، وقد شجع هذا أهل القرى الأخرى على النزوح إلى قريتنا التي كان اسمها السعيدية، ومع ذلك ظلت الحرائق تنهبها.

قـال الشـيخ مصطفى الأهواني: كلنا يعرف يا شـيخ يوسـف هذه القصة ونحفظها من الألف إلى الياء، فما الجديد إذن؟

رد عليـه يوسـف غريـب: قال لي الشـيخ محمد الفضالي إن الله سـيرزقني من زوجتي عيوشـة بأبناء كثيرين بنين وبنات، أولهم وهو القادم إن شـاء الله سيكون ولدًا، طلب مني أن أسميه «غـَريب» وقال إنه سيكون فريد عصره، وسـتحدث له حادثة من غرائب ما يمر على بني آدم، ولكنه سـيكون مباركًا إن شاء الله، وسيكون حاكمًا في قوة جده الحجاج بن يوسف الثقفي، أما قلبه فسيكون عامرًا بالإيمان كقلب سيدي علي نور الدين البيومي، وسييسر الله له أمرًا يقضي به على لعنة الحرائق. قال لي في نهاية كلامه: اسـمع مني يا يوسـف

ابنـك غريـب هـذا هو الذي سـيطفئ نـار اللعنـة، لا أنا ولا غـيري مهيئون لذلـك، كل مهيـأ لما خلق له: فقلت له: وكيف سـيطفئ نـار اللعنة؟ قال لي: ببركة سـيدي وسيده، سيفعل ابنك شيئًا يُعجز العقول ويُذهل القلوب، وما سيفعله عن أمره. فقلت له: ومتى سيفعله؟

فقال: فعله في زمن ليس كزمننا ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾.

ثم قال لي: اعلم يا يوسف أن «سين» سيفعل هنا ليست للاستقبال ولكنها للاسـتمرار واليقين، كقوله تعـالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فقد كان الله قد كفاهـم، وقوله تعـالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وكانوا قد قالوها قبل نزول الآية، فكلنـا رهـن ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾، ثـم أخذ يكررها حتى انقطع الحديث بيننا.

حطت قافلة الحجيج الصغيرة رحالها في مِنى، وقام محمود بن عبد القادر الهمـداني ابـن المطوف بتوجيه «الحجيـج» أبناء مديرية الشرقيـة إلى خيامهم، وكان قد أعد خيمة صغيرة للحاج غريب يوسـف وزوجته سـيادة علي عرفة وزوج ابنته «ناجية» الحاج محمد فراج، بحث الحاج غريب يوسف عن مكان قضاء الحاجة فدله المطوف على بيت خلاء خصصه له ولأسرته يحيط به ساتر من خشـب غير بعيد عن خيامهم، عاد الحاج غريب من بيت الخلاء وتوضأ فأسـبغ الوضوء وخلل الماء بين أصابع قدميـه، ثم صلى الضحى فأطال، وإذ انتهـى من صلاتـه جلس في خيمته يقرأ القرآن، وكان قد أقسـم من قبل على أن يختـم القـرآن دفعة واحدة يوم التروية، ولكنه لم يكن يعرف أن السـاعات القادمة تنتظره بمفاجأة لم تخطر على باله أبدًا.

وإذ أخـذ يجتهد في القراءة وزوجته «سـيادة» تحدب عليه وترعى شـأنه، وزوج ابنتـه محمـد فـراج يتجول خـارج الخيـام يتفقد الحجيـج ويبحث عن المعـارف من أبنـاء الشرقية، وحين بغتة سـمع الحاج غريب صوتًـا مألوفًا له حبيبًـا إلى قلبـه، هل هـذا معقـول؟! هكذا قال الحـاج غريب في نفسـه وهو يرهف السـمع لهذا الصوت: لقد تركته في مصر ولم يقل لي: إنه سـيحج هذا العام! إنه هو نفسه!!

ارتفـع الصوت قائـلًا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريـك لك لبيك، إن الحمـد والنعمة لك والملك، لا شريـك لك. ثم أردف الصوت: أذَّن إبراهيم فاستجبنا، وعلى كل ضامر أتينا، هوت الأفئدة فلبَّيـنا.

إنـه هو، لا شـك في ذلـك، هذا أمر غـير معقول!! انتفـض الحاج غريب مغادرًا الخيمة ليبحث عن صاحب الصوت.

الحياة الثالثة

زمكان

كلمح بالبصر

«يحمل الإنسان لمحة من صفة المكان الذي مر به،
وقدرًا من طبيعة المكان الذي لبث فيه، وفيضًا من
شخصية المكان الذي مكث فيه».

الشيخ عبد الله الرصافي

ولما كان المكان حي الكرخ الواقع على الجانب الغربي لنهر دجلة بمدينة بغداد، كان الإنسان الذي مكث فيه هو أحمد بن حنبل، وكان الإنسان الذي لبث فيه هو:

عبد الله الرصافي الذي عاد من رحلة طويلة ركب فيها سفنًا مخرت عباب البحار، وطوى فيها على ظهر الإبل الفيافي والقفار، كانوا يسمونه في الزقاق عبد الله السائح، وكان أهل الذكر من الصوفيين الذين يتحلقون للذكر في مسجد «الصوفان» يسمونه عبد الله الغائب، فهو في الحقيقة لا يلبث معهم إلا بضعة أشهر ليغيب عنهم بضع سنين، لا يعرفون عن حاله شيئًا، أيخرج للتجارة والتبضع، أم للحج والعمرة وطلب العلم؟ أما طلبة العلم في

مسجد ابن حنبل فيسمونه «عبد الله الغامض». فمنذ أن حل على الزقاق وهم لا يعرفون شيئًا عن نسبه وأصله، قال البعض: إنه من رصافة العراق. وقال آخرون: إنه من رصافة الرقة بالشام. ولكنهم أحبوه واستبشروا به، عرفوه عابدًا ناسكًا زاهدًا، ومع ذلك فإن الخير لا ينفد من داره، استغرب أهل الزقاق أن ليس له زوجة ولا أولاد، ولكنهم اعتبروا هذا الأمر من الحوادث التي تجري على النساك والمتصوفين، وللحق فإن عبد الله الرصافي كان صاحب يد على الزقاق كله، فعندما انفلت الأمن في زمن «الأمين» بعد وفاة هارون الرشيد قام الرصافي ببناء باب كبير للزقاق على نفقته، حيث أقام عضادتي (جانبي) الباب من الحجارة الضخمة المدببة، وجعل الباب نفسه من أخشاب جذور أشجار الحور الصلبة، واعتاد الزقاق إغلاق الباب بعد صلاة العشاء، وبعشرة دنانير شهريًا استخدم الرصافي رجلًا من «الصوفية» كي يكون حارسًا على الباب، يراقبه ويفتح المزلاج في الليل لمن يفد إلى الزقاق متأخرًا، فحصَّن الرصافي بعمله هذا الزقاق من هجمات اللصوص والعربان، وقد شهد أهل الزقاق ببراعته في البناء والنجارة وظلوا عمرًا يتحاكون عن أهازيجه التي كان يترنم بها أثناء البناء، إذ كان ينشد قائلًا:

«امنعوا الزقاق يا عراقْ إنها القلوب في اشتياق»
«حصنوا البيوت والرواق واهجروا الذنوب والنفاق»

كان الأطفال يتصايحون حوله وهو يتناول الحجارة من البنائين، ينشدون كما ينشد، وهو يعدهم بصندوق حلوى لكل من يناوله ألواح الخشب، أما شباب الزقاق فكانوا يهرعون إلى المساعدة في حمل الحجارة الثقيلة وتعشيقها.

وفي الأشهر التي كان الرصافي يقضيها في الزقاق لم يكن أحد يراه إلا في المسجد أو عند حوائج الناس، ومن التصاريف أن كان بيته مجاورًا لبيت ابن حنبل، فكان دائم الانصراف إليه والجلوس معه، لم يرهما أحد يتحدثان عن الدنيا وأحوالها فقد كان حديثهما عن الآخرة والدين.

وكما عرفت المساجد ابن حنبل فقد عرفت الرصافي أيضًا، ولكن ابن حنبل كان يلقي دروسه ويعلم الناس الحديث وأمور دينهم، أما الرصافي فقد كان لا يتكلم إلا نادرًا، تجده مصليًا ساجدًا ذاكرًا مستمعًا لدروس العلم.

ولكن شيئًا غريبًا لاحظه الناس خاصة الشيوخ والعجائز منهم فأدهش عقولهم، فمع مرور الزمن تغير الناس في خلقتهم ولكن الرصافي لم يتغير، لا يزال كما هو، ربعة، وجهه أبيض مشرب بحمرة، لحيته مخضبة بالحناء، لم تعرف التجاعيد طريقها إلى وجهه، في بدنه قوة وفي مشيته اعتدال، ما بال هذا الرجل لا تمر عليه السنون؟! أهو من البشر! والله إن أمره غاية في الغرابة، يقول البعض: لقد نضره الله بالإيمان. ويقول البعض الآخر: ليست له زوجة ولا أبناء، لذلك فإن قلبه خالي الوفاض لا يحمل للدنيا همًّا. ورفع البعض من قدر بشريته فقالوا: لم نره يمد يده من قبل على طعام أو شراب، فإذا دعي إلى وليمة قال: إني صائم. ينبعث من داخل بيته نور ليس كنور المشكاة أو المصباح أو الشعلة، يسمع الجالسون بجوار داره قراءته للقرآن فيقولون: والله إن هذا صوت كصوت ابن مسعود الذي تروي الأحاديث والأخبار طراوته، فسرت الشائعات أن الرصافي ولي من كبار الأولياء يُخفي عن الناس خبره، وساعد على سريان تلك الشائعات الغموض الذي اكتنف سيرته، ورحلاته الكثيرة التي يخرج إليها بين الحين والحين.

يذكـر الزقـاق يـوم أن التقى الرصافي بابـن حنبل أول مـرة، كان ذلك في المسـجد وقـت صلاة العشـاء، فرغ المصلون مـن الصلاة، فأخذ هـذا الوافد الجديد يتفرس وجوه القوم، حتى إذا رأى رجلًا نحيف القوام أسـمر الوجه وسـيم القسـمات اقترب منه وألقى عليه السـلام قائلًا: السلام عليكم يا بن محمد بن حنبل الشـيباني. رد ابن حنبل السـلام وهو يتأهب للقيام فأجلسـه الرجل قائلًا: أنا عبد الله أتيت من بلاد بعيدة ووضعت رحالي عندكم، بحثت عن دار تجاورك فاكتريتها.

قال ابن حنبل: نعم الجار أنت، أتعرفني؟

رد الرصافي: أنا ما أتيت إلا إليك.

نظر إليه ابن حنبل بإمعان وقال: يخيل إليَّ أنني رأيتك من قبل!

- وستراني من بعد إن شاء الله تعالى.

ومـن بعد وجـد ابن حنبل قلبـه مشـدودًا إلى الرصافي، رآه ينطـق بالحكمة مع أنه لم ير في بيته كتابًا أو ورقة أو قلمًا، استـشرفه زاهدًا ناسـكا حافظًا للقرآن والحديـث حتى إنه كان يراجع معه أحاديث سـبق أن راجعها مع إمام الحديث «عبـد الرزاق» فيجد علمها عنده، وما إن تتبع أخباره حتى عرف أنه كان رفيقا لمعروف الكرخي إمام التصوف السني فأكبره ووضعه في منزلة الأئمة الكبار.

والأرواح جنـود مجنـدة، تآلـف القلبان فأصبحا وكأنهـما في قالب واحد، لاتعرف من يأخذ من الآخر، إلا أن الرصافي كان ينطق بالحكمة فيفتح لابن حنبل مغاليق كانت قد استغلقت عليه.

حينما عاد الرصافي هذه المرة من رحلته الطويلة أسرع إلى بيت ابن حنبل قبل أن يدخل داره، طرق الباب طرقًا خفيفًا فإذا بصوت ابن حنبل من الداخل يقول: هذا طرق الرصافي، والله ما غبت عنا إلا بالجسد، والروح تلقى الروح من دون الجسد.

فتح ابن حنبل الباب ورحب بالرصافي، وفي لحظات كان قد اجتمع نفر من الجيران يرحبون بذلك الجار الذي اشتاقت قلوبهم لرؤيته، فجلسوا على باب دار ابن حنبل يسمعون صاحبهم وهو يحكي لهم بعض ما مر به في أسفاره، ثم توجه بالحديث لابن حنبل قائلًا: لي رسالة لك يا بن حنبل.

كان ابن حنبل دائم النظر إلى الأرض، فرفع رأسه وكأن الدهشة قد استولت على مجامع قلبه وقال: أي رسالة؟! وممن؟!

- ركبت في بعض رحلتي سفينة حطت بنا في جزيرة من جزر الهند، فخرج الركاب يبيعون ويشترون، وبينما أنا أبحث عن دين الناس وعلى أي عبادة هم فعرفت أنهم يعبدون الشجر والبقر، ثم دلوني على رجل قالوا إنه مسلم يعبد الله على دين الإسلام، وحينما أخذوني إليه وجدته شيخًا مهيبًا أبيض الرأس واللحية؛ فسلمت عليه وتحدثت معه فسألني: من أي البلاد أنت؟ فقلت له: من بغداد. فقال: إذا أتيت بغداد فأقرئ أحمد بن حنبل السلام وقل له: إن عبدًا لله يقول لك: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ اصبر عندما تُمتحن في القرآن فأنت على الحق.

أطرق ابن حنبل مليًّا ثم قال: وما الصبر إلا على طاعة أو عن معصية أو في محنة.

خشع وجه الرصافي وهو يقول: ولكن هذا الصبر هو صبر تبليغ الرسالة، هذا هو صبر الرسل، ستُمتحن يا بن حنبل كما امتُحن رسل الله فصبروا على الحق، سيمتحنك أميرٌ، وسيبغضك وزيرٌ، وسيجلدك فقيرٌ.

دمعت عين ابن حنبل واهتز صوته: هذه نبوءة الشافعي، هذه نبوءة الشافعي.

قال أحد الجيران: وكيف ستُمتحن يا بن حنبل وأنت الإمام، فهل يُمتحن الأئمة! أرى أن الرصافي يكذب، أيها الناس، هذا الرصافي غريب عنا ولا نعرفه، قلنا عنه إنه شيخ صالح، فإذا به جاء لكي يثير الفتنة بيننا، ويوغر صدور بعضنا على بعضنا، والله إن هذا الرجل ليس له إلا القتل.

ولما كان المكان قرية المحروقة بمركز بلبيس مديرية الشرقية، كان الإنسان الذي مكث فيه هو:

الطفل غريب يوسف الذي أتم العاشرة من عمره وهو يحفظ القرآن ويتقن الحساب والكتابة، لم يلعب كباقي الصبيان، ولم يمسك جريد النخل ليصنع منه حصانًا متوَهَّمًا يركبه ليسابق به الغلمان، ولكنه انكب على القرآن وأحب مخالطة الرجال خاصة عندما كانوا يندمجون في جلسات الذكر ويصل بهم الوجد إلى درجة التطوح، وكان في ذلك مختلفًا تمام الاختلاف عن أخويه الصغيرين «السيد» و«حسن» إذ كانا يهربان من الكُتَّاب، ويختبئان من أبيهما عندما يعرفان أنه في طريقه إلى جلسات الذكر.

عقد الأب «يوسف» النية على أن يرسل ابنه غريب إلى الأزهر ليتلقى

العلم، ولكن جلسة جمعته بالشيخ محمد الفضالي والجد الشيخ حسن عرفة الرفاعي انتهت إلى إلحاق غريب بالعمل كمساعد لكاتب حسابات وحامل للدفاتر في الدائرة الخديوية بأنشاص، يقول الشيخ محمد الفضالي ليوسف: هب ابنك للعمل وسيتعلم وهو في الدائرة البيوع والكراء والإدارة، وسيفهم مكر اليهود الذين يتعاملون مع الدائرة وكُهْن التجار ولؤم الفلاحين، سيعرف ابنك أصول الحكم.

فيقول يوسف وهو يضرب كفًّا بكف: وهل سيحكم مصر يا خَيّ!! هذا بعيد عن شنبات البلابسة والشراقوة، ألم تر ما الذي حدث لأحمد عرابي ابن الشرقية، لا ياعم الشيخ الفضالي، دعنا من هذه الحكاية ولندخله الأزهر ليكون مثل الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي أو حتى الشيخ محمد عبده، وقد تكون المشيخة هي طريقه للحكم.

يقول الشيخ الفضالي: الحكم حكم ولو كان على قريتكم،ثم يوجه كلامه للعمدة الشيخ حسن أبو عرفة: ألست تحكم المحروقة يا شيخ حسن؟

يقول الشيخ حسن أبو عرفة الرفاعي: صلاح الحاكم صلاح للرعية، اسمع يا يوسف، ابنك هذا هو أحب الناس إلى قلبي وسيجلس على مجلسي هذا وبصلاحه وفهمه لأصول الحكم سيصلح الله به المحروقة وستكون على يديه السعيدية، أما العلم فإنه علم القلوب، هناك علم بالتلقي وهذا هو علم العامة، وهناك علم الترقي وهذا هو علم الخاصة، وإني لأظن حفيدي هذا ممن سيترقون.

اشتد عود غريب يوسف وبلغ مبلغ الرجال وظهر نبوغه في الحساب حتى إنه كان يحسب حسبة من أربعة أرقام مضروبة في مثلها في ثانية أو ثانيتين دون أن يستعين بقلم وورقة، وعندما وجد التجار الكبار يستأجرون حدائق الخديو عباس حلمي التي بأنشاص أشار على أبيه يوسف بأن يسلك هذا الطريق ويستأجر كما يستأجر التجار، ثم أفهمه تفصيلات المسألة ومسالكها.

ترك غريب العمل في الدائرة وأخذ هو وأبوه يستأجران حدائق الأمراء التي بناحية أنشاص، ثم استقل عن أبيه واستأجر حديقة كبيرة في قرية بيجام بالقليوبية من أملاك دائرة إبراهيم باشا أدهم (والتي آلت بعد وفاته لابنته زينب هانم أدهم) وأصبح الخير يجري على يديه والمال يتدفق من أعماله وتجارته، وقد أفاء على أهله من الخير الذي أرسله له الله، فاشترى -على حداثة سنه - لنفسه ولأبيه وإخوته الأراضي والأطيان.

ولكن أين موضع الحرائق من المحروقة؟ سبحان الله! ابتعد زمن الحرائق، فبعد أن كانت تنشب في القرية مرة كل عامين تقريبًا، لم تنشب منذ أن وُلِد غريب إلا ثلاث مرات، وكانت جذوتها ضعيفة وكأنها في طريقها إلى الأفول، ولذلك كان من حق الفلاحين أن يتساءلوا: أي بركة تلك التي بدأ نورها يطل على القرية؟! وعندما كان يطرح أحدهم هذا السؤال أمام يوسف كانت نبوءة الشيخ الفضالي تقفز أمام مخيلته، وسرعان ما كانت خواطره تلح عليه وكأنها تأمره: آن الأوان يا يوسف لكي يصل خبر النبوءة إلى غريب. تقول الأحداث: إن يوسف أخفى النبوءة عن ابنه منذ أن كان طفلًا صغيرًا، إذ

خشي إن أخبره وهو بعد صغير أن يفتتن بنفسه، والآن إذ وجده وهو يقفز في مدارج الرجولة ينزه نفسه عن سفاسف الأمور، فقد حث نفسه على أن يخبره بها حتى يسير في طريقها.

يقول يوسف لولده الأكبر غريب: تنبأ لك الشيخ الفضالي قبل أن تولد أنك (ستكون حاكماً في قوة جدك الحجاج بن يوسف الثقفي، أما قلبك فسيكون عامرًا بالإيمان كقلب سيدي علي نور الدين البيومي، وسييسر الله لك أمرًا يقضي به على لعنة الحرائق، وإنك أنت الذي سيُطفئ نار اللعنة).

آثر غريب بعد أن علم من أبيه النبوءة أن يذهب للشيخ محمد الفضالي في الزقازيق، ودار بينهما حديث طويل يصلح أن يكون كتاب علم فريدًا، ولكنه عرف من الشيخ أن كل شيء في الكون بأسره معلق بأمر رب الكون ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وأن علم القلوب هو الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وأن الله يهب الحكمة من يشاء، وأن ثمن الحكمة هو المجاهدة، وثمن العلم هو المدارسة، وإذا كان باب النبوة مغلقًا، فإن باب الحكمة مفتوح إلى يوم الدين، قال الشيخ الفضالي لغريب يوسف في نهاية الجلسة: «اطلب الحكمة بالمجاهدة، والمجاهدة هي قيام الليل، والصيام، وغض البصر، وضبط اللسان، وإنفاق المال، وكثرة الذكر، والدعاء، والاستغفار».

والآن لم يبق له إلا أن يتزوج ليكتمل دينه، نظر يوسف حوله يبحث عن عروس تليق بابنه غريب زينة الرجال، وكيف له أن يغفل عن «سيادة» ذات

الجمال الباهر والعيون الزرقاء، البيضاء مليحة القسمات، حفيدة النبي ﷺ، وسبحان الله الذي صرَّف الكون وقدَّر الأقدار، فسيادة هذه يا ولداه هي ابنة الشيخ علي أبو عرفة وهو الأخ غير الشقيق للشيخ حسن أبو عرفة عمدة المحروقة وشيخ الطريقة الرفاعية والذي كان قد توفاه الله منذ عام ونيف، والذي سبق ذكره في الحوادث السابقة، كان الشيخ علي أبو عرفة أبو «سيادة» في عمر يوسف أو أكبر منه قليلا، شَبَّا عن الطوق لا يفترقان، وتزوجا في نفس العام، إلا أن عليًّا أخذ طريق المتصوفة وتسلم المشيخة من أخيه حسن، ويوسف أخذ طريق الزراعة وامتلاك الأراضي، ولكنهما ومنذ الصغر ويوسف لا ينادي عليًّا إلا بكلمة «يا خال» لأنه خال والدته «أمونة» ولذلك فإن « سيادة» الحسن والجمال كانت في مقام الخالة للعريس غريب وإن كانت تصغره بخمس سنوات، فقد تزوجها وهو في التاسعة عشرة وكانت هي في الرابعة عشرة من عمرها.

يقولون: إن فرحهما كان مثل فرح قطر الندى على الخليفة العباسي المعتضد بالله، تحدثت عنه مديرية الشرقية وتناقل الركبان خبره، وكان غريب قد استقر به المقام في ناحية بيجام بالقليوبية حيث كان يستأجر حديقة من دائرة إبراهيم باشا أدهم كما سلف القول، وأعد لنفسه بيتًا كبيرًا كالقصر إلا أنه كان ذا طابع ريفي، فانتقلت «سيادة» من المحروقة إلى بيجام وانتقلت معها أمها « أم الحَسَن» التي كانت لا تطيق فراقها، ولكنها بعد أسبوعين أذعنت لداعي الفطرة وخضعت لألم الفراق وعادت إلى بيتها وزوجها الشيخ علي أبو عرفة في المحروقة.

وما بين بيجام والمحروقة كانت إقامة غريب يوسف وزوجه «سيادة» التي أنجبت في عام واحد طفلتين!! طفلة أنجبتها في أول يناير أطلقوا عليها «نعمة»، وطفلة بنت ستة أشهر أنجبتها في آخر ديسمبر من نفس العام أطلقوا عليها «ناجية» إذ كان محكومًا عليها بالموت وقت الولادة فنجاها الله، ولولا أن الله ألهمهم فأحضروا في منتصف الليالي الطبيب البلبيسي الشهير «يعقوب حنا» الذي تداركها بالعلاج والمتابعة - ما كان الله قد «رد فيها النفس» أبدًا.

وأثناء إقامة غريب في المحروقة لم يكن يجد راحته إلا مع شقيق زوجته «سيادة» ويدعى «محمد علي عرفة» ومحمد عرفة هذا وحده قصة أخرى تستحق أن تروى، فقد شب قلبه على حب الله، عرفه الناس ليِّن الجانب رقيق الحاشية كريم السجايا سريع البكاء لا يَذكر الله خاليًا أو يُذكر الله عنده إلا وقد فاضت عيناه، كان يحفظ مع القرآن الكريم أشعار ابن الفارض والسهروردي، فإذا ما لفَّه اللقاء بغريب حتى يأخذ في تشنيف الآذان والقلوب بشعر ابن الفارض الذي قاله في حب الله، ثم لا يلبث أن ينهمر في البكاء، فإذا اشتد به الوجد حتى النحيب صب له غريب فناجيل القهوة قاصدًا أن تلفته أثناء الارتشاف عن الصبابة التي استولت عليه.

كانت سيادة عرفة قد حملت حملاً جديدًا، لم تنتظر كثيرًا حتى تتم فطام الوليدتين فقد كان شوقها للولد أعلى من كل ما كابدته من آلام في حمل «ناجية»، قضى الزوجان الشهر الأخير للحمل في المحروقة حتى تتعهدها أمها «أم الحَسَن» بالرعاية، وكان فضل الله عليهما عظيماً فقد وضعت ولدًا كالبدر في ليلة تمامه، فحمدا الله وسمياه «حامد».

لك أن تتصور سعادة غريب وفرحته بابنه البكري حامد، يالله، هذا هو الوريث، وقد كانت هبة الله لنا لا مثيل لها، فهو فريد في الجمال والبهاء، وكأنه ورث الجمال كله من أمه، والبهاء من طلعة أبيه، ذهب غريب إلى الصائغ اليهودي الشهير في الزقازيق الخواجة «ليفي إسرائيل» واشترى لزوجه سيادة كردان ذهب يبهر الأبصار، ثم أمر رجاله بذبح بقرة منوفي مكتنزة، وقام بتوزيع لحمها على الفقراء والأقارب والأصحاب، ثم أحضر من طنطا مجموعة من الصييتة والمداحين ورواة السيرة، وظلوا على مدار يومين يصدحون في السرادق الذي أقامه أمام داره، وفي اليوم الثالث كانت الليلة الكبيرة وفيها حضر الشيخ محمد رفعت وأخذ يتلو من سورة مريم وأهل البلد يصرخون حوله من فرط النشوة.

وبعد أن انفض السامر، وهدأ خاطر «غريب» واطمأن على حال زوجه وحال ابنه البكري حامد ولي العهد، بحث عن محمد عرفه صديقه وشقيق زوجته الذي غاب عن مشهد الولادة، وعن الاحتفال، وما كان يغيب في هذه المشاهد أبدًا فعرف أنه في الإسكندرية يزور سيدي «المرسي أبو العباس» وأولياء الله الصالحين، وقد كان هذا دأبه بين الحين والحين.

عاد غريب إلى بيجام لتستعيد حياته مسلكها المعتاد، وبعد أيام إذا بطارق يطرق عليه الباب بعد صلاة العشاء، كان الزائر هو محمد عرفة، تعانق الصديقان ويبكي محمد عرفة بكاء المحبين، وبعد الاستقبال والسؤال عن الحال وإكرام الضيف ورؤية الوليد والسلام على الشقيقة «سيادة» قال محمد عرفة: أحمل رسالة لك يا بن أختي.

يقول غريب يوسف: خير يا خال.

يقـول محمـد عرفـة: بعـد أن صليـت الصبـح في مسـجد سـيدي المرسي أبـو العباس رأيت رجلاً وضيئـًا أبيض الوجه مشربًا بحمـرة يذكر الله خفية ودون الجهر، يبدو الصلاح على وجهه وحاله،يكاد الدمع ينسكب من عينيه، أخـذت أنظر إليه باهتمام فقـد وقر في قلبي أنني رأيته من قبل، قد أكون رأيته في مجلس من مجالس الذكر ولكنني أقسمت في نفسي أنني أعرفه، ودون توقع مني رأيت الرجل يقوم من مكانه ويقترب مني، ألقى عليَّ السـلام فسـلمت عليـه ورحبت بـه، ومن لهجته عرفت أنه ليس من أهل مصر، سـألته من أي البلاد أنت؟ فقال لي: أنا من بغداد وقد حطت بي الرحال في الإسكندرية. ثم سألني: ومن أين أنت؟

قلت له: أنا من مديرية الشرقية من قرية يقال لها المحروقة.

فقال لي وهو يبتسم: السعيدية تقصد؟ بلد سيدي سعيد.

تعجبـت من معرفته هذا الأمر، فكيـف لغريب ليس من بلادنا أن يعرف خبر المحروقة التي كانت سـعيدية ومعظم أهل الشرقية أنفسـهم لا يذكرون اسـم السـعيدية ولا يتذكرونـه، وقبل أن أرد عليـه قـال لي: إذا أتيت غريب يوسف فقل له: إن عبدًا من عباد الله يقول لك: آن أن تتحقق نبوءة الفضالي، فقد أظلنا هذا الزمان.

يقول غريب يوسف وقد امتلكته الدهشة: النبوءة، النبوءة!!

يقـول محمـد عرفة: المهم يابـن أختي أنني سـألته عن اسـمه، فقد أيقنت

وقتها أنه صديقك أو أنه من الذين كانوا يتعاملون معك أثناء نظارتك لدائرة أملاك إبراهيم أدهم.

يقول غريب يوسف: وهل قال لك اسمه؟

يقول محمد عرفة: نعم قال اسمه ثم قام منصرفًا بعد أن ألقى السلام، اسمه عبد الله الرصافي.

ولما كان المكان المنطقة الفسيحة أمام دار ابن حنبل في حي الكرخ:

اجتمع الناس على صياح رجل من حي الكرخ يقال له «الواثق بن جعفر» أخذ يرفع عقيرته[1] قائلًا: هذا رجل يريد أن يوقع الفتنة بيننا، حرّقوه ولا تذروا[2] منه لحمًا ولا عظمًا.

كان عبد الله الرصافي يجلس هادئًا مبتسمًا وكأن الكلام لا يعنيه، تغير وجه ابن حنبل وبان عليه الغضب، وأخذ ينهر الرجل، أن اصمت.

ولكن الرجل لم يلق بالًا لتوبيخ ابن حنبل له واستمر على حاله، وقام ممسكًا بيد الرصافي يريد جذبه ولكن الرصافي ظل ثابتًا وكأنه الطود الشامخ[3].

اجتمع الناس على الواثق بن جعفر وقال له أحدهم: إنك أنت الذي تثير الفتنة يا واثق، لِـمَ هذه الجلبة، إذا كان الإمام ابن حنبل نفسه لم يعترض على كلام الرصافي؟ أفأنت ستكون أكثر غيرة عليه من نفسه؟

---

(1) عقيرته: صوته.

(2) لاتذروا: لا تتركوا.

(3) الطود الشامخ: الجبل المرتفع الثابت.

ظهـر الغيظ على وجه الواثق وقبل أن يهم بالرد قام ابن حنبل واقفًا: والله إني أرى أن في نفسـك شيئًا يا واثق. تعالت الأصوات من كل جانب قائلة: مـا هـذا الهطل الذي تقوله يا واثـق؟! دعنا واذهب إلى بيتـك. إنك أغضبت الإمـام وصاحبه، عـلى رأي المثل «ذيب يصيح لخدمتك، ستذهب السكرة فيأكلك».

قام الواثق غاضبًا وانصرف وهو ينظر لابن حنبل نظرة غضب، هذه نظرة عـدو، استعاذ ابن حنبل بالله من الشـيطان الرجيم وجلـس بجوار الرصافي وأخـذ يربـت على فخذيه ويقـول: لا عليك يا رصافي، إنها هبـة رجلٍ أصابه الخلل.

ابتسـم الرصـافي وظهـر عليه أنه يفكـر في شيء ما، فقال لـه أحد الجيران الجالسين بمودة مبالغ فيها: لماذا لم ترد يا رصافي على هذا المخبول؟

- ربما كان السكوت جوابًا.

استأذن الجيران وانصرفوا وتركوا ابن حنبل مـع صاحبه الرصافي، ومن مـكان خفي كان الواثق يرقب الشـيخين، فانتبـه إلى أن الرصافي اقترب بفمه مـن أذن ابن حنبل وأسر له بكلمات، وبعـد أن دخل كل واحد منهما إلى داره ظل الواثق في مكانه وكأنه يرصد شيئًا ما، إلى أن حلَّ الظلام فانصرف.

وفي اليوم التالي قبل صلاة الظهر إذا بصاحب شرطة الخليفة المأمون ومعه بعض الجنود يطرقون بقوة باب ابن حنبل، فتح عبد الله بن حنبل الباب فدفعه بعض الجنود ودخلوا مسرعين وصاحب الشرطة يصيح: أين أبوك؟

جاء صوت ابن حنبل قبل أن يشخص: من أنتم؟ وماذا تريدون؟

وقبـل أن يجيب أحد ظهر ابن حنبل وكان يرتب ثيابه التي بدا أنه ارتداها على عجل.

قـال صاحـب الشرطـة: هناك شـكوى مقدمة ضـدك تقـول: إنك كنت تسـب الخليفـة المأمون بالأمس مـع بعض جيرانك، وإنك تقـول: إن القرآن ليـس مخلوقًا، بل هـو كلام الله. وهذا يخالف مذهب الأمة الذي عليه الخليفة المأمون ووزيره ابن أبي دؤاد.

ـ أنا لا أسـب أحدًا، فسـيدي رسـول الله ﷺ قال: «ليس المسـلم بسباب ولا لعَّـان». أمـا عن القرآن فلا أقول فيه إلا مـا قاله الله، وأما عن حضوركم فقـد كنت أعلم بالأمس أنكم سـتحضرون وتأخذونـي للخليفة المأمون في طرسـوس، افعلوا ما تشـاءون ولكن مشـيئة الله هي الغالبة، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين، ستأخذونني ولكنني لن أقابل الخليفة.

– كيـف لا تقابلـه؟ أقسـم لك بـالله خالق القـرآن إنك سـتقابل الخليفة المأمون.

– وأنا بدون قسم أقول لك: لن أقابله.

نظـر صاحـب الشرطـة إلى أحد الجنـود وقال لـه: ضع الأقيـاد في قدميه ويديه... ثم نظر إلى باقي الجنود وقال لهم: واحملوه حملًا.

رد ابن حنبل وكأنه يحدث نفسه: أخبرني الرصافي بالأمس بهذا كله.

ولما كان المكان سجن العامة بدرب الموصلية ببغداد الذي مر به أحمد بن حنبل قبل أن يمتحن بالجلد:

مـات الخليفـة المأمـون وهـو في مدينة طرسـوس التـي تقع بـين أنطاكية وحلـب وبلاد الروم حيث كان يشـن الحرب منها عـلى « تيوفيل » إمبراطور الـروم، وكان قد أمر صاحب الشرطة أن يشـخص[1] إليه في طرسـوس ابن حنبل مقيدًا مهانًا موثقًا في الأغلال، ولكن أمر الله نفذ، مات الخليفة المأمون وصعـدت الروح إلى خالقهـا وولي الخلافة أخوه المعتصم بالله الذي ظل على قول المأمون بخلق القرآن، لم يكن أمام صاحب الشرطة إسـحاق بن إبراهيم إلا أن يعود بابن حنبل – وهو في منتصف الطريق – إلى مدينة الرقة التي كان خلفاء العباسـيين قد اتخذوها عاصمة صيفية لهم، ومن الرقة حملوا أسـيرهم ابن حنبل مكبلًا بالأغلال إلى الياسرية ببغداد وقد أخذ الوهن من قوته كثيرًا، ثـم اكـترى صاحب الشرطة دارًا يحبـس فيها ابن حنبل، فهـذا المثقل بالأقياد ليس كأي أحد، إنه أحد أكبر علماء الأمة،هو بين الناس رأس، فإن قال بخلق القرآن ليجيبن بإجابته خلق كثير من خلق الله، وإن لم يجب ليمتنعن خلق من الناس كثير. ألقى ابن حنبل جسـده المتعب على فرش رقيق الحاشـية، وتأوه من إجهاد أصاب عظامه: إلى متى يظل هذا التعب؟ أنا على قولي ولن أتركه مهما فعلوا بي، جسـدي بين أيديهم يحبسونه كما يشاءون، ولكنهم لا يملكون سلطانًا على روحي.

---

(1) يشخص: يحضره بنفسه.

لم يستمر الحبس طويلًا في الدار التي اكتروها، إذ بعد أيام قليلة علم الوزير ابن أبي دؤاد بخبر حبس ابن حنبل في دار مكتراة[1] وليس في السجن، فاتقد غضبًا وعنف صاحب الشرطة: هل تظن أننا حبسنا ابن حنبل حتى يقيم في نُزُل[2]، ندفع له فيه نفقات الإقامة وثمن الطعام، هذا من أعجب ما رأيت؟!

وسرعان ما نقلوا ابن حنبل إلى سجن العامة في درب الموصلية ببغداد تنفيذًا لأمر الوزير.

لا يدخل ابن حنبل مكانًا إلا ويتحول إلى مسجد، هكذا أصبح حال سجن العامة بالموصلية، أيصدق أحد أن اللصوص والمجرمين يقيمون الليل خلف ابن حنبل؟! هذا هو الذي حدث، كان ابن حنبل يصلي بأهل السجن وهو مقيد بالأثقال، وكان أهل السجن يهرعون لخدمة ابن حنبل، وأصبح موضع ابن حنبل في السجن موضع رئاسة، لا موضع حبس ومهانة.

بعد غروب أحد الأيام الصيفية فوجئ ابن حنبل بجاره عبد الله الرصافي يقف على رأسه في السجن يحمل دورق ماء، لم يصدق ابن حنبل عينيه، كيف دخل الرصافي السجن؟ هل دخله مسجونًا أم زائرًا؟ إذا كان مسجونًا فمن أين له بدورق الماء هذا وهو ليس من أواني السجن؟ وإن كان زائرًا فلا زيارة بعد صلاة العصر!

(1) مكتراة: مستأجرة.

(2) نزل: فندق.

ألقى الرصافي السلام فرحب به ابن حنبل أيما ترحيب، من أين أتيت يا رصافي؟ وكيف دخلت..؟ هكذا قال ابن حنبل.

رد الرصافي وهو مُفْعَم بالإيمان: بقوة ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

- رأيت منك يا رصافي قبل ذلك أشياء حرت في فهمها ولكنني أعرف أن لله رجالًا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لو أقسموا عليه لأبرهم.

- أظنك من هؤلاء يا أبا عبد الله، فقد رأيتك وأنت تُحرِّج على النمل وتأمرهن بالخروج من دارك فخرجن على الفور في طوابير، وقال لي ابنك عبد الله: إنه ما رآهن بعد ذلك أبدًا، أعطاك الله يا أبا عبد الله طرفًا من علم سليمان وحكمته.

شحب وجه ابن حنبل بابتسامة خشوع ثم قال:

- ومن أين أحضرت الماء؟

- رأيت صديقك «بوران أبا محمد» وقد حمل إليك ماء باردًا ولم يستطع إرساله إليك، فحملت عنه هذا الدورق.

أخذ ابن حنبل الدورق وشرب ثم حمد الله تعالى.

- إنه ماء بارد يا رصافي!!

- نعم.

- فقد حيزت لي الدنيا وما فيها.

- قل لي بالله عليك: كيف حالك يا أخي أحمد؟

- طال بي المقام في الحبس كما ترى.

- هي لله، هي لله.

- يا رب سلِّم سلِّم.

- سمعت أنهم أرسلوا لك عمك إسحاق بن حنبل.

- نعـم، تفتَّـت كبد عمـي مما لحق بي فتوسـط لي عند صاحـب الشرطة، فقَـبِـل أن يرسـله لي - برفقة حاجبه - حتى يردني عن قولي بأن القرآن كلام الله مُنَـزل غير مخلوق، فجـرى بيني وبينه حديث، قال لي فيـه: يا أبا عبد الله، قـد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينـك وبين الله وبقيت أنت في الحبس والضيـق. فقلت له: يا عم، إذا أجاب العـالم تقية، والجاهل يجهل، متى يتبين الحـق؟! فذكر لي عمـي ما روي في التقيـة من الأحاديث، فقلـت له: وكيف تصنعـون بحديـث خباب! «إن مـن كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشـار ثم لا يصـده ذلك عـن دينه»؟ فانصرف عمي وقد أيس أن أعدل عن قولي، والله يا رصافي أنا لا أبالي بالحبس فما هو ومنزلي إلا واحد، ولا أخاف قتلًا بالسيف، إنـما أخـاف من فتنة السـوط وأخـاف ألا أصـبر، قلبي يحدثني يـا رصافي أن الخليفة الجديد المعتصم بالله سيجلدني بالسوط.

- لا عليك يا أبا عبد الله، ما هو إلا سـوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي، ألا يكفيك أن يد الله ستدفع عنك؟!

- وهل سيضربونني حقًّا يا رصافي؟

- سيضربونك وستثبت وسيرفع الله قدرك، وسترى بعدها ما بين «طرفة عين وانتباهتها» أشياء بالعمر كله.

- يخيل إليَّ أنني شاهدت هذا الموقف الذي نحن فيه الآن من قبل، ألا يحدث لك ذلك يا رصافي؟ تدخل إلى مكان ما، أو يدور حديث بينك وبين آخر فتقول في نفسك: «لقد حدث هذا لي من قبل».

- لأنه حدث من قبل وسيحدث من بعد، فالزمن هو أحد مخلوقات الله، وهو يسير بنا ولا نسير فيه، يحملنا ولا نحمله، وقد تسبق أرواحنا نفوسنا فترى شيئًا في عالم «التجلي» ثم تلحق النفس الروح بعد ذلك فتراه في عالم «الحضور».

- وحين قلت لي منذ برهة إنهم سيضربونني، رأيتني وهم يتناوبون عليَّ بالسياط في فناء كبير!!

- وسآتي إليك حينها.

- انتظر، كأن الزمن اختلط في ذهني، أراك الآن في موضع آخر وأنت تحمل نفس دورق الماء الذي معك وتسقيني منه، وأنت تقول: إنك ستحملني إلى مصر.

- نعم حدث هذا بعد شهور من الآن.

- «حدث» لا تقال إلا للماضي لا للمستقبل، ومع ذلك أنا أرى الآن أشياء عجيبة.

- تراها بروحك التي شفت وأرهفت.

- أراك تحملني وأنا أقول لك: «كيف أغيب عن هؤلاء الذين أثقلوني

بالأغـلال فلا يلحظون غيابي؟». وأنت ترد عليَّ قائلًا بقوة: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك».

- مرحى مرحى، أنت الآن في عالم التجلي.

- يـا ربي، مـا الذي يحدث لي؟ إنها محنـة ورب الكعبة، ولكن من أنا حتى يألم فؤادي لحالي؟ فما محنتي إلا كقطمير، أما ما يصدعني فهو ما يمر على الأمة من فتن، والذي نفسي بيده لا أظن أن الأمة ستقع في فتنة مثل التي وقعنا فيها يا رصافي، إنها فتنة صماء.

- وهل نُـبِّئت بما سيحدث في قابل الأزمان؟

- وهل هناك أكثر مما نحن فيه؟

- نعم هناك، وستظل الفتن تموج بأمتنا إلى يوم الدين.

- أقسـم بـرب الكعبـة لـو أراني الله فتنة أشـد مما وقعنا فيـه لضربت من يثيرها بنعلي هذا.

- كتبتها على نفسك.

- يا رب سلِّم سلِّم.

استدار الرصـافي لينـصرف فقـال لـه ابـن حنبـل: إلى أيـن يـا صاحـب الدورق؟

- أولم تشرب؟

- بلى، شربت وارتويت.

- وهنـاك غيرك مـن ينتظر الدورق ليشرب ويرتوي، لـن أغيب عنك، سأكون معك قريبًا وسأحملك في رحلة عمرك.

- سـمعتك من قبل وأنت تحدثني عن مصر، فلا أعرف وايم الله أحدث هذا أم لم يحدث!

- أنت منذ الآن وأنت في إسراء، الذي يمر بك الآن هو التهيئة.

- إسراء، كان الإسراء للنبي ﷺ فقط!

خرج الرصافي من المكان والماء يندلق من حافة الدورق على أرض السجن وهو يقول: لكل منا إسراؤه.

ولما كان المكان مِنى والزمان يوم التروية وكان الحاج غريب يوسف قد لبث في ذلك المكان المقدس يومًا أكبر في امتداده الزمني من عمره كله؛

وحـين هم الحاج غريب يوسـف بالخروج من خيمتـه بحثًا عن صاحب الصوت الذي يعرفه أوقفته زوجته الحاجة «سيادة عرفة»: إلى أين يا حاج؟

قال لها: ألم تسمعي هذا الصوت؟

- أي ضوت؟

- الصوت الذي كان يلبي وينشد.

- أصوات الملبين تملأ المكان.

- ولكنني ميزت من بينهم صوتًا أعرفه، سأخرج بحثًا عنه.

- يوه، أتتركني وتخرج؟

- لا تخافي شيئًا فزوج ابنتك نجية في الجوار، وأنا سأعود في أقل من لمح البصر إن شاء الله.

خرج الحاج غريب يهرول وراء الصوت الذي ميزه من بين أصوات الملبين وتأكد منه حين أنشد (أذِّن إبراهيم فاستجبنا، وعلى كل ضامر أتينا، هوت الأفئدة فلبينا). إنه صوت الشيخ محمد الفضالي، أعرفه من بين مليون صوت، تركته في الشرقية ولم يرد في بالي أنه سيحج هذا العام، فقد أثقلته الأمراض، أيمكن أن يكون قد جاء؟ وكيف ذلك وهو لا يقدر على مشقة الحج؟ هذا أمر فوق العقل!!

كان صوت الشيخ الفضالي يقود الحاج غريب إلى شارع الملك عبد العزيز الذي يقع على يمين الصاعد إلى عرفات عبر شارع مِنى الكبير، استمر الصوت مسموعًا، واستمر الحاج غريب مهرولًا خلفه مدة ساعة، الصوت لا يفارق أذنه فيدير وجهه ذات اليمين وذات الشمال بحثًا عن شيخه الفضالي ولكنه لا يراه، حتى انقطع به الطريق فجلس على الأرض لا يعرف كيف يعود.

كانت الشمس تضرب الأرض بقوة والحاج غريب يرتدي ملابس الإحرام ولا ساتر له من الشمس، نضب ماء جسده فجف ريقه، انتفض جسده بقوة عندما أدرك أن أكثر من ساعتين مرتا عليه وهو يسير خلف صوت الشيخ الفضالي دون أن ينتبه إلى أنه كان يسير وحده في الصحراء، وأن خيام الحجيج قد اختفت وأصبحت خارج حدود البصر، أخذ التائه

يتطلـع حوله باحثًا عن موضع الخيام التي تركها عله يجد إنسـيًّا يسـتهدي به أو مكانًـا يظهـر من بعيد، يعـرف منه الطريـق أو علامة أو طـيرًا ولكنه لم ير شيئًا، هو الآن في قلب الصحراء تلتف الجبال من حوله ولا ماء معه.

- أتراني الآن في وادي عُرَنة القريب من عرفات، أم في وادي مُحسر الذي يقـع بين مزدلفة وعرفـات، أنا في أيهما على أي حـال، لا يهمني أين أنا ولكن الذي يهم هو كيف أنا.

أخذ العطش يسـتبد بـه، والهلع عرف طريقه إلى قلبـه لأول مرة منذ أمد طويـل؛ إذ لم يكـن من السـهل أن يعرف قلـب الحاج غريب من قبـل طريقًا إلى الخـوف. توالت الأفكار على خاطره، رأى زوجته سـيادة وهي تنتظره في الخيمـة، تخيل الحـاج محمد أبو لبيب زوج ابنته وهو يسـعى بـين الخيام باحثًا عنـه، رأى وجـه صديقـه وحبيبه وشـقيق زوجته الحاج محمـد عرفة يداعب خياله ويبتسم في وجهه، رأى شقيقه الأصغر أحمد وهو يقرأ ألفية ابن مالك، خيل إليه أن الشيخ محمد الفضالي يقف شاخصًا أمام بصره... ما الذي فعلته معي يا شيخي وشيخ أبي؟!

لماذا جرجرتني خلفك في الصحراء؟

أفي هذا المكان يُلقي الحبيبُ حبيبَه؟

أنا الذي طلبت منك أن أتبعك على أن تعلمني مما عُلمت رشَـدًا، سعيت للبيعـة، تمنيت أن أجلس أمامك على السـجادة لأردد البيعة، ولكنك أنت - وليس أحد غيرك - الذي طلبت مني أن أترك الطريقة ولا أنخرط فيها.

منذ أن قصصت عليك الحلم الذي رأيت فيه القيود والأثقال والأغلال تكبلني وأنت الذي قلت لي: إن طريقتك هي روحك، هي شعاع النور الذي ينبثق من قلبك.

قلـت لي: طريقك إلى معرفة الله وتـذوق حلاوة اليقين هو الحرية، انطلق منك إلى ربك، أنت مرشد نفسك وما أنا إلا رفيقك في درب المعرفة.

الآن أنا في قلب الصحراء أبحث عن عودة فلا أستطيع، أبحث عن نقطة ماء فلا أجد لها سبيلًا.

انتبـه الحـاج غريب من غفوتـه التي كان يناجي فيها الشـيخ الفضالي على حلقه وقد أصبح كالحطبة الجافة التي خاصمت الماء سـنين، نظر إلى الأرض فوجـد زلطـة ملسـاء فوضعها في فمـه وأخذ يمتصهـا، وعن بعد رأى شـيئًا يلمـع على الأرض فانتصـب من الفرحة؛ يبدو أنها بركة مـاء.... جرى إليها شوقًا، وكلما اقترب منها ابتعدت عنه، ولكنه ظل على سعيه ثم توقف فجأة، إنـه يفعـل مثل سـيدتنا وأمنا هاجر، سـعت نحو الماء وهو يسـعى نحو الماء! ولا ماء إلا أن يرسله الله تعالى، أيقف أم يستمر في السعي؟ فليقف، ولكن... لا، فليسع، فالله إذ أرسل الماء لهاجر وابنها إسماعيل، لم يرسله بقانون سعيها، ولا حتى بضربة رجل ذلك الرضيع إسماعيل الذي تفجر الماء من تحت قدمه بعد أن سـعت أمه سبعة أشواط، ولكن أرسله بـ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ولكـن كان يجب أن تسـعى هاجـر وفقًا لقانونها حتـى يعطيهـا الله بـ«أمره» الـذي يخرق القوانـين... تَذكرَ غريـب في ضعفه

وتيهه وعطشه كلمات الشيخ الفضالي التي قالها له ذات مرة «الله خلق قوانين الكـون لنـا لا له، ولكنه يجب أن تؤتى قوانينه، فإذا أتيناها حبًّا وطاعة أعطانا بغير قانون».

لا يـزال يحفـظ عن ظهر قلب قوله: «نسعى وفقًا لقانـون الخلائق فنلجأ للأسباب، فيعطينا مسبب الأسباب من عنده من غير قانون السبب، ألم تطبق ستنا مريم القانون فهزت جذع النخلة، فسقط عليها الرطب في غير موسمه، وهزة الجذع لا تسقط الرطب».

قـام غريـب مـن وهنـه وكأن الله أضـاف لـه قـوة، وأخذ يهـرول في كل الاتجاهـات وقـد هداه قلبه أن ينظر إلى السـماء، فلعل نظـرة منه تقع على طير فيسـير في اتجاه طيرانـه، ولكن بصره لم يقع على شيء، وقـع الرجل الضعيف على الأرض وهو يرثي حال نفسه.

أخذ يحدث نفســه: والله إن هذه محنة تيه لا مثيل لها، أقسـم إن نجوت ألا أقـع في مثلهـا أبدًا، فبقدمي وقلة عقلي انزلقت، ولكن هل سـأنجو؟ أظن أن هذه نهايتي، والحمد لله أنها في بقعة مقدسة.

بكى على نفســه وهـو الذي لم يبك من قبل في مواضع الضعف الإنسـاني الـذي يلم بالواحد منـا بين الحين والآخر تلبية لحاجاتنا البشرية، والحق أنه لم يبك قبلها إلا في مواضع الدعاء وذكر الله والصلاة على سيدنا محمد ﷺ.

وفجأة تذكر الحاج غريب أنه لم يُصل الظهر والعصر، فتيمم ونوى الجمع والقصر، حاول الوقوف للصلاة ولكنه لم يستطع من فرط الضعف والوهن،

استعد نفسيًّا للدخول في الصلاة وهو جالس في مكانه، ولكن أين اتجاه القبلة؟ اختلط عليه الأمر، ثم نظر للشمس وحركتها، الكعبة تقع في الغالب غرب مِنى، ونحن الآن بعد العصر بحوالي الساعة وحركة الشمس ناحية الغروب واضحة، ها هو اتجاه الغروب، كيف فاته هذا من قبل، الغروب هو اتجاه الحياة، ففي الدنيا كلها وفي أسباب البشر يكون الغروب هو أفول الحياة وانزواءها، ولكن من حيث التيه الذي هو فيه أصبح الغروب اتجاهًا للحياة والخروج من درب التيه، فمن حيث ستختفي الشمس ستكون الكعبة ومكة وتكون الحياة. انتهى من صلاة الظهر والعصر وقد هدأ قلبه واطمأن باله.. كريم أنت يا رب.

قام غريب وهو يغذ السير في اتجاه الغروب، لهج قلبه بالذكر والدعاء والتلبية، خطر على باله: ما كان الله ليضيعه وهو يلبي ويستغفر.

اجتهد غريب في المسير ولكن جسده لم يساعده، أضناه العطش والتعب، وحين حاول أن يسرع في المسير وجد أن معالم الطريق قد تغيرت تمامًا، تملكه العجب وهو يرى الجبال التي كانت على جانب الطريق قد اختفت، أين اختفت، وكيف؟! ما هذه المسالك الغريبة التي لم يرها حين دخل إلى هذا الوادي؟ كل شيء تغير! الرمال نفسها تغيرت طبيعتها، رائحة الجو مختلفة، يخيل إليَّ أن الهواء مشبع بالماء، ولكن أين الماء؟ لساني أصبح قطعة من الحطب ولا ماء إلا في الأماني، نظر للسماء فوجد سحابة ماء تتكوم وتنفض ما فيها من ماء، الحمد لله، الماء ينهمر من السماء انهمارًا، أخذ الحاج غريب يجري بكل قوته ليقف تحت سحابة الماء التي تنفض ماءها، ولكن السحابة كانت

أسرع حركة منه، إذ كلما اقترب منها ابتعدت، وحين كان ينظر للأرض ليغنم بعض الماء الذي قد يكون تجمع على سطح الأرض، بهته المفاجأة، إذ وجد الماء وهو يختلط بالرمال فيحيلها إلى رمال صفراء فاقع لونها مثل الذهب، وعندما قام بجس الرمال ارتعشت يده ارتعاشة ظلت تصاحبه طوال حياته، فقد كانت الرمال جافة كأن الشمس ضربتها بالساعات ولا أثر للماء فيها.

يا الله، هل أثرت الشمس في رأسي؟ يبدو أنني أصبت بضربة شمس!! أين أنتِ يا سيادة، وأين الخلّ الذي كنتِ تضعينه على رأسي عندما كانت ضربات الشمس تناوشني؟ توقف غريب عند موضع قدمه وهو يحدث نفسه: أشعر بإجهاد وارتجاف وكأن أعضائي تتفكك مني، يا ويلتى، يدي تريد أن تنخلع من مكانها! رأسي يكاد أن يغادرني! بنياني كله ينتفض، يا رباه، هذا هو الموت وتلك فجأته.

غامت الدنيا تحت قدميه فوقع على الأرض، أيقن أن مصرعه سيكون في هذا المكان فأخذ يرفع سبابته إشارة للتوحيد، وتمتم بالشهادة، وأخذ النور يغيب عن بصره وصور الموجودات تنمحي من خياله، ولكن في تلك اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت حدث له ما لم يكن في الحسبان وما لم يرد على باله أبدًا.

في سـرداب الزمـن

ولما فتح أحمد بن حنبل عينيه غشيه النور فأغلقهما.

ثم فتحهما برفق وأخذ يتحسس المكان بيديه، أين أنا الآن؟ أظنني في زنزانتي بسجن درب الموصلية، لا لقد انتهت أيام درب الموصلية منذ أشهر، أغلب الظن أنهم نقلوني إلى حجرة من حجرات القصر بعد أن تم جلدي، ولكن ما هذا؟! لا توجد حوائط، أنا في فناء واسع ممتد، هل أنا في أحد أفنية القصر؟! اتكأ ابن حنبل على مرفقيه وقام قاعدًا، أخذ ينظر ذات اليمين وذات اليسار لكنه لم ير أحدًا، أين الحرس؟ غشيه خاطر: هل أنا ميت؟!

شعر فجأة بضربات خفيفات متتاليات على أم رأسه، وجد صداهن في باطن قدميه، غمره إحساس - استراب منه - بالرغبة في الطيران، لا كما يطير الطير ولكن بأن يتخلص من هذا القيد الذي يثقل حركته ويجعلها تدب على الأرض ولا ترتفع في السماء، ثم يعاندها ويرتفع عن الأرض وجسده باستقامته، ويتحرك في السماء بخطوات قدميه وكأنه يمشي على الأرض،

هـب واقفًـا وفي خاطره أنه الآن سيسـير في الهواء، إلا أنه ظـل واقفًا كما هو، اسـتغرب نفسه فأخذ يتحسس جسده ثم اسـتبعد فكرة موته: إذن أنا أحلم، نعم، فقد رأيت في الحلم عبد الله الرصافي وهو يحملني ومعه دورق الماء.

شحبت الابتسامة على وجه ابن حنبل: وفي الحلم دعاني للسفر إلى مصر، وأين نحن من مصر! ولكن أين أنا الآن؟!

أقعى جالسًـا، نظر إلى نفسـه فوجد أنه يأتزر بإزار ليسـت له حاشـية، ولم يجد على جسـده رداءً! نظر إلى صدره العاري وتحسسـه، الآن يشـعر بنبضاته كما لم يشـعر بها من قبل، يكاد صدره يشـف عن قلبه من فرط الخشـوع الذي احتواه، سـمع من خلفه صوت تلاطم أمواج فاسـتدار وقد تملكته الدهشة: بحـر! بحـر! يا ألله! ما هذا؟ ما الـذي أتى بي هنا، آخر عهـدي بالماء كان نهر دجلة عندما حملوني في زورق رسوا به عند قصر الخليفة المعتصم بالله، ولكن هـذا ليـس نهرًا هذا بحر! وأنا على شـاطئه وعلى امتـداد البصر لا يوجد أحد تدب فيه الروح.

قام واقفًا، ازداد عجبًا عندما وجد نفسه نشيطًا فتيًا قويًا كأنه لم يُجلد اليوم جلدة واحدة، وي! كأنه عاد شـابًا جذعًا! بل إنه في حالة لم يعهدها في نفسـه قط، ما الذي حدث! شعر بدوار بسيط وكأنه دوار البحر، جلس مرة أخرى، تحـرك قلبه بالذكر فنطق لسـانه وأخذ يسـبح لله، سـبحان الله، سـبحان الله، سبحان الله. سمع وشوشة البحر، كانت الوشوشة على نفس ترنيمة «سبحان الله»ارتقـى قلبه كـما لم يرتق من قبل فأخذ يردد بلا ترتيـب ذهني منه «يا ألله، يا ألله، يا ألله» فتلاحقت الوشوشات متتابعة على نفس نغمة «يا ألله».

ردد ببطء «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» فإذا بوشوشات البحر تتناغم مع نفس طريقة ترتيله للدعاء وكأن الأمواج تقلده! اقشعر جسده: حقًّا، صدقت يا ألله حين قلت ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ قال بصوت مرتفع: ولكنني الآن أفهم تسبيح الكائنات!! يا رمال سبحي، يا بحار سبحي. وبلا إدراك ذهني منه أخذ قلبه ينبض: سبحانك رب العزة والجبروت. هو الآن يشعر بجسده كله يُسَبِّح لله.

انتابه الذهول! ليست هذه الدنيا التي أعرفها! لابد أنني في دنيا أخرى. مذ وقعت عليَّ أول ضربة من سوط الجلاد وأنا لا أشعر أنني في دنيا الناس، لم ترد الدنيا كلها على بالي، وما بقي منها في قلبي إلا الحياء؛ لذلك انفطر قلبي أن تنكشف سوءتي إذا انقطع حبل السروال، ولكن الله قبل رجائي واستجاب لدعائي.

استقبل جسده صوتًا يعرفه آتيًا من مكان مجهول يأمره: قل «يا مُسَبَّحًا بكل لسان ويا مذكورًا بكل مكان».

فأخذ يردد منشدًا: «يا مُسَبَّحًا بكل لسان ويا مذكورًا بكل مكان».

وما لبث أن عاد عقله إلى حركته الإنسانية العادية، أخذ يلح عليه: أين أنا؟ ما الذي حدث لي؟ كيف دلف الصوت السالف إلى جسدي كله... تحسس أذنه وكأنه يتأكد أنها في مكانها ثم قال في نفسه: يخيل إليَّ أنني أصبحت آذانًا مصغية.. جاء له الصوت مرة أخرى قائلًا: روحك هي التي تستقبل، روحك هي التي تسمع.

اقشعر جسده: من أنت؟ وأين أنا؟

- أنا على يمينك ولكن الدهشة كبلت عينيك فلم ترني.

التفت ابن حنبل لليمين فوجد عبد الله الرصافي جالسًا في دعة واطمئنان.

كاد أن يقفز من مكانه: عبد الله؟! هل هذا حقيقي؟ هل جلدني الخليفة؟ هل أخذتني من قصره، أم أنك أخذتني من السجن وكان الضرب الذي وقع على ظهري مجرد أضغاث أحلام؟ هذا حلم لا شك في ذلك.

- هذا حق، أنت لا تحلم إذ أنت فوق الحلم.

- فوق الحلم! ما معنى هذا؟ الإنسان لا يكون في حياته إلا بين اليقظة والمنام، ففي أيهما أنا؟

- أنت في الحقيقة.

- زدني إيضاحًا.

- أنت في درجة الحقيقة، وهي درجة أعلى من اليقظة وأصفى من المنام.

- كيف؟ اليقظة انتباه للحواس، وفي المنام سياحة للروح مع استغناء عن الحواس.

- أنت مع انتباه الحواس وسياحة الروح.

سادت فترة صمت قصيرة بينهما، نظر ابن حنبل للرصافي وكأنه يستزيده فافترَّ ثغر الرصافي عن ابتسامة محببة وقال: ألم تُثْبِت في مسندك حديث رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني في اليقظة»؟

- بلى.

- الحديث الذي أوردته في مسندك يتحدث عن درجة من درجات الحقيقة، يجتمع فيها ارتقاء الروح مع انتباه الحواس، فيلتقي من ارتقى بالمصطفى صلوات الله وسلامه عليه ويراه، تحدث هذه الدرجة للمتقين وهم نيام، ويحدث مثلها للمحسنين من أهل شهود الغيب وهم أيقاظ.

- زدني إيضاحًا.

- ألم تسمع أمواج البحر ففقهت تسبيحها؟

- بلى وربي!

- إذن فلتعلم أنه لا يعرف تسبيح الأشياء إلا من عاش في «نور الحقيقة».

- زدني إيضاحًا.

- من تجلى الحق لروحه فهو في نور الحقيقة، وأنت الآن في عمود من أعمدة النور، فلا تشغل بالك واترك نفسك وستحملك روحك وهي تسبح في أطياف النور.

- وكيف أصبحت في عمود من نور؟

- لأنك من المحسنين الذين ينطقون بالحق، ويعقلون بالحق، ويعرفون الحق بالحق، وينظرون بالحق إلى الحق .

- هذا كلام يحتاج إلى مراجعة مني، ولكن ما الذي أتى بنا إلى هنا؟

- نحن في رحلة، نتجول في سرداب من سراديب الزمن، ألم أقل لك إننا سنذهب إلى مصر؟

- ولكن أين القافلة؟ ثم... سبحان الله، أشعر بخفة في روحي وفتوة في جسدي لم أشعر بهما من قبل.

- رحلتنا لا تحتاج إلى قافلة من القوافل التي نعرفها.

- فكيف نتحرك إذن؟

- سرداب من سراديب الزمن يحملنا.

- هذا كلام يستغلق عليَّ فهمه! ولكني أشعر براحة له، ولكن ألسنا في وضع السكون لا الحركة؟!

- الزمن يتحرك بنا ولا نحركه، يسير بنا ولا نسيره.

نظر ابن حنبل للبحر فوجده تغير فجأة، ارتفعت الأمواج وكأنها في ثورة عارمة، عاد إليه شعور الدوار فربت الرصافي على رأسه وقال له: قل: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لا تتركها حتى يهدأ الموج.

شعر ابن حنبل بأصابع الرصافي التي ربتت على رأسه وكأنها ضربات خفيفات وجد صداهن في باطن قدميه وأشاعت الراحة في جسده كله فأخذ يتمتم بالتسبيح: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

أخذ الرصافي بيده فوقفا، خاطبه برفق: هيا نتجول في هذا المكان، إني أراه جميلًا.

سارا مسافة طويلة وهما يسبحان الله، وفي كل تسبيحة كان ابن حنبل يشعر بنور يحتوي فؤاده وقوة تحمل بدنه، انتابته رغبة جارفة في العدو والوثب، يا ألله، ابن حنبل بخشوعه ووقاره يركض ويقفز مثل الأطفال الصغار؟! ألجم نفسه عن تلك الفكرة الطائشة، ثم أخذ يقاومها وهي تلح عليه، وحين تغلبت عليه الفكرة نظر للرصافي وقال له: هيا بنا نركض قليلًا فلعل الركض ينشط جسدينا.

ابتسم الرصافي: اركض أنت كما تشاء وسأسير خلفك.

لم ينتظر ابن حنبل كي يسمع آخر كلمة وانطلق يعدو، تملكت الدهشة مجامع قلبه وهو يرى قفزاته الراكضة شديدة الاتساع كأنه يقفز في الهواء، ومع كل قفزة كان قلبه يقفز هو الآخر من السعادة التي أحاطته وكأنه الآن في موضع قريب من «سدرة المنتهى»، ومن فرط السعادة التي تفاعلت في حشاشات قلبه ارتفعت قفزاته واتسعت... لم يسبق له في شبابه أن ركض هكذا، فمن أين أتت له هذه القوة الفريدة والخفة الروحية الشفيفة؟! توقف بعد فترة يسيرة من الركض ثم نظر خلفه فلم ير أثرًا للرصافي، دقق النظر فوجده آتيًا عن بعد كأنه نقطة صغيرة في صفحة كبيرة، وبغتة وجده واقفًا بجواره، قال للرصافي: اليوم هو يوم الدهشة والاستغراب، كيف ابتعدت عنك كل هذه المسافة في تلك الفترة القصيرة، وكيف أتيت إليَّ سريعًا قبل أن يرتد إليَّ بصري!

- قواعد الزمن هنا تختلف عن قواعد الزمن في حياتنا التي نعرفها، ألم أقل لك: إننا في سرداب من سراديب الزمن؟

- لا يزال عقلي يستعصي عليه فهم ما تقول، لا أفهم كيف يختلف الزمن.

- يختلف باختلاف المكان.

- ولكننا ما زلنا في الحياة الدنيا!

- أتظن أن الحياة الدنيا شيء واحد؟!

- وهل هي أشياء! لعمري لم يقابلني من قبل من يقول بتعدد الدنا.

- وهأنتذا تعيش الآن في دنيا غير دنياك التي كنت فيها.

نظر ابن حنبل للبحر فوجد أمواجه قد هدأت واستنامت، مد بصره ما استطاع فوجد سطح البحر تتغير ألوانه من لحظة لأخرى، وحين نظر للناحية المواجهة لشاطئ البحر وجد مساحة كبيرة من الرمال الغريبة ذات اللون الذهبي النادر، مد بصره ما استطاع فوجد في الأفق لونًا أخضر يبدو وكأنه نهاية لذلك اللون الذهبي الذي صبغ الرمال، هذا مكان غريب لم أر مثيلًا له من قبل، ولم أسمع عنه ممن ارتحلوا في بلاد الدنيا، هل نحن في دنيا أخرى كما يقول الرصافي؟! لا أظن هذا أبدًا.

أخذ ابن حنبل يمعن الفكر ويتأمل ثم انتبه لشيء لم يفطن له من قبل: وايم الله ما هذا الذي يمر بي! والذي نفسي بيده لقد سلب الضرب عقلي، الدنيا يشع نورها كأضوإ ما يكون النهار ولا أرى شمسًا في السماء! نحن في أرض لا تعلوها شمس يا رصافي! نحن الآن - كما قلت - نعيش في مكان آخر غير المكان الذي نحيا عليه في حياتنا التي نعرفها، الآن يجب أن تصارحني، من أنت؟ وكيف استطعت حملي إلى هذه الأرض الغريبة؟.... أراك سكت! لماذا لا تنطق؟

وضع الرصافي يده على كتف ابن حنبل فشعر بها ثقيلة كأنها جبل، مالت كتفه وارتعدت فرائصه وتنفس بقوة وهو يقول: سبحانك يا مالك الملكوت انجدني بوعدك الذي قلت «يريد الله أن يخفف عنكم» ونجني كما نجيت ذا النون ووعدك الذي قلت: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وما كاد ابن حنبل ينتهي من قوله حتى شعر بجسده يرتجف رجفة لم يعهدها من قبل، فانثنى ليجلس محتميًا بالأرض، وما إن استقر جالسًا حتى ارتجت الأرض وكأن زلزالًا أصابها.

ولما كان الحاج غريب يوسف قد وقع في محنة التيه وبدأت الحياة تتسرب من جسده كما يتسرب الماء من بين أصابع اليد:

ساعتئذ قال بصوت أخفاه الضعف: يااارب، يااارب.

فإذا به يسمع صوتًا واضح القسمات يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ وبغتة فوجئ بماء بارد طيب يسقط على شفتيه، ويبلل وجهه، ثم إذا به يشعر بيد مبللة بالماء تمسح على وجهه مسحًا خفيفًا طيبًا، فلما حاول أن يفتح عينيه غلبه التعب ولم يستطع، حملت يدٌ رأسه وصبت قطرات من الماء في فيه فرشفها بنهم، حينها بدأ يشعر بالحياة تدب في جسده من جديد، انتظرت اليد برهة ثم سكبت دفعات من الماء في حلقه فعبَّها متلهفًا، ها هي الدماء تسير في عروقه من جديد بعد أن كانت قد تجمدت.

أخذ قلب الحاج غريب يلهج بالتسبيح، ثم ما لبث لسانه أن استجاب لتسبيح قلبه فتحرك مُسَبِّحًا، وإذ قويت أعضاؤه أخذ يلبي بلسان بلغ من

الوهـن مبلغه، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، شـعر بصاحب اليد وهو يضمه إلى صدره ضمة قوية طقطقت عظامه من أثرها، ففتح عينيه شـيئًا فشيئًا فرأى خيالات لم يتبين حقيقتها، وعندما استقام بصره نظر فوجد رجـلًا أبيض الوجـه له لحية مخضبة بالحنـاء يرتدي ملابـس الإحرام ويحمل دورق مـاء، من هذا الرجـل؟ لعلني رأيته من قبل، نعـم تذكرته...هذا أحد المشايخ الذين يترددون بين الحين والآخر على الشيخ محمد الفضالي.

آه الشـيخ محمد الفضالي! أخرجني صوته من خيمتي فعدوت خلفه فإذا بي أصل إلى هذا المكان المنقطع.

وبينـما هـو في هذا الحال إذا بالضعف يتغلب عليـه مرة أخرى فما كان منه إلا أن أغمـض عينيـه كـرة أخرى ثم أخذت صـور الماضي تتتابـع برفق أمام خاطره.

رأى نفســه وهـو في الخامســة من عمـره يركب حمـارًا خلف أبيه الشـيخ يوسـف غريب، وفي قريـة «حفنا» الملاصقة لقرية السـعيدية أنزلـه أبوه عند كُتَّاب الشـيخ سـليمان الحنبلي، ومن بعدها وهذه الرحلة تتكـرر يوميًّا حيث يحملـه على الحمار إلى الكُتَّـاب أحد رجال أبيه ويدعى «قطاب» فيصل به عند منتصف الضحى ويظل في انتظاره إلى أن ينتهي الولد غريب من دروسه بعد صلاة الظهر فيعود به وهو يحمل لوحه الذي دوَّن فيه ما أخذوه هذا اليوم.

ثم رأى نفسه وهو منكب على حفظ القرآن عن حب وشغف حتى أصبح القرآن حياته، وأصبح الشيخ سليمان الحنبلي ـ صاحب الكُتَّاب ـ مثله الأعلى،

جرت فترة الصِّبا بأحداثها أمام ناظريه، ها هو يتتبع قُرَّاء القرآن في المناسبات الدينية والموالد والمياتم فيشنف قلبه بأصواتهم الندية، لم يترك مناسبة قرأ فيها القرآن الشيخان عبد الرحمن سبيع وهمام قطب أشهر القراء في مديرية الشرقية إلا وحضرها ولو كانت في آخر قرى المديرية، تختلط الصور وتتسارع أمام نظر خياله، ها هو يرى نفسه وهو لايني يقرأ سورة «الرحمن علم القرآن» آيات السورة يتردد صداها في فؤاده، ترتفع به في دنيا أخرى، يذهب الزمن به ويعود، يشعر بحنان أبوي من لمسات يد تحتوي رأسه، وفي اللحظة التي أغمض فيها عينيه بعد أن أفاقته حبات الماء الندي التي تساقطت على شفتيه وشربتها أنسجته رأى الشيخ محمد رفعت وهو يقرأ من سورة مريم ورأى جسده وهو ينتفض وجدًا وامتزاجًا، ثم إذا بصوت الشيخ رفعت يستحيل إلى صوت ذلك الشيخ الشاب صاحب الصوت الملهم مصطفى إسماعيل وهو يقرأ من سورة النمل، يتمايل قلبه وهو يسمع الشيخ يقرأ ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠...﴾ وحين سمعها خيل إليه أن عفريتًا من الجن يتنطط ويتعفرت أمامه، ثم إذا بالهدوء والسكينة يعودان إليه عندما سمع الشيخ يقرأ: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾.

ظلت آيات القرآن تتهادى إلى قلبه، وفجأة انقطعت الصورة القرآنية التي كانت تمر به عندما شعر بمن يهز رأسه هزًّا خفيفًا، حاول أن يفتح عينيه ولكنه لم يستطع، أحس بضربات خفيفات على أم رأسه وجد صداهن في باطن قدميه، بعثن الراحة في كل جسده، إلا أنه استمر في تلك الإغفاءة اللذيذة التي استنام لها واستطيبها، ها هو يرى نفسه وهو صبي في العاشرة يقف في

حضرة أبيه الذي كان يجلس مع بعض المشايخ في بيتهم الكبير، وضع أبوه تمرة شهية ناضجة في روث البهائم وأمره بأكلها فأبت نفسه واشمأزت روحه، فأعطاه تمرة أخرى نظيفة وقال له: كل هذه. فتناولها وأكلها بنفس راضية.

سأله أبوه: أخبرني عن التمرة الأولى.

فقال: كريهة الرائحة قبيحة الشكل تتقزز النفوس منها.

- والتمرة الثانية.

- نظيفة المخبر ذكية الرائحة طيبة المذاق.

- إذن فاعلم أن المال الحرام مثل التمرة الأولى إذا أكلتها دخل الشيء الخبيث إلى جسدك، أما المال الحلال فهو مثل التمرة الثانية يأخذ جسدك طيبها ولا خبث فيها.

تدخل الشيخ الفضالي قائلًا: إياك إياك والمال الحرام.

فجأة تغيرت صورة الشيخ الفضالي وحل محلها صورة الشيخ سليمان الحنبلي صاحب الكُتّاب، رآه وهو يقرأ له من سيرة الإمام أحمد بن حنبل، اندمج في قصة الإمام، وتذكر تلك اللحظات التي قضاها وهو يذرف دموعًا عزيزة ثخينة عندما أخبره الشيخ سليمان أن الإمام تحمل الضرب والجلد بالسياط ولم يتخل عن قوله بشأن القرآن، ها هي تلك اللحظات التي كان يجلس فيها في موضع المتلقي تحت قدم الشيخ سليمان شاخصًا أمامه، سبحان الله! ما الذي أجرى على خاطره في تلك اللحظة بالذات قصة الإمام ابن حنبل؟ وما الذي ذكَّره بشيخه المقرئ سليمان الحنبلي؟ حقًّا إن خطرات

النفس ـ خاصة في تلك اللحظة الإنسـانية النادرة ـ كثيرًا ما يكون لها منطقها الخاص بها والذي غالبًا لا نجد له تعليلًا.

استمرت الخواطر تتدفق على قلبه بلا انقطاع، فرأى نفسه وهو يحفظ كل ما رواه الشيخ سالم عن الإمام ومحنته وثباته، ويالها من لحظة نورانية احتوت فؤاده عندما عرف أن ابن حنبل كان يتبرك بشـعرات للرسـول عليه الصلاة والسـلام، وأن الإمام الشـافعي تبرك بثوب لابن حنبـل وعصره في الماء كي يمسح بالماء على وجهه كل يوم، إنها صفوة صالحة.

مر صوت الشيخ سليمان على أذنه وهو يقول: على فكرة يا بن صاحبي أنا شافعي المذهب ولكنني حنبلي الهوى.

– كيف هذا يا سيدنا؟

– جدي الأكبر «الربيع بن سـليمان» هو الذي حمل رسـالة الشافعي لابن حنبـل، وهـو الذي أخـذ ثوب ابـن حنبل هدية، ومـا زال الثـوب عندنا من مفاخرنا.

– أوَلقب عائلتكم نسبة إلى هذا؟

– نعـم مـن وقتها وجدي الأكـبر يطلقون عليه الربيـع الحنبلي فأصبحت عائلتنا هي عائلة الحنبلي مع أننا من أشـد خلق الله تمسكًا بالشافعية، رحمة الله عليهما وعلى أمواتنا أجمعين، والله يا بن صاحبي ظلت عائلتنا تتناقل قصة ابن حنبل وفتنة خلق القرآن حتى إننا من فرط حبنا للقرآن ودفاع ابن حنبل عنه أصبحنـا على مدار مئات السـنين نحترف تحفيظ القـرآن، رحـم الله ابن حنبل فقد ذاد عن الأمة كلها.

- هل في الدنيا يا شيخ سليمان من يقف هذا الموقف في سبيل مبدئه؟!

- إنهم قلة في التاريخ، لذلك فإن هؤلاء لابد أن يكونوا من ورثة الأنبياء.

- لقد أحببت هذا الرجل يا سيدنا حبًّا دخل وقعد ونام على آخر جهده على حشايا قلبي حتى إنني دعوت الله أمس بعد صلاة العشاء أن يجمعني به في الدنيا والآخرة.

ضحك الشيخ سليمان وقال بلكنة أهل الشرقية: أعزنك عايز ربنا يجمعك بابن حنبل في الدنيا!! طب في الآخرة ماشي لكن في الدنيا تيجي ازاي دي!

- أهيَ كبيرة على ربنا يا شيخ سليمان؟

- مش القصد لكن آني على قد حبي لابن حنبل - وآهو يعتبر جزء من تاريخ عيلتنا - لكين ماستجريش ادعي الدعا ده لربنا، لهو انت يابن صاحبي فاكر نفسك عيسى عليه السلام تحيي الميت، ده كُفر والعياذ بالله.

- كُفر ليه يا سيدنا، مش هو قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾، وانا دعيت وتني قاعد مستني الإجابة.

- ادعو بالمستطاع يابن صاحبي.

- أهو دا الكفر يا سيدنا والعياذ بالله، ربنا قادر على كل شيء، إنما أمره أن يقول للشيء كن فيكون.

- دانت باين دماغك يابن صاحبي مليانه فكر، خلاص يا سيدي ربنا يكتبهالك.

تكررت الضربات الخفيفات على أم رأسـه فاسـتجمع قـواه وفتح عينيه، اتـكأ على مرفقيه وقام قاعدًا، أخذ ينظر ذات اليمين وذات اليسـار لكنه لم ير أحدًا.

أين أنا الآن؟! ما هذا المكان الغريب؟! سمع من خلفه صوت تلاطم أمواج، نظر إلى الخلف فوجد بحرًا ممتدًا لا نهاية له، انتفض واقفًا وقد أصابه الفزع، بحر في الأراضي الحجازية! هذه وايم الله إحدى الكُبَر، ثم ما هذا؟! زال عني التعب والعطـش! وأنا الآن أشـعر بقوة وفتوة لم أشـعر بهما من قبل! ما بـال هذا الهواء نقيًـا، لا يدخـل إلى رئتي فقط ولكنه يكاد يحملني على هدوئه وسـكونه، تنتابني الآن رغبة صبيانية حمقاء في الطيران، هل أستطيع الطيران حقًّا؟!

قفز الحاج غريب قفزة خفيفة فشـعر بنفسـه يرتفع في السـماء ثم يهبط إلى الأرض في هـدوء وكأن جاذبيـة المـكان تختلف عن الجاذبية التـي يعرفها! ما هذه الخفة التي تجتاحه؟!

سـكن في مكانه وهو يتحسـس بعقله مـا مر به: أكاد أجزم أنني لسـت في الدنيـا التـي أعرفها، ولكن من هـذا الذي يجلس على يميني؟ هـا! أظنه ذلك الرجل صاحب اللحية المخضبة بالحناء، نعم هو الذي سقاني الماء، ولكنه ليس وحده؟ فبجواره رجل أسمر الوجه نحيف البنيان، أقسم بالله إنني لو حكيت مـا مـر بي للحاج محمـد عرفة ما صدقني أبـدًا، آه، أين أنت يـا محمد يا عرفة؟ أيـن أنت يارفيـق دربي؟ أظنك لو كنت معي لألزمتني بالدعاء والاسـتغفار، الدعاء... نعم... يجب أن أركن إلى الدعاء، ولكن أي دعاء أقول؟

ها، لقد علمتني يا محمد يا عرفة دعاءً سألجأ به إلى الله: سبحانك يا مالك الملكوت أنجدني بوعدك الذي قلت: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ ونجني كما نجيت ذا النون ووعدك الذي قلت: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وما إن انتهى الحاج غريب من دعائه حتى شعر برجفة قوية تنتاب جسده ثم وقع على الأرض مغشيًا عليه.

ولما كان الزمان والمكان من خلق الله وكان الله قد أذن باللقاء.

فقد توالت الأحداث سريعًا، فبعد أن أفاق الحاج غريب من غشيته وجد مساحة البحر قد ازدادت اتساعًا ومساحة اليابس قد تقلصت، نظر للبحر فوقع في نفسه شعوران متناقضان في آن واحد، شعور بالرهبة وآخر بالراحة، كانت الراحة مبعثها في أغلب الظن ذلك الهدوء الذي تخالطه زقزقة العصافير وتلك الأشجار ذات الخضرة التي لا عهد له بها والتي تصطف أمام البحر وكأنها في موكب ملائكي أسطوري، أما الرهبة فكانت من تلك الأمواج العالية التي لا صوت لها والتي تمط نفسها من البحر مطًّا لتصل إلى موكب الأشجار الأسطوري على أمل أن تصافحه وتشد على يديه، وحين لطمت وجهه موجة استطالت من البحر حتى وصلت إليه وجد أعجب ما مر به في حياته! فحين مسح بيده على وجهه تسربت بعض قطرات من ماء البحر إلى فمه فوجد هذا الماء حلوًا لا ملوحة فيه، ليس حلوًا فحسب ولكنه في الحقيقة كان أعذب ماء ذاقه لسانه في حياته، وحين تسربت قطرة الماء من لسانه إلى أنسجة جسمه شعر بخفة تكاد ترفعه من الأرض رفعًا، حينها اعترته رغبة

جارفة في الجري والقفز إلا أنه ألجم نفسـه، وكان مما أثار دهشـته ضوء النهار الـذي يلـف المكان، فهـذا الضوء لا عهد له بـه من قبل، يشـع نورانية مريحة للنفس، ويبث إحساسًا بالوضوح.

ولكن أين الشـمس التي ينبعث منها هذا الضوء؟ إنني لا أرى في السـماء قرصهـا، كـما لا يوجد سـحب تحجبهـا، أنـا في أرض لا شـمس تعلوها ولا سحب في سمائها، هذه دنيا غير الدنيا، يا مغيث أغثني.

انتبـه غريـب فإذا بالرجلين اللذين رآهما قبل غشـيته يجلسـان بجواره، لم يكن قد شـعر بوجودهما حين أفاق من غشيته، وحين أمعن النظر فيهما تأكد أن أحدهمـا هو الذي سـقاه مـن دورق الماء بعد أن كاد يهلك، والثاني أسـمر الوجـه نوراني الطلعة اتئنس به وانكب قلبه إليـه حبًا دون أن يعرف من هو، وضـع صاحب الدورق يده على رأس الحاج غريب وأخذ يقرأ عليه كلمات، حاول غريب أن يعرف معاني هذه الكلمات التي تُقرأ على رأسه إلا أنه لم يفهم منهـا شـيئًا، كل الـذي يعرفه أن قلبه اسـتراح لها، انتبه للرجل الأسـمر وهو يقول لصاحب الدورق: من هذا يا رصافي؟

رد صاحب الدورق: هذا رفيقك في رحلتك يا إمام.

الرجل الأسـمر: ما زلت تردد على مسامعي خبر هذه الرحلة وأنا لم أفهم شـيئًا بعـد، مرت بي مذ أخذتني من قصر الخليفـة أحداث غريبة آخرها تلك الرجفة التي هزت الأرض من تحتي، ظننت أن القيامة قامت وأننا على وشك أن نعاين أهوالها، فإذا بالرجفة تلقي بنا في هذا المكان وكأننا قطعة لحم ألقاها أحدهم من آنية إلى آنية أخرى!

تدخـل الحاج غريب متعجبًا: قصر الخليفة! عشـنا وشـفنا! ما علينا، هل أسـتطيع أن أعـرف مـن أنتما وأيـن أنا؟ وهل أطمـع في أن تعيـداني إلى خيام الحجيج بمنى؟

رفـع الرجل الأسـمر يده إلى السـماء قائلًا: يا ألله! ما هذا الذي أسـمعه؟ خيام الحجيج ونحن في شهر رمضان، ألم تأخذني يا رصافي من قصر المعتصم في نهار رمضان؟ هل أخذتني إلى «البيمارستان» كي أقابل هذا الرجل؟!

ضحـك الرصافي وقال: كلاكما في زمن آخر وفي مكان آخر، أو بالأحرى كـما قلت لك يـا إمام أنتـما في سرداب من سراديـب الزمن، وسـينقلكما هذا السرداب إلى زمن آخر.

الرجل الأسـمر: لن أماريك الآن ولكن سأسـألك عن سـبب هذا النقل الذي تدعيه.

الرصـافي: كلاكـما مخلوق من طينـة واحدة، وبث الله فيكـما قطعة نورانية واحدة، وكلاكما رأى أنه وقع في محنة لا مثيل لها في العالمين ولم تنظرا إلى العالم بسـعته وامتداده، فكان أن أخذتكما من زمانكما ومكانكما إلى زمن آخر حيث سترون ما لا يخطر على قلب بشر، وما فعلته عن أمري.

قال الرجل الأسمر وقد اعترته الحيرة: احذر يا رجل ولا تظن نفسك العبد الصالح الذي صاحبه موسى عليه السلام، فما أنت إلا ذلك الجار الطيب الذي ألفت عشرته وخبرت طيب معشره، ثم إنني لم أضجر مما حدث لي وقد ثبتني ربي وما خشـيت إلا فتنة التعذيب بالسـوط، وحين وقعت في لجتها استعنت

بـالله وبرئـت من حولي وقـوتي إلى حوله وقوته، ولولا شـعرات من رسـول الله ﷺ وضعتهن في كمي لهلكت من شدة الوَصَب... ثم استدرك قائلًا: ثم ما هذا الهراء الذي ما فتئت تتفوه به «زمن غير زمن ومكان غير مكان»؟!.

قاطعـه الحاج غريـب وهو يكتم فزعـه: والله لقد بدأت أسـتريب منكما، لغتكما غريبة وحديثكما غريب، ما هذه الألغاز؟ بيمارسـتان، زمن آخر، قصر الخليفة! اسـمع انت وهو، أنتما لا تعرفانني ولو زاد تخريفكما عن حده فقولا على نفسيكما يا رحمن يا رحيم، أما موضوع غريب والله!

داعبـه الرصـافي: يجـب أن يكـون الأمـر كذلك لأننـا معك يـا «غريب» وطوبى للغرباء، ومع ذلك فسـأقول لك يا أخي ما لم تسـطع عليه صبرًا، أما أنا فعبدٌ لله، اسمي عبد الله الرصافي.

اشرأب عنق غريب دهشـة: عبد الله الرصافي؟! لقد سـمعت هذا الاسم من قبل، نعم سمعته، آه، أنت الذي قابلت الحاج محمد عرفة في الإسكندرية وتحدثـت معـه عني وعـن النبـوءة، كما أنـه يخيـل إلي أنني رأيتـك في إحدى جلسات الذكر عند الشيخ الفضالي، أليس كذلك؟

الرصافي: القلوب كنز المعرفة.

غريب: لا ترد عليَّ بالألغاز يا سيدنا الحاج، الله لا يسيئك.

الرصـافي: قلبك يعرفني قبل أن يخبرك عنـي حبيبك محمد عرفة وقبل أن تراني عند شيخك الفضالي.

غريـب: ومن هذا الذي معك، أغلب الظـن أن قلبي يعرفه، ولكن عقلي لا يتذكره؟

الرصـافي: الـذي معي هـو إمام الأمـة الـذي ذاد عنها حـين امتحنت في القرآن.

فغر الحاج غريب فاه وهو يقول: من؟! لا أعرف إلا رجلًا واحدًا ذاد عن الأمة في فتنة خلق القرآن!

الرصافي: هو من تعرفه يا غريب، هو حبيبك الذي تُيمت به.

غريب: الإمام أحمد بن حنبل! لا بد أنك وقعت في التخاريف!

الرصافي وقد افتر ثغره عن ابتسـامة: ألم تدع الله أن يجمعك بابن حنبل في الدنيا والآخرة.

غريب: بلى، دعوت، ولكن ابن حنبل مات وشـبع موت، ويعدين يا عم الحاج انت عرفت منين حكاية الدعوة ديه!

تجاهل الرصافي الجزء الأخير من كلام الحاج غريب وقال بهدوئه المعهود: ألم تدع الله وأنت موقن بالإجابة؟

غريـب: بلى، ولكنني لم أعرف كيف سـتكون الإجابـة، هل بعث اللهُ ابن حنبل من قبره؟!

اعتدل ابن حنبل في جلسـته وقال بصوت حاسـم: كفى كفى، لا أريد أن أسـمع هذه الترهـات، وايم الله أظن أنني وقعت في مدينـة للمجانين، قل لي يا رصافي: ما هذه الأحاجي التي أدخلتني فيها؟ وما هذا المكان الذي يحتوينا؟ إنه مكان غريب أرضه براح لا وعورة فيه ولا هضاب! أين نحن؟

الرصافي: ستظل تسألني وسأظل أجيبك، نحن في طريقنا إلى زمن آخر ومكان آخر غير الذي تعرفانه.

ابن حنبل: ننطلق إلى زمن آخر! أعرف كيف ننطلق إلى مكان آخر، ولكن هذه أول مرة يحدثني أحدهم عن هذا الذي تهرف به.

ضاعت الأصوات من أذن الحاج غريب وهو يحاول أن يفهم هذا الغموض الذي وجد نفسه فيه، وكان أقرب ما وصل إليه تفكيره أنه يعيش حلمًا غريبًا، فأخذ يقرص نفسه حتى يستيقظ من ذلك السبات العميق، ثم ما لبث أن انتفض واقفًا ثم أخذ يعدو بأقصى سرعته ليبتعد عن هذا المكان، وكان كلما توقف نظر خلفه ليستبين مدى ابتعاده عن الرجلين، ولكن يا حسرتاه، كان يجد نفسه قريبًا منهما وكأنه لم يبتعد عنهما قيد أنملة، فكر في أن يذهب ليختبئ خلف صف الأشجار الذي يقف قبالة البحر، ولكنه كلما اقترب من الأشجار وجدها وكأنها تسير إلى الخلف هاربة منه فلا يستطيع أن يقترب منها ولو بمقدار، أمعن النظر في اتجاه الأشجار فرأى سربًا من الطيور غريبة الشكل تقترب من رءوس الأشجار ثم حطت عليها، وعندما حدَّ بصره وجد أن هذه الطيور ذات أجسام شفافة، أصابه الرعب مما رأى فصاح صيحة مدوية خافت منها الطيور فارتفعت في السماء هاربة وظلت تصعد وتصعد حتى اختفت عن بصره.

طيور غريبة شفافة، هذا أمر لا عهد لي به في الدنيا كلها.. أريد أن أهرب ولكنني كأنني مقيد في أرض هذا المكان.

كلـما نظـر يمينًـا أو يسـارًا خلفًـا أو أمامًـا ظلت الصـورة أمامـه كما هي لا تتغـير، لا يزال قريبًـا بنفس المقدار من الرجلين! عـاود الجري مرة أخرى لعلـه يظفـر بهروب واقتراب من خيام الحجيج بمِنـى، ولكن لا فائدة، فكلما جرى شـعر بأن المكان يجري معه! توقف عـن الجري وجعل ظهره للرجلين ناظرًا لصف الأشجار الطويل وأخذ نفسًا عميقًا وكأنه يستمد منه قوة روحية تؤهلـه لمواجهة هذا الموقف الغريب، تـرى لو عدت إلى زوجتي وحكيت لها لا أظن أنها ستصدقني، سترقيني كعادتها كلما ألـمَّ بي شيء، ستقول وهي تضم أصابع يدها اليمنى وتحركها بشـكل دائري فوق رأسي «رقيتك واسـترقيتك يابن عيوشة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» فماذا لو حكيت لشيخي «الفضالي»؟! عندما حكيت له في السالف عن الرؤيا التي رأيتها في المنام عن رجـال أقوياء يكبلونني، طلب مني أن أترك الطريقـة البيومية وقال لي: أنت حر، اعبد الله عبادة الأحرار. فما باله يقول اليوم إذا رأى الموقف الذي وقعت فيه، من يدري قد أكون الآن ميتًا وجسـدي بين يديه يغسـله، لم يأت أحد من المـوت ليخبرنا عـن أحوال الموتى وكيف هم في عالم البرزخ، أخبرني الشـيخ الفضـالي مـن قبل عن أن عالم البرزخ هو نوع من أنواع الوجود، قال إنه معبر للـدار الآخـرة. أحفظ كلماته التـي قالها: «كنا من قبل في عـالم الأرواح ثم في عـالم الـذر ثـم في الحياة الدنيا ثم سـننتقل إلى عـالم البرزخ ومن بعـده إلى يوم البعث فإما إلى جنة وإما إلى نار». وحين سـألته: أنا أعرف عالم البرزخ فما هو عـالم الذر هـذا؟ قرأ لي مـن القـرآن ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فهل أنا الآن في عالم البرزخ، أم في عالم الذر؟!

غابت صورة الشيخ الفضالي عن خياله وداعبه خيال زوجته سيادة، يا ترى ماذا تفعل الآن، وكيف ستصبر على غيابه وهي التي لا تعرف شيئًا في الحياة إلا من خلاله، تزوجها وهي أقرب إلى الطفولة فأصبحت تتبع رأيه وقراره على طول المدى وكأنها قدت من تجويف صدره، داخله قدر من الاطمئنان عندما تذكر أن زوج ابنته معهما في الحج وأنه لا بد أن يبحث عنه ويشجع سيادة ويشد من أزرها.

تداعت الصور على خياله، كان كمن ينظر للدنيا التي مرت به من مكان مرتفع، رأى قريته السعيدية، تلك القرية البائسة التي ظلت عمرًا طويلًا تعيش باسم غير اسمها الأول، ظلت تحمل اسم «المحروقة» ردحًا من الزمن حتى قيض الله لها أمرًا فأصبح غريب عمدة لها، رأى غريب - وهو يسبح في دنيا الأفكار - ذلك الاحتفال الضخم الذي أقيم في القرية منذ أعوام احتفالًا بنجاحه في العمودية، يومها عقد اجتماعًا مع أعيان القرية وشيوخها واتفق معهم على التقدم بطلب لمدير المديرية بتغيير اسم القرية من المحروقة إلى السعيدية، ها هو يرى أهل القرية والفرحة تكاد تسلب ألبابهم وهم يحملون لافتة كبيرة مُعتبرة كتبوا فيها اسم قريتهم الجديد القديم «قرية السعيدية» وهاهم ينصبون تلك اللافتة في مدخل القرية وكأنهم يقولون لكل أهل القرى المجاورة: لقد طلقنا اسم المحروقة بالثلاثة، نحن أهل السعيدية السعداء ولن تقترب منا الحرائق بعد اليوم، تحركت أمامه صورة حريق ألم بالقرية منذ عامين، استعر أوار الحريق في بيت أحد أفراد عائلة فرَّاج ولكن الله ستر إذ كان هذا البيت بعيدًا عن باقي بيوت القرية فلم ينتشر الحريق

ووأد نفسه خاصة أن أهل القرية كلهم انتفضوا ووقفوا وقفة رجل واحد وشاركوا في محاصرة الحريق فأكلت النار نفسها، تتابعت الصور على خيال «غريب» فرأى شقيقه الأصغر أحمد وهو يخطو خطواته في الأزهر الشريف، يحفظ القرآن ويتلقى العلم، ارتجف قلبه وهو يتلهف على رؤية أخيه أحمد وهو يجلس في مقام العلماء، غابت صور الذكريات عنه وعاد إلى حاله التي كان عليها وهو يحاول الفرار.

استدار غريب ناظرًا إلى الرجلين، لا فائدة من الابتعاد فلن أبرح مكاني هذا، لفه اليأس وغلف قلبه، تذكر كلمات الرصافي التي قالها منذ هنيهة: «كلاكما في زمن آخر وفي مكان آخر». إذن أنا الآن على يقين أنني ميت وأنني الآن في عالم البرزخ، متُّ وأنا في الأراضي الحجازية المقدسة وفي بقعة طاهرة، الحمد لله أنني مت وأنا أحج وألبي، فسأبعث يقينًا إن شاء الله يوم القيامة على التلبية، ولأنني دعوت الله مخلصًا أن يجمعني بابن حنبل فقد أرسل الله لي روحه كي ألتقي به، ولكن ابن حنبل نفسه في حالة حيرة، يبدو هذا من كلامه، المفروض أنه مات منذ زمن طويل وسبقني إلى عالم البرزخ فما الذي يحيره؟! هل هذا الرجل الذي معه أحد الملائكة، ولكنه يبدو مثل البشر تمامًا، لا فرق بينه وبيننا! جلس غريب على الأرض ورأسه يكاد ينفجر من فرط الأفكار التي ازدحمت فيه، وحين جلس عادت الأصوات مرة أخرى تنتظم في أذنه ليسمع أغرب ما مر عليه في حياته.

■■■

ارتفع صوت الإمام أحمد بن حنبل: لن أبرح مكاني.

رد الرصافي بهدوء وسكينة: المكان هو الذي يبرح، ثم إنك لا تسير في الزمن ولكن الزمن يسير بك.

ابن حنبل: كنت في محنة ثبتني الله فيها، أأترك محنة إلى محنة؟!

الرصافي: بل تترك محنة إلى منحة، أتذكر يوم أتيت إليك في سجن العامة بدرب الموصلية؟ ما الذي دار بيننا؟

ابن حنبل: قل أنت.

الرصافي: «أنت كتبتها على نفسك».

ابن حنبل: كيف؟

الرصافي: يوم أتيت إليك في سجنك قلت لي: «والله الذي نفسي بيده لو أراني الله فتنة أشد مما وقعنا فيه لضربت من يثيرها بنعلي هذا».

ابن حنبل: تذكرت وقتئذ قلت أنت لي «كتبتها على نفسك».

ساد الصمت المكان ثم تنحنح ابن حنبل وهو يقول: هل معنى ذلك أنني سأدخل في محنة أخرى؟

الرصافي: ستكون شاهدًا.

ابن حنبل: كيف؟

الرصافي: يوم أن أتيتك في السجن كنتَ متيقنًا من أن الأمة لن تشهد فتنة كفتنة خلق القرآن، أليس كذلك؟

ابن حنبل مجيبًا: بلى.

الرصافي مسترسلًا: وقطعتَ بهذا وأنت تُقسِم، فقلت لك: تمهل أيها الشيخ فإنك لم تُنبأ بما سيحدث في قابل الأزمان؟ فكان أن أخبرتك بأن الفتن ستظل تموج بأمتنا إلى يوم الدين، ولذلك كان قسمك الذي توعدت فيه بأن تضرب رأس من يثير فتنة بالنعل.

ابن حنبل: أكمل.

الرصافي: نحن الآن يا إمام في دنيا غير دنياك في سرداب من سراديب الزمن، يتحرك السرداب ليصل بنا إلى زمن آخر غير زمننا، ليصل بنا إلى زمن لم يأت بعد.

ابن حنبل: وكيف سنذهب للذي لم يأت بعد؟ أراك تهرف كبعض الصوفيين.

الرصافي: كل شيء أتى في أمر الله، ثم يتنزل علينا من عالم الغيب إلى عالم الحضور، المستقبل غيب، والغيب يكشفه الله لمن يشاء من عباده.

ابن حنبل: تقصد قول الله ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ ولكن الكشف هنا كشف معرفة لا كشف حضور.

قطع الحوار صيحة صدرت من الحاج غريب: يا ربي ما الذي يحدث؟!

سأله ابن حنبل: صه أيها الرجل، أريد أن أفهم؟.

قال الحاج غريب بصوت مرتعش: ألم تر الذي حدث؟ الشيخ الرصافي يجلس أمامنا، كانت أجسادنا تكاد تتلاصق، ودون أن نتحرك رأيتنا نبتعد عنه.

ابن حنبل: أجننت أنت؟ نحن في موضعنا لم نتحرك منه وهو يجلس أمامنا لم يتحرك قيد أنملة، دعك منه يا رصافي، قل ما عندك.

الرصافي مبتسمًا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ والإحاطة يا إمام تكون معرفة وحضورًا كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ بل في مسندك من الأحاديث ما يدل على هذا.

ابن حنبل: نعم، صدقت، فعن ابن عباس قال: كان الذي أسر العباس ابن عبد المطلب أبو اليسر بن عمرو فقال له رسول الله ﷺ: «كيف أسرته يا أبا اليسر». قال: لقد أعانني عليه رجل ما رأيته بعد ولا قبل، هيئته كذا، فقال رسول الله ﷺ لقد أعانك عليه ملك كريم ..». استكمل ابن حنبل: رأى أبو اليسر الملك وشاركه في أسر العباس فكان شريكًا وحاضرًا مع الغيب الذي هو أحد الملائكة، ولكن ما قصة الزمن التي تدعيها؟ إنها كقصص الصوفية!

الرصافي:لله درك يا بن حنبل، أتذكر يوم التقيت «أحمد بن أبي الحواري» بمكة؟ أتذكر الكلام الذي دار بينكما؟

ابن حنبل: كنا نتحدث حول قول أبي سليمان الداراني «إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا» وقد تعجبت من هذا القول إلا أنني رأيت ما يدعمه في حديث رسول الله ﷺ «من عمل بما يعلم، ورّثه الله علم ما لم يعلم».

الرصافي: هذا هو علمك يابن حنبل، وقد سمعتك ذات يوم وأنت تقول «من العلم ما جاء من فوق» أي إلهامًا من غير تعليم.

ابـن حنبل: كنت أقصـد العلم الذي أعطاه الله أم موسـى، والذي أعطاه الرجل الذي كان في مجلس سـليمان، والعبد الصالح الذي قابل موسـى، بل النحل أيضًا.

قاطعهـما غريب يوسـف: يا خلق هـوه، الدنيا بتمشي وانتـم بتتكلموا في الفلسفة، ارحمنا يا رب، تعال لي يا فضالي.. يا نهار اسود، الدنيا تدور بنا.

ابن حنبل: ما هذا؟ أين أنت يا رصافي؟ أنا لا أراك، أين ذهبت؟

غريب يوسف: ضربة شمس، هي ضربة شمس أصابتني بالتأكيد، أنا دخلت في التخريف، تعالي يا سـيادة، أنا عمدة السـعيدية مركـز بلبيس شرقية، وأنا من رعايا الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان، انقلوني للمستشفى حالًا.

ابن حنبل: يا رب سلِّم سلِّم، يا رب سلِّم سلِّم، ما هذا؟! الدنيا أصبحت مظلمة، أين النور؟

غريب يوسف: جسدي يرتجف، الدنيا برد جدًّا.

ابـن حنبـل: وأنا أكاد أتجمد مـن البرد، ارحمنا يا رحيـم، اللهم أنر طريقنا وهدئ روعنا ولا تجمد أوصالنا.

غريب يوسـف وهو يرتعد من الخوف والبرد: بررررررر أنا لا أرى شـيئًا، هل أصابنا العمى؟ هي ضربة الشـمس وليس شيء غيرها، ولكنها هذه المرة

جاءت جامدة عن كل مرة، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، يا رب نجنا بحق ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هدأت الحركة من حولها إلا أن الظلام ظل مخيماً على المكان، وشيئًا فشيئًا بـدأت عيونهـا تتعود على الظلام، فاتسـعت حدقات العيـون «البؤبؤ» حتى تستخلص مـن الظلام نـورًا وتدخلـه إلى العـين، أفي الظلام نـور؟! نعم في الظلام نور، كل شيء في الكون فيه نور حتى الظلام، وما ذلك إلا لأن النور يغشى الكون كله، والظـلام من الكون، فالنور يغشـاه، والظلمة لا تنفصل عن النور وإلا لما استخلصته العيون؛ لذلك يألف الإنسـان الظلام ويتكيف معه، حتى إنه يرى يده بصعوبة في الحالة شديدة الظلمة التي ضرب الله لنا بها مثـلًا ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ إذ إن الله لم يقـل لنا «لم يرها» ولكنه قال ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي يراها بصعوبة.

تحسس غريب جسـده، وتحسس ابن حنبـل الأرض التي يجلـس عليها فعلـق التراب في يده، نظر فوقـه فلم يجد قمـرًا ولم يجد نجومًـا، وعندما زاد اتسـاع حدقتيه وجد كأن شـيئًا سـاترًا بجواره، فتحسسـه فوجده صلبًا، قام واقفًا فارتطم رأسـه بشيء فأقعى واقعًا عـلى فخذيه فصاح قائلًا: أين نحن؟ ما هذه الرائحة الغريبة النتنة؟

تهادى إليه صوت غريب يوسف: نحن في سجن مهجور، لا يوجد هواء، أكاد أختنق.

- هل وضعني المعتصم بالله في سجن ما؟

- يضعك أنت، ولكن كيف سيضعني أنا؟! هذا والله شيء عجيب.

- ألم نكن معًا في مكان آخر وكان معنا الرصافي؟

- هذا ما تخيلته، ولكن يبدو أنه لا يوجد رصافي ولا يحزنون.

- صه إنني أسمع صوتًا، هل نستغيث؟

- انتظر فنحن لا نعرف مكاننا.

سادت فترة صمت بينهما، وفجأة قال غريب يوسف: ما هذا؟ لقد تحسست شيئًا صلبًا!.

- ما هو؟

- هات يدك.

ناوله ابن حنبل يده فأخذها غريب ومدها إلى موقع بجواره على الأرض فمال جسد ابن حنبل معه مطاوعة له فلمس شيئًا كأنه عصا أو نحو ذلك، تناولها ابن حنبل بقبضته وحملها وقربها من عينيه وأخذ يمعن فيها النظر، لم تستطع عيناه معرفة طبيعتها إذ كانت تبدو كشبح غائم، فأخذ يتحسسها بيده، ثم ألقى بها فزعًا.

- يا ألله ما هذا؟!

استند ابن حنبل على يديه وأحنى ظهره وأخذ يتجول في المكان الضيق، تعثرت يده بعدة أشياء غريبة، فأمسك واحدة منها، فوجدها مثل الأولى، ألقى بنفسه على فخذيه وهو يكتم صرخة ندت عنه.

- يا ألله نحن في مقبرة.

الحياة الرابعة

زمكان

الجبانة

أجمل ولد في قرية السعيدية وأكثرهم هدوءًا وسماحة هو نور الدين بن مصطفى الشرقاوي، وكان فوق ذلك نابغًا متفوقًا في دراسته، وصل إلى الصف الثاني الثانوي بتفوق، وأخذ يجتهد في المذاكرة حتى تقر عين أبيه ويدخل كلية الهندسة، كان واثقًا من قدراته حافظًا للقرآن، مصليًا في المسجد، لا غبار عليه أبدًا، تفخر به مدرسة الشهيد هاشم الرفاعي، ويقول مدرسوه عنه: هذا الولد باسم الله ما شاء الله عليه، تربى على طبلية أبيه فعلًا.

عندما يخرج نور الدين من بيته منفردًا أو مع أبيه كانت أمه ترقيه من العيون وشرها فقد كان أبيض الوجه أزرق العينين - مثل أبيه تمامًا - يخطف الأبصار حتى إن بنات القرية كن يشهقن إعجابًا عندما يرينه.

قرة عين أبيك أنت يا نور، وقرة عين أمك، وحبيب إخوتك فأنت أصغرهم وأعقلهم، جدتك فاطمة تحبك كما لم تحب أحدًا قبلك، وتعتبرك «أعز الوِلد» تتذكرك يوم أن ولدتك أمك وكانت هي أول من حملتك، كنت «لحمة طرية» ولكن جمالك أذهلها فأخذت تبسمل ثم قالت: نور، والله نور، الولد منور مثل البدر في ليلة تمامه.

فابتسـم لهـا مصطفـى الشرقـاوي وقـال: خـلاص يـا أمـي، سنسـميه نور الدين.. ثم أخذك منها وأخذ يؤذن في أذنيك إعمالًا للسنة النبوية، فصرت نور الدين، وصارت الدنيا لا تسع أهلك من فرحتهم بك، ومرت السنوات سريعًـا وهأنتـذا في الصف الثـاني الثانـوي، مطيعًا مهذبًا خفيـض الصوت، بارعًا في ركوب الدراجات، متفوقًا في أحكام تلاوة القرآن.

ولكـن لمـاذا تسرعت يا نـور؟ لماذا لم تنتبـه؟ ما الذي شـغلك وقتها؟ من الذي شـخص إليه بصرك حتى إنك لم تر السـيارة التي كانـت آتية من ناحية أنشـاص مسرعـة؟ لعنة الله على السـيارات وعلى أيامها، فـما إن أخذتَ تعبر الطريـق متجهًـا مـن ناحيـة قرية بـير عـمارة إلى ناحية قريـة السـعيدية حتى صدمتك السيارة.

تلقى مصطفى الشرقاوي الخبر من أحد أقاربه عبر هاتفه المحمول: الحق ابنـك، فهو في مستشـفى بلبيـس العام... قفـز مصطفى من مكانـه صارخًا: يا نهار اسود، ما الذي حدث له؟ يا رب استر يا كريم.

هرعت إليه زوجته ثريا: خير، خير يا مصطفى، ما الذي حدث؟ تكلم.

وفي الطريـق لمستشـفى بلبيس أخـذت ثريا تبكي بصـوت مرتفع: يا رب استر، يا رب يكون ابني بخير، ربنا يحميك يا نور يا حبيب قلبي.

كانـت الدموع تنسـاب من عينـي مصطفى وهو يقرأ سـورة يسٓ، ويسٓ لما قرئت له، والسـيارة التي تحمله وزوجته تنهب الأرض نهبًا وكأنها تسـابق الزمن، ورغم رذاذ المطر الذي كان يتساقط على زجاج السيارة التي تحملهما،

والمطبـات الكثـيرة التـي تعـترض الشـوارع وكأنها قاطـع طريق، فـإن قائد السـيارة «الخال زكريـا» كان أكثر منهما لهفة واندفاعًا، فلم يهتم بالسـيارة ولم يترفق بها.

قال مصطفى لخاله زكريا: على مهلك يا خال.

- اقرأ القرآن وانت ساكت يا مصطفى، ربنا يسترها.

- ط[1].

حدث الخال زكريا نفسـه: «علام تخشـى يا مصطفى يا بن أختي أعرفك رقيق الحاشـية مهذبًا، أدرك أنك لا تخشـى على نفسك، فليس هناك أغلى من لهفتك على ابنك، تخشى على سيارتي؟!ها، ما قيمة السيارة يا ابن أختي ! وما قيمـة الأشـياء إذا ضاع الإنسـان؟ كل شيء في الدنيا بدون الإنسـان لا قيمة لـه، مـن أجلنا نحن خلق الله الدنيـا، ومن أجلنا نحن طلـب منا أن نعمرها، وبدوننـا لا قيمة للكعبة الشريفة، فلأن تهدم الكعبة حجرًا حجرًا أهون عند الله من سـفك دم إنسـان مسـلم، كل الأشـياء في الدنيا أكرمها الله من أجلنا، ومـن أجلنا نحن، طلـب الله منا أن نعبده، ولكن النـاس في أزمنتنا أصبحت تحرص على الأشياء ولا تحرص على الإنسان».

وقعـت ثريا على الأرض في صالة المستشـفى عندما وصل لها الخبر: مات نـور الديـن، كسر في قـاع الجمجمة ونزيف بالمـخ أدى إلى الوفـاة، مات فور وصوله إلى المستشفى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(1) ط: في لهجة أهل الشرقية يختصرون كلمة طيب إلى ط.

كانت صدمة مروعة لم يتحملها «فؤاد» مصطفى الكسير، لم تقو قدماه على حمله فجلس على أرض المستشفى يبكي في صمت « أين ذهبت يا نور، لماذا تركتنا، أهو الفراق؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون».

توافد الأهل والأقارب والأصحاب على المستشفى، انتحت النسوة بثريا جانبًا وأخذنها خارج المستشفى بناء على تعليمات الأمن، واصطحب الرجال مصطفى للخارج ريثما ينهي أحدهم الإجراءات، وحين سمع مصطفى ولولة النساء ذهب إليهن مكشرا عن نابيه: اسمعي يا حرمة انتِ وهيَّه، أي واحدة منكن سترفع بالصوت فوالله وبالله وتالله، ليس لها إلا الضرب على يافوخها، الصراخ على الميت حرام، حرام عليكم.... ثم استدار بوجهه إلى الناحية الأخرى وأجهش في البكاء.

مرت أيام العزاء ومصطفى لا يشعر بشيء مما حوله،كان ذاهلًا عن الدنيا وما فيها حتى إنه لا يتذكر الأيام التي تلت الوفاة، مسحها الله من ذاكرته، وسبحان خالق الخلق وعارف النفس، إن النفس إذا حملت أكثر مما تتحمل دافعت عن نفسها وألقت ما يؤلمها خارج وعيها، أليس الله يقول ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وعباد الله يقولون في القرآن: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ هذا هو علم النفوس، لذلك خرجت ذكريات العزاء المؤلمة والأيام التي تلتها من ذاكرة مصطفى ابن فاطمة، رغم أنها كانت أعجب أيام مرت عليه في حياته.

اعتـاد مصطفى أن يذهـب كل يوم إلى قبر ابنه، بل إنه كان يجلس في المقابر طـول اليوم، وعلى شـفا «الجبانة» كان يقـرأ القرآن ويدعو لنـور، ثم يأخذ في مناجاته والحديث معه، والسـؤال عن أخباره: أخبارك إيه يا نور، استعجلت ليـه؟ كان بـدري عليك يـا بني يا حبيبـي... ثم سرعان ما ينخـرط في العياط ويرتفع صوته بالنهنهة والنشيج، وفي بعض الأحيان كان يروح في إغماءة، فلا يلبـث أن يأتي خاله زكريا فيجده عـلى حاله فيأخذ في إفاقته ويجذبه كي يقف، ثم يسنده ويذهب به إلى البيت، وكان البيت أقرب ما يكون إلى مقابر القرية.

عافـت نفس مصطفى الطعام فأصبـح لا يزدرد إلا لقيمات وثمرة برتقال ويظـل عليها طوال اليوم، فقط أكواب الشـاي الثقيل الغامق المترع بالسـكر الأبيض هي التي كان يُفْرِط فيها رغم أنه مصاب بمرض «السكري». عشق مصطفى السـكر منذ أن كان طفلًا صغيرًا يذهب إلى دكان البقالة، ويشـتري من عم إبراهيم «كوز السكر الأحمر» أحيانًا، وسكر النبات أحيانًا أخرى، ثم يمنح نفســه في نهاية الأسـبوع مكافأة كبيرة بأن يشـتري علبة الملبن، وكانت الإجـازات التي يأتي إليهم فيها ابن خالته «عبد الله الجوسـقي» حافلة بعلب الملبن الذي يعشقه هو وعبد الله وحسين وأحمد وكل الرفاق: «ويالها من أيام لن تعود أبدًا، فالزمن لا يغود بنا إلى الوراء وإنما يسير بنا إلى الأمام، ليتنا نرتد إلى تلك الأيام الجميلة التي كنا لا نحمل فيها همًّا ولا غمًّا ولا مسئولية، ولكن الزمن يدفعنا دفعًا إلى الأمام الذي يحمل في كل لحظة مأساة وأسى!».

وبعـد وفاة نور أصبح السـكر هو الشيء الحلو في حيـاة مصطفى والذي يخفـف عنـه مـرارة الفـراق، ورغم السـكري الـذي أصابه فإنـه لم يعد يحفل

بالتحذيـرات الطبيـة «لا يقدر على الروح إلا الذي خلقهـا، هو وحده الذي يملك نزعها، لا مرض، ولا بشر، ولا غيرهما».

وفي غضـون أيـام قليلة نقـص وزن مصطفى نقصًا كبيرًا، وهزل جسـده وغاصـت وجنتـاه في وجهـه حتـى بدتـا وكأنهما حفرتـان كبيرتـان في أرض مسـتوية، فعل به السكر الأفاعيل، وحطمه الحزن، حتى إنه كاد أن يدخل في كثير من الأحيان في غيبوبة السكر ولكن الله كان يُسَلـِّم في كل مرة.

بعـد وفـاة نور هجـر مصطفى عملـه في المجلـس المحلي بمدينـة بلبيس، كان مصطفـى موظفًا كبيرًا لـه مكانته وتأثيره، فمنذ أن تخرج في كلية التجارة وهـو يعمل بالمجلس المحـلي، وأخذ يتدرج في المواقـع الوظيفية حتى أصبح أحـد الموظفين الكبـار، ولكنه كان يتميز عن جميع أقرانه بحب جميع العاملين إيـاه لطيبته المفرطة وكرمه الكبير، وحين وصل إلى الخامسـة والخمسـين من عمـره احتفـل به كل الموظفين في المجلس المحلي، جمعوا مالًا واشـتروا فطيرة الشـيكولاتة بالفراولة، ودخلوا عليه في مكتبه وهم ينشدون الأغنية المصرية « هنـوا أبو الفصـاد، حيث عيد ميلاده الليلة أجمـل الأعياد» فوجئ مصطفى والتف حوله الجمع يأكلون من الفطيرة ويشربون «الحاجة الساقعة» ويحكون النكات فيضحكون وكأن هموم الدنيا لم تقترب منهم أبدًا.

ولكـن قلـب مصطفى وقتها كان يستشـعر شـيئًا ما، همس لنفسـه وكأنه يخفـي صوته عن ذاته: «هذه أول مرة يحتفل فيها أحد بيوم ميلادي، أتوجس شرًّا مـن أشـياء قد تحدث في الأيـام المقبلة، ما هذا الـشيء؟ ولماذا أتوجس؟!

هـل يقتحمنـا التوجـس عندما نفـرح ! يالـه من شـاعر ذلك الذي قـال: إنَّ الفَرَحَ أمْرٌ عَارِضٌ في رحْـلَـةِ المِصْـرِيِّ عَـبْـرَ العُمْـرِ! والأفـرَاحُ في مِصْـرَ اعْـتِـدَاءاتٌ عَلى نُظُـمِ الحَـيَـاةِ. أفلهذا توجست شرًّا؟».

وبعـد يـوم واحد مـن هـذا الاحتفال صـدق حـدس الشـاعر وتوجس مصطفى، فقد مات نور.

ظـل مصطفـى على حاله وترحالـه إلى قبر ابنه نور كل يـوم، حيث يقضي هناك معظم النهار وجزءًا من الليل، يقرأ القرآن ويناجي الحبيب الذي غاب، ثـم يحمل معه أحـزان الدنيا، ويعود قافلًا إلى بيته وهو يحدث نفسـه ويناجي ابنه: «آه يا نور، غبت عني فغربت الدنيا، لم يعد فيها شيء يبهج، كل الأشياء تتساوى بعدك، الحلو كالمر، أصبحت أتوق للحظة التي سأذهب فيها إليك، متى أخرج من هذا الزمن ومن هذا المكان لأذهب إليك في ذلك المكان الذي أنت فيه من ملكوت الله؟».

وحـين يدخل إلى بيته يجد زوجته ثريا جالسـة متكومة على نفسـها وكأنها تبحـث عـن صغيرها نـور لتحتضنه، فيجلـس على الأرض صامتًـا ودموعه تحكـي حالـه، وذات مـرة قال لهـا: « هل تعرفين يـا ثريا ما هـو أثقل شيء في الوجود؟».

تعجبت من السؤال، هل هذا وقته يا مصطفى؟! إلا أنها أجابت باستفهام: الحديد؟

فلم يرد... عادت لتقول: الجبال؟

فلـم يرد... حسـمت أمرهـا وقالت: فهمـت، الهموم هـي أثقل شيء في الوجود.

نظر لها نظرة فاحصة وكأنه يستجلب ما في داخلها، ثم قال وهو يحدودب برأسـه إلى الأمام: لا، ليس الحديد أوالجبـال أو الهموم، أثقل شيء في الوجود يـا ثريا هو نعش الابن حينما يحمله الأب، هذا النعش لم يكن ثقيلًا على كتفي، ولكنـه كان ثقيلًا شـديد الوطأة عـلى قلبي حتى إنني انحنيـت بعد أن أودعته القبر، انحنيت يا ثريا؛ لانحناء قلبي، انساق الجسد للقلب وما فيه، فتكومت بجوار القبر، لم أسـتطع أن أصلب طـولي، وقتها لم أدر ما بي ! ظن الناس أنني أصبـت بوجـع في ظهـري، ولم يدر أحـد أن وجع القلـوب لا يضاهيه وجع، يستطيع الناس يا ثريا أن يروني وأنا أبكي ولكن أحدًا لن يشعر بوجعي أبدًا.

ـ وجعـي أكـبر من وجعك يـا مصطفى، فنور هو قطعة منـي، نور عيني، جلاء همي وحزني، ومِن غيره أصبحت الدنيا سوداء من حولي.

تصمت ثريا لتفسـح المجال لعيونها كي تذرف ما شاء لها من الدموع، ثم تمسـك مصحفها وتقرأ وتترحم على ضناهـا وفلذة كبدها، ومصطفى يجلس صامتًـا سـارحًا في ملكـوت الله، وقبل أن تضع جنبها على الفراش أمسـكت كتابًا وأخذت تقرأ منه قصيدة «قلب الأم» لأبي القاسـم الشـابي، كانت هذه القصيدة هي سلوتها ورفيقتها، تبدأ بالأبيات الأولى:

يا أيها الطفل الذى قد كان كاللحن الجميلِ

والـوردة البيضاء، تعبق فى غيابات الأصيلِ

يـا أيها الطفل الذى قـد كان فى هذا الوجودِ

فرحًا... يناجى فتنة الدنيا بمعسـول النشيدِ

هأنتذا.. قـد أَطْبَقَتْ جفنيك أحـلامُ المنونِ

وما إن تصل إلى البيت الذي يقول فيه الشابي:

كلٌّ نسـوك و لم يعـودوا يذكرونك فى الحياةِ

والدهر يدفن فى ظلام الموت حتى الذكرياتِ

حتى تأخذ عبراتها في الانسياب، فإذا وصلت إلى البيت الحاسم:

إلا فؤادًا..ظـل يخفـق فى الوجـود إلى لقـاك

ويـود لـو بـذل الحيـاة إلى المنيـة وافتـداك

هو قلب أمك... أمك السكرى بأحزان الوجود

حتـى تجهش بالبـكاء فيخطف منها مصطفى الكتـاب ويأخذ في النهنهة، ثم يسـعى إلى تمالك جأشـه، ويأخـذ في تصبيرها فيروي لها رؤيـا رآها لنور: «صلي على حبيبك النبي، شـفت في الرؤيا نور وهو يضحك، كان جميلًا وبهيًّا وكأنـه في ليلـة عرسـه..» ويظل يحكي حتى تذهـب ثريا في النـوم فيركن إلى الأرض ويضع جنبه عليها: «كما أن ابني ينام على الأرض فجسدي محرم على الفراش، في الأرض مثلك يا نور، في الأرض مثلك يا نور».

في هـذه الليلة بالذات ناوبته رؤيا غريبـة، حيث رأى في المنام رجلًا غريبًا رَبْعَـة، أبيـض الوجه مشربًا بحمـرة، له لحية غريبة ذات لون بني، أخذ يشـد ذراعـه ويقـول له: اذهـب إلى نور. فـيرد مصطفـى عليه: أذهـب إليه في أي مكان؟ أين هو؟

فيرد عليه بنفس الكلمة: اذهب إلى نور.

قام مصطفى فزعًا ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وعاد إلى نومه مرة أخرى، فإذا بالرؤيا تتكرر بحذافيرها، فيصحو مصطفى فزعًا، ويستعيذ، ثم يعود للنوم، فتتكرر الرؤيا، فيقوم مسرعًا وقد عزم على أن يرتدي جلبابه ويذهب إلى القبر في هذا الجو البارد، وفي شتاء يناير.

أغلق مصطفى باب الدار خلفه برفق حتى لا يشعر به أحد: «لا بد أن شيئًا ما قد حدث في القبر، يا رب استر، هل هناك من ينبش القبور» اقترب مصطفى من المقابر وهو يحمل بطارية الإضاءة، ذهب أول ما ذهب إلى قبر نور فلم يجد شيئًا، جلس قليلًا يتسمع لأي صوت، فلم يشعر بشيء غريب، قرأ الفاتحة لنور وأخذ يترحم عليه ثم استقر رأيه على أن يظل جالسًا في المكان إلى أن يؤذن للفجر، ولكن عواء الذئاب الآتي من بعيد أخافه فهم بالوقوف للانصراف، ولكنه حينئذ سمع صوتًا مكتومًا، أخذ يتعقب هذا الصوت حتى وجده خارجًا من أحد القبور: «يا لهو بالي يا جدعان، ما هذا؟! أتراهم لصوص القبور يسرقون الأمانات[1]، أم أن حيًا تم دفنه بالخطأ على أنه مات ثم دبت فيه الحياة من جديد؟! يحدث هذا أحيانًا!».

اقترب مصطفى من مصدر الصوت: «إنهما رجلان يتحدثان، إذن هما من لصوص القبور، خاصة أننا لم ندفن أحدًا في البلد منذ يومين».

كان الصوت يصدر من أحد قبور «آل يوسف» عائلة أمه فاطمة، بحث مصطفى في المكان عن عصا غليظة فوجد «سعفة» نخلة فحملها وهو

(1) في الريف والأحياء الشعبية يطلقون على جثة الميت «الأمانة».

يترقب، أرهف السمع للأصوات الصادرة من القبر، يا سبحان الله، أحدهما يتحدث بلغة عربية فصيحة، والثاني يتحدث بلكنة أهل الشرقية ولكن على أصولها، ولكنَّ هناك شيئًا غريبًا! كيف دخل اللصان هذا القبر وهو مغلق من الخارج بالحجر الكبير وردم الطين يعلو الحجر؟! لا توجد أي آثار لمحاولة فتح القبر: «يا لطيف اللطف يا رب، يا عزيز، يا عزيز، يا عزيز، هذا جن لا شك في ذلك، لقد شاهدت الشيخ مرتضى وهو يُخرج جنيًّا من جسد فتحي الساقع ابن خال أمي، حين تلا عليه القرآن وأذَّن في أذنه، انتصب جسد فتحي وتصلب، وتحشرج صوته واخشوشن، ثم أخذ الشيخ مرتضى يتوعد الجنيَّ ويهدده حتى أخرجه من جسد فتحي الذي كان يرتعد على تصلبه، يجب أن أنصرف حالًا حتى لا يتلبسني الجني، ولعلها قبيلة من الجان الأحمر، تبقى سنة سوخا[1] يا ولاد».

فر مصطفى هاربًا من الجبَّانة ولم يعقب والأصوات من خلفه تطارده.

■■■

تحدث الأشياء حين نؤمن أنها ستحدث، ويد الله لا تُرفع عنا ولكن الناس لا ينتبهون، والله سبحانه يقطع على أهله وخاصته اليأس ويفني فيهم فكرة المستحيل ويربطهم بحبل نوراني فيكفيهم الخلق والكيف والتدبير.

■■■

(1) سوخا: ينطقها أهل الريف هكذا وهي فصيحة ومعناها الانغماس في الطين، وساخت به أيضًا تعني: خسفت به، وساخت قوائم الدابة أي غاصت في الأرض.

قبل أن يدير مصطفى مفتاحه في باب الدار فتحت له ثريا، استقبلته بلهفة: أين كنت يا مصطفى؟ رحت للجبانة في هذه الساعة؟!

ـ شفت حلم يا ثريا خلاني أجري على الجبانة.

ـ خير يا مصطفى؟ اللهم اجعله خيرًا.

ـ واحد غريب جاء لي في المنام وقال لي: اذهب لنور.

ـ أضغاث أحلام يا مصطفى.

ـ قلت ذلك لنفسي واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، فشفت الحلم مرة ثانية، فاستعذت ونمت، فشفته مرة ثالثة، فقلت لأ، الحكاية فيها إنا[1] وعليها خرجت مسرعًا للجبانة.

ـ وماذا رأيت يا مصطفى؟

ـ لا عليك، لم أر شيئًا.

ـ ورحمة نور قل لي.

---

(1) الحكاية فيها إنا: لها أصل، ففي زمن هارون الرشيد غضب على البرامكة فقتل كثيرًا منهم وهرب منهم رجل يقال له «موسى البرمكي» فأراد هارون أن يحتال عليه ليعود، فغضَب على زوجته التي لم تفر معه أن تكتب له خطابًا تخبره فيه أن هارون تصالح مع البرامكة وعفا عنهم، فقالت لهارون: لن يصدق إلا إذا أرسلت له مع الخطاب هدية، فوافق هارون، فأرسلت الزوجة الخطاب ومعه سجادة مطرزة ومكتوب فيها حرف «إن» فما لبث أن رد موسى البرمكي الخطاب والسجادة رافضًا أن يعود، فقام هارون بعرض السجادة على وزيره قائلًا له: أترى ما الذي حدث؟ قال الوزير: الله أعلم. فقال هارون: الحكاية فيها إنا، ومعنى ذلك أن هارون فهم حرف «إن» الأول على أنه رسالة تحذير من الزوجة بالقرآن، إذ إنها تقصد الآية الكريمة «يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك» فرد عليها وقد وضع حرف ألف بجوار النون فأصبحت «إنا» ومعناها الآية الكريمة «إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها». ومن وقتها صارت «الحكاية فيها إنا» مثلًا.

ـ لم أر شيئًا ولكنني سمعت.

ـ ما الذي سمعته؟

ـ أصواتًا غريبة تخرج من مقبرة من مقابر أهل أمي.

ـ صوت عِرسة يعني؟

ـ لأ أصوات ناس.

ـ قل لي يا مصطفى ما الحكاية؟ أبوس رأسك.

فروى لها مصطفى ما سمعه وما جال بخاطره، فأحضرت المصحف وأجلست زوجها المضطرب على الفراش وأخذت تقرأ له سورة الصافات، وأتبعتها بسورة الجن، وحين انتهت قال مصطفى: ما رأيك، قد يكون من في القبر إنسيًا، وقد يكون قد شارف الهلاك.

ـ كيف هذا؟ القبر مغلق من الخارج.

ـ حدث مثل هذا في مقابر مشتول السوق، حيث قام بعض «أولاد الليل» بالتعدي بالضرب والتعذيب على واحد كانت له خصومة مع عمدة من تلك النواحي، ثم دفنوه في مقبرة قديمة وأغلقوها عليه، وهرعوا إلى العمدة بالبشرى وطبعًا أخذوا منه الإكرامية و«الإتاوة».

ـ يا دين مُحمد، مُمكن أولاد الليل يعملوها في بلدنا يا مصطفى؟!

ـ ممكن وألف ممكن، نحن في أيام سوداء يا ثريا، الأمن ضاع، واللصوص في كل مكان، وقطاع الطرق في أوج شيطنتهم، والحكومة تغط في الشخير، كانت ثورة عمياء يا ثريا، منه لله مبارك الذي ترك الحبل على الغارب لابنه

وزوجته ورجال الأعمال فأفسـدوا وضيعوا البلد، هو السبب ربنا ينتقم منه، ومـع ذلك فبعـد الثورة أصبحت الأحـوال «زفت وقطـران»، قطعنا الرجاء من الجميع، الإخوان ظهروا على حقيقتهم السـوداء، والمعارضة قليلة الحيلة فاقدة القدرة على التأثير في الناس.

ـ المهم يا مصطفى، ماذا ستفعل في هذه الحوسة؟

ـ أي حوسة؟!

ـ حوسة الناس المدفونين في الجبَّانة.

سـكت مصطفـى قليلًا ثم قال: سـأذهب للعمدة وأحكـي له ما حدث، وهو يتصرف.

ـ وهل سيصحو لك العمدة في هذه الساعة !

ـ أذهب لخالي زكريا.

ـ خالك زكريا مسافر في مأمورية تبع شغله.

ـ ننام والصباح رباح يا ثريا.

ـ حرام علينا يا مصطفى، لأجل النبي، وحياة عظم التُّربة، قم وسأذهب معك.

ـ تذهبين معي !! يا داهية دُقي، هذا هو الذي ينقصنا.

سـادت بينهـا فترة صمـت طويلة ثـم قطعهـا مصطفى قائلًا: سـأذهب وحدي وأتكلم مع من في المقبرة لأعرف الحكاية أولًا.

جرت ثريا على المطبخ ثم عادت وهي تحمل سكينًا.

■■■

ضع هذا السكين يا مصطفى في طيات ملابسك حماية لك، واحمل هذا النبوت، الاحتياط واجب، وإذا وجدت أحدًا من الخفراء في طريقك فخذه معك، وسيسترنا الله بفضله.

اقترب مصطفى من الجبانات ثم أخذ يسير بحذر، وحين وقف أمام القبر المقصود سمع صوتًا يقول: لا يوجد هواء، أكاد أختنق.

جاءه صوتٌ آخر: هذا الحجر ثقيل ليس لنا حيلة في دفعه، تذكر صالح أفعالك حتى يجعل الله لنا فرجًا.

عاد الصوت الأول يقول: لولا هذا الهواء القليل الذي يتسرب إلينا خلسة من الثقب الصغير الذي في جانب المقبرة لهلكنا.

«ناس في ورطة، صدق حدسي إذن، يبدو أن أولاد الليل قاموا بدفنهم في هذا القبر»؛ هكذا قال مصطفى لنفسه ثم صاح: بسم الله الرحمن الرحيم، من أنتم؟

جاءه صوت مكتوم وكأنه صادر من فج عميق: افتح لنا هذا المكان، أنا أحد العمد من مديرية الشرقية ولا أعرف من الذي وضعنا هنا.

تعجب مصطفى: مديرية؟! الشرقية محافظة يا عم الحاج.

- اعمل معروف وافتح لنا سريعًا.

حاول مصطفى أن يحرك الحجر الذي يسد فوهة القبر ولكنه لم يستطع، فخرج من الجبَّانة مسرعًا وأخذ ينظر حواليه، وحين مد بصره للأمام وجد شخصًا يفلح أرضًا ويمهد طريقًا للسقاية: «هذه أرض الفرارجة، وهذا في

الغالـب فايز فرَّاج، فلأذهب إليه»... هكذا قال مصطفى لنفسـه وهو يعدو، وفي لمح البصر كان قد أصبح في نصـف الأرض قريبًا من فايز، جاءه صوت فايز يعروه الفزع: من أنت؟!

وقبل أن يجيب مصطفى كان فايز قد رفع فأسه مهددًا بها.

توقف مصطفى ملتقطًا أنفاسـه ثم قال: اطمئـن، أنا مصطفى الشرقاوي يا فايز.

- خير يا مصطفى، ما الذي حدث؟!

- هات فأسك وتعال معي بسرعة.

- خير، قل لي ماذا حدث يا بن خالتي.

- سر معي فورًا وسأحكي لك في الطريق.

■■■

وأمام القبر أخذ فايز بقوة ساعديه وبفأسه يضرب الحجر الذي في الفوهة حتى شقه، ثم حمل هو ومصطفى الشقين ووضعاهما جانبًا، نظر فايز إلى باب المقبرة الداخلي المبني بالطـوب الأحمر، ما زالت المهمة لم تنته بعد، ثم ما لبث أن قـال: ابعـد يا عم الحاج انـت وهو، كل واحد منكما يأخـذ جانبًا من القبر لأني سأحطم باب المقبرة الداخلي.

كانت عملية صعبة لا شـك في ذلك، إذ إن فايز ومصطفى كانا يسـارعان الزمـن لإنقاذ من في المقـبرة، والغبار المتراكم من عملية هـدم الباب الداخلي

أثـار سـعالًا متواصلًا من أهل المقـبرة، حتى كاد أن يقضي عـلى البقية الباقية عندهما من قنديل الحياة.

دخـل مصطفى وفايـز إلى المقبرة فوجدا رجلين منكفئـين، كانت النحافة هي العنوان الرئيسي لهذين الجسدين المنكفئين فحمل كل واحد منهما جسدًا، وسـحباهما إلى الحياة الدنيا التي هي خارج هذه الظلمة، لم يسـتطع الرجلان السـير، انحنـى ظهراهما، وتقوقعـا، وانثنيا، كانت الأتربـة تعلوهما، والدماء تلوث جسـديهما، وهما بلا ملابـس تقريبًا، كان ابن حنبـل بالحالة التي أخذه منهـا الرصـافي، عاري الصـدر، وعلى نصفه الأسـفل سروال يسـتر عورته، وكذا كان غريب يوسف، عاري الصدر لا يرتدي إلا إزار الحج الذي يغطي من سرته إلى ما بعد ركبتيه، وقد تحول لونه من الأبيض الناصع إلى لون أسود مختلط بحمرة داكنة من أثر التراب الذي علق عليه والدماء التي لحقت به.

جلس الرجلان القرفصاء ثم سرعان ما مال جنب أحدهما فتوسد الأرض يلوذ بها «من التراب جئنا وإلى التراب نعود، أما أرواحنا فهي إلى النور».

وريثـما أخذ كل واحد منهما نفسًـا عميقًا عدة مرات ـ وكأنهما يسـتعيدان الحيـاة التـي كانـت على وشـك أن تنطفـئ ذُبالتهـا ـ كان فايز قـد أحضر لهما قُلـة مـاء، أخذ يلقي بعض ما فيها على وجهيهما، ثـم وضع حفنة من الماء في كفه العريضة ليسـقي الرجلين، وما إن هـدأت الأنفاس حتى أخذ مصطفى يمعـن النظـر في تلـك الوجوه التـي عادت للحيـاة من جديـد، أحدهما كان شـديد النحافـة أسـمر البـشرة لـه لحية مخضبـة بالحناء،يبـدو عليـه الإرهاق

الشديد، والثاني يميل وجهه إلى البياض إلا أن الشمس لوحته، وليست له لحية كالآخر، ويبدو من هيئته أنه أكثر عزًّا من الآخر: «كأنه من أولاد آل يوسف، شكله يدل على هذا» قالها مصطفى لنفسه.

تكوم الرجل الأسمر النحيف على الأرض متأوهًا دون أن يصدر منه أنين، وحين نظر مصطفى إلى ظهره وجد جروحًا عرضية تعلوها دماء جفت: يا ربي ما هذا؟ ما الذي أصابك يا عم الحاج؟ منهم لله أولاد الليل الذين فعلوا فيك هذا.

لم يستطع الرجل الرد، فأجاب الثاني: نحن لا نفهم شيئًا، ولا نعرف هذا المكان مع أنني يخيل إليَّ أنني رأيته من قبل، خذنا إلى مكان يؤوينا ويحمينا أجارك الله.

تقدم فايز إلى الرجل الأبيض الحليق وأوقفه على قدميه ثم أخذ يسنده محيطًا بإبطيه وتحرك به، وفعل مصطفى مثله مع الرجل الأسمر النحيف وهو يقول: أين نذهب بهما يا فايز، هل نذهب بهما للعمدة؟

- نعرف الحكاية الأول يا مصطفى ثم نسلمهما للعمدة، هيا بنا إلى بيتي.

- الأحسن أن نذهب لبيتي يا فايز فهو أقرب من بيتك.

لم تكن المسافة بعيدة وكان الرجل الأسمر صاحب اللحية لا يكاد يرى شيئًا من فرط ما تعرض له، كانت الموجودات التي تحيط به تبدو كأشباح هائمة تبحث عن أجساد تسكنها، ولكن نفس هذه الموجودات بدت غريبة أمام عين الرجل الأبيض حليق اللحية: «البيوت الصغيرة الهشة التي وقع

عليها نظري لم تكن طينية سـوداء، ولكنها كانت مبنية بالطوب الأحمر الذي لم تعرف قرانا مثله إلا في بيوت وقصور الباشوات، يبدو أن هذه القرية آخذة في العمران على غير عادة القرى الأخرى».

كان باب الدار مفتوحًا، ولج مصطفى أولًا وضيفه يتساند عليه، ودخل وراءهما فايز بحمولته البشرية المتكئة عليه وهو يقول: يا ساتر.

هرعـت ثريا إليهم وهي ترتدي حجابها: خـير يا مصطفى، يا رب يكون خيرًا.

بادرهـا مصطفى: أحـضري لنا مـاء وطعاما، الناس مهلوكـة، ولا تنسي مطهـرات الجـروح والمراهم.... ثم دخـل بهما إلى حجرة نـور، تلك الحجرة التي لم يدخلها أحد منذ وفاة هذا الحبيب.

لم ينبـس أحـدٌ مـن الرجلين ببنت شـفة واسـترخى كل واحـد منهما على الأرض ومصطفى يطوي جراحهما خلف المطهرات والميكروكروم،والمراهم، والشاش الأبيض المعقم، كانت جروح الرجل الأسمر كثيرة وبالغة القسوة، أما الرجل الأبيض فقد كان بكفيه وساعديه وساقيه عدة تسلخات وجروح طفيفـة تخلفت من وراء محاولته فتح القبر من الداخل: «وكأنهما أهل الكهف خرجوا إلى الدنيا من كهفهم المظلم لا يدرون شـيئًا عن تلك الدنيا الجديدة، وجوههـم غريبـة، ولكنتهـما مختلفة، كأن هـذا أتى من زمـن والآخر أتى من زمن آخر».

أخذ مصطفى وفايز يوجهان الأسـئلة لهما وهمـا لا يحيران جوابًا، الرجل

الأسمر ينظر إلى سقف الحجرة والذهول قد اعتراه، والرجل الآخر كان ساهمًا شاردًا، وبينما هم على هذه الحالة سمعوا صوت أذان الفجر، فهم فايز بالانصراف ليلحق الصلاة بالمسجد، وقبل أن يغادر قال له مصطفى: نريد أن نذهب للجبانة حتى نسد فوهة القبر، فأنبأه فايز بأنه سيذهب مع ابنيه بعد الصلاة ويقومان بالواجب، وأوصاه بالاهتمام بهذين الرجلين الطيبين.

أيقظ مصطفى ابنه محمودًا وابنته نرجس وطلب منهما الاستعداد للصلاة، ثم عاد للرجلين فأعطى كل واحد منهما جلبابًا من جلابيبه سائلًا: لن أستطيع أن أذهب بكما للمسجد وأنتما على هذه الحالة من التعب، فهل نصلي هنا؟

قال الرجل الأسمر صاحب اللحية وهو يتشرنق في ذهوله: ما هذا الصوت الضخم المتحشرج المفزع الذي وصل إلينا؟ كيف وصل إلينا بهذه القوة والضخامة.

رد مصطفى: أي صوت؟

- صوت الأذان.

زم مصطفى شفتيه وقال: من الميكروفون يا عم الحاج.

- كنت أظنه آتيًا من المسجد، ولكن ما الميكروفون؟

- الصوت آتٍ من المسجد يا حاج ولكن من خلال ميكروفون.

تدخل غريب يوسف قائلًا: الميكروفون هو مكبر للصوت يا إمام، نتكلم أمامه فتصل له أصواتنا فتخرج منه ضخمة تصل إلى أماكن بعيدة.

ـ سبحان الله ! ويخلق ما لا تعلمون.

أصابت الدهشـة مصطفى وقال لغريب يوسـف: هل عم الحاج إمام من أئمة البدو الرحل ، هل جاء من صحراء بعيدة ليست فيها مدنية؟!

قاطعه الإمام: ما علينا، أحضر لنا الماء حتى نتوضأ للصلاة.

ـ إذا كنت تستطيع القيام الآن فقم معي إلى دورة المياه.

نظـر الإمام لغريب وكأنه يسـتفسر منه، ولكن غريبًا قـام من قعدته وهو يتكئ على الأثـاث وتقدم خلف مصطفى فقام ابن حنبل يتبعهما وهو يغالب ضعفه ونفاد قوته، وفي صالة البيت وقف غريب مرتعدًا، وصرخ ابن حنبل: يا رب سلم سلم، يا رب احفظنا من الجان... ثم شهق شهقة قوية مصحوبة بصرخة مكتومة ووقع على الأرض.

■■■

الداهيـــة

بزغ نجم الشـيخ الداعيـة «عطية الكحلوت» قبل أن يسـتقيم عوده، وفي الحقيقـة أن عـوده لم يسـتقم حتى الآن بالرغم من السـنوات التـي قضاها في الدعوة، ورغم أن أصحابه يشـهدون له بطلاقة اللسـان وقوة الحافظة فإنه لم ينل حظًا معتبرًا من العلم.

ولدتـه أمه في قريـة روينة مركز كفر الشـيخ لأب فقـير كان يعمل خادمًا للمسـجد الصغير دائمًا، ومساعدًا للمأذون «الشـيخ فهمي» في أحيان كثيرة،

وكان عم الشيخ رمضان الكحلوت يسترزق بما يجود عليه الخيرون في الأفراح، فضلاً عن المقطوعية التي حددها له أهل البلد نظير خدمته للمسجد، ورغم الفقر الذي كان يرتع فيه فقد فرح فرحًا شديدًا بمولد ابنه، إذ كان قد قطع الأمل في الخلفة بعد أن تزوج مرة ففشل في الإنجاب، ثم طلق الزوجة العاقر وتزوج من قرية «حليس» واحدة من بنات عائلة «السعدوني» المشهورة بكثرة الخلفة، ورغم ذلك تأخرت زوجته «أم الفرج» في الإنجاب حتى كافأهما الله على صبرهما فرزقهما الولد الوحيد،الذي تأخر نزوله إلى الدنيا أسبوعين كاملين فوق موعد الولادة المعتاد.

تأخر رمضان في تسمية الولد أسبوعًا كاملًا، كأنما قدره أن يكون متأخرًا في كل شيء، ولم يكن أحد يعلم أن هذا الوليد سيثأر من الدنيا التي ساومته الفقر والحرمان والتأخر، وسينال قصب السبق على جيله، ليس في القرية فقط، ولكن في كل مصر، بل وفي بلاد أخرى مجاورة.

وفي «السبوع» ذبح رمضان الكحلوت جديًا مهزولًا كان قد ادخره لهذا اليوم وأولم عليه للمرة الأولى والأخيرة في حياته، وأحضر مطاهرًا مشهورًا من كفر الشيخ ليتمم فرحهم ويعطي للمولود شهادة الاعتماد والجودة، بأن يقطع الجلدة الزائدة في عضو الذكورة حتى يصح من بعدها تسميته بأسماء الرجال، كان الاسم ماثلاً في ذهن رمضان، فقد كان هذا المولود عطية من عند الله: «فليكن عطية وليباركه الله لنا، وعلينا أن نُقَبِّل أيدينا على الناحيتين شكرًا وحمدًا لله على نعمته وفضله وجوده، إنه نعم المولى ونعم النصير».

حين استطاع الطفل عطية المشي اكتسب وضعًا جديدًا في البلد إذ أصبحوا يطلقون عليه «داير الناحية» وسبب هذه التسمية أنه كان يدور في القرية كلها، يدخل بيوتها دون استئذان ويحبو على الموائد، ويهجم على أماكن الطعام، دون أن يحفل بأحد ولكنه كان يتلقى في كل بيت ضربًا مؤلمًا إما بالعصا وإما بكف اليد على وجهه، ومع ذلك كان يستمر، فليس في إمكان أحد أن يقف أمامه.

حين بلغ الخامسة من عمره أطلقوا عليه لقب «لحوس» الذي لم يفارقه أبدًا، ولحوس هو الذي يأكل على كل الموائد بعد أن يفرغ القوم من طعامهم فيلحس بلسانه أطباق الطعام، وبذلك وفر عطية لأبيه مؤنة طعامه، وكغيره من الصغار دخل «لحوس» كُتّاب الشيخ الجوهري ولسرعته في الحفظ والتقليد حفظ عن ظهر قلب، بأحكام التجويد، ثلاثة أجزاء من القرآن في ثلاثة أشهر، ولكنه بعدها انقطع عن الكتاب لعجز أبيه عن دفع مستحقات الشيخ.

كان عطية مقلدًا وممثلاً من الطراز الأول، فمنذ نعومة أظفاره كان يجمع رفاق القرية ويأخذ في تقليد خطيب مسجد القرية، فيثير حالة من الضحك والبهجة، وينال شهرة بين الصغار تجعله محط أنظارهم، وكان من عادته أن يتسلل إلى سرادقات العزاء ليشاهد القارئ وهو يجود القرآن الكريم، فيحفظ حركاته، ويراقب سكناته، ثم يأتي إلى رفاقه في اليوم التالي متصنعًا الوقار ثم يجلس بطريقة قراء القرآن ويضع كفيه على أذنيه ويأخذ في القراءة وهو يهز جسده مقلدًا إياهم، وكانت هذه هي الموهبة التي ميزته بين الصغار وأكسبته شعبية.

ومـع ذلـك فإن مسـيرته في التعليم النظامي لم تكن يسـيرة، بل عانى فيها معانـاة شـديدة. لم تكن معاناته من المدرسـين، أو حتى نفقـات التعليم، فقد كان مطيعًـا لمدرسـيه وكان التعليـم مجانيًّا، ولكن معاناة عطيـة تمثلت في هذا الاحتقـار الـذي كان يناله من أطفال عائلة «الحنبـلي» وهي من أكبر عائلات القرية.

كلنـا يظـن أن مجتمع الأطفال هو مجتمـع الأبرياء، ولكـن الأصح هو أنه مجتمع «المشاعر النيئة» التي لم تنضج بعد، لا حدود للملكية الخاصة، قسوة في غـير محلها، خوف متعدد الأبعاد متضخم تصاحبه الخيالات، تهور واندفاع، كل شيء مبـاح، وليـس هناك مـكان للإحجام والتبـصر إلا خوفًا من الكبار وتهديداتهم، ولأن عطية كان مشهورًا بلقب «لحوس» فقد كان يتلقى كل يوم «زفة» وجُرسـة من أترابه إذ كانوا يسـيرون خلفه في الفسحة أو في آخر اليوم الدراسي ويصيحون بنغمات ممطوطة «لحوس، لحوس، ينشـك قلبه بدبوس» ولم تكن شـهرته في التقليد والتمثيل لتشـفع له، لذلك كان لا يلبث أن ينتقم منهم، إذ كان يقسـم لهم أنه لن يجلس معهم أبدًا ليمثل أو يقلد المشـايخ، ثم يقوم خلسـة بالسـطو على حقائبهم ويسـتخرج منها «السندوتشـات» يلتهم بعضهـا ويلقـي البعـض الآخر في الفنـاء الخلفـي للمدرسـة، وكان كثيرًا ما يختلس منهم كراسـات الواجبات فيمزقها، أو أدواتهم فيختزنها لنفسـه، فإذا تم كشف الأمر سيق إلى ناظر المدرسة فينال عقابًا أليمًا يترك بصماته على ظهر كفيه أيامًا طويلة، وعطية لا يترك ثأره أبدًا، فقد خلقه الله ضخم الجثة وتكفل هو بحشـو هذا الجسـد حتى انتفخ وصار ثلاثة أطفال في طفل واحد، فإذا ما

تعرض لعقاب بسبب شكوى من أحدهم فإنه كان ينتظره على باب المدرسة ويثخنه بالضرب والجراح، ولم يكن أحد من تلاميذ المدرسة يستطيع الوقوف في مواجهته إلا عبد الباقي سليل عائلة الحنبلي، فقد كان يناظره في الضخامة ويتفوق عليه في القوة، لذلك كان عطية كثيرًا ما يعمد إلى مداهنته اتقاء لقوته وضرباته المؤلمة.

اجتاز عطية المدرسة الإعدادية بتفوق واضح إلا أنه لم يدخل إلى التعليم الثانوي العام، وإنما دخل وفقًا لأوامر أبيه الصارمة مدرسة التجارة المتوسطة في كفر الشيخ ليختصر تعليمه ويساعد أباه الذي كان قد توقف عن عمله كخادم للمسجد بسبب تقدمه في السن وتغلب الأمراض على جسده الضعيف.

لم يكن لعطية أي صديق إلا إبراهيم حجازي ابن مركز سيدي سالم الشهير بـ«برهومة»، تعرف عليه في مسجد الرحمن بكفر الشيخ وربط الفقر والحاجة بينهما، ومن خلال برهومة تعرف عطية على طريقين متناقضين، طريق المساجد وطريق النساء ! والحق أن مسجد الرحمن كان يعطي عطية مكانة ومقامًا، كان يشعر باعتباره كإنسان وهو يقف خلف الإمام الشهير الشيخ «راضي سلطان» أحد أشهر شيوخ الدعوة السلفية في كفر الشيخ، وكان يرفع قامته إلى السماء السابعة حينما تنتهي الصلاة فيبادر إلى تقديم يده للشيخ مسلمًا عليه، ومع دأبه على الحضور أصبح مقربًا من الشيخ يقضي له حوائجه ويصطحبه في مشاويره للقرى التي يلقي بمساجدها دروسه، يبالغ في تعظيمه أمام الناس وينكب على يديه مُقَبِّلا إياهما حين يقبل عليه، وفوق

هذا وذاك كان يقوم بخدمته أيام الاعتكاف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فييسر له كل ما يريد، وينظف له دورة المياه الخاصة به في المسجد.

وخارج نطاق المسجد كانت الغزوات الغرامية لعطية وبرهومة، ولربما كانت شهوانية عطية بادية في طريقته في ازدراد الطعام، فهو أكول يقلب الطعام في جوفه دون أن يُحسن تذوقه كأنه لن يأكل مرة ثانية في حياته، أما برهومة فقد كان أكيلاً يتذوق الطعام أولًا ويستطيبه ثم يمخر في عبابه، وبنفس الطريقة كانا يتعاملان مع النساء، لم يكن لديهما وقت يضيعانه على الحب والمشاعر الرومانسية، لذلك لم يسلكا هذا الطريق أبدًا، طريقتهما المفضلة هي الفاعلية والسرية والإنجاز، فيذهبان مرة كل أسبوعين إلى الإسكندرية، ومن شارع محمد كريم بالمنشية كانا يتجهان إلى بيت زغلولة، وهي امرأة قوادة، فكانت توفر لهما ما يريدان، حيث يحرص برهومة على انتقاء الفتاة التي سيقضي منها وطره، ولكن الانتقاء لم يكن سبيل عطية،إذ أي امرأة والسلام تصلح للمهمة، لذلك كان برهومة يدفع أكثر من عطية ليستمتع، وعطية يقضي مهمته ولو مع امرأة لا يمكن أن يقترب منها رجل، ولكنه على أي حال سيوفر من نقوده.

كان منطقهما واحدًا، نحن نعبد الله طول الشهر، ونعصاه مرتين في الشهر، هذه قسمة عادلة، لن يغضب الله من هذه المعصية التي لا نقترف غيرها، حتى ولو كانت من الكبائر، فإن الحسنات يذهبن السيئات، ومع ذلك كان ضمير عطية يؤنبه، وخوفه من النار يؤلمه، وكان الخوف يصل معه مداه بعد دروس الشيخ المشتهري التي تروي واقع النار ومن يدخلها، فيأخذ عطية في البكاء

على ما اقترفت يداه، ولكن كان هناك من يهدهد ضميره، الشيخ حسن خادم المسجد، فحينما رأى عطية يبالغ في البكاء همس في أذنه: هوِّن على نفسك يا شيخ عطية، ربنا غفور رحيم، باين عليك كاتم سر كبير.

وفي هذه المرة ضحى عطية لأول مرة بقدر من المال الذي يدخره، ودعا الشيخ حسن إلى أكلة حلويات بالمسمط، وفي المسمط خر عطية حاكيًا، فضحك الشيخ حسن وقال له: أنت صحيح شيخ جاهل؟

– لماذا يا عم الشيخ حسن؟.

– لماذا لم تطرق باب زواج المتعة.

– هذه عند الشيعة يا شيخ ولا تجوز عندنا.

– زواج المتعة أقره سيدنا عبد الله بن عباس، فهل سيدنا ابن عباس شيعة!

– ولكن العلماء لا يجيزون ذلك.

– أقول لك سيدنا ابن عباس تقول لي العلماء !

– إنما أريد أن يطمئن قلبي.

– هناك حل آخر.

– وأنت ذاهب إلى بيت زغلولة خذ معك شاهدين، واعقد على المرأة التي ستنام معها عرفيًا وادفع لزغلولة مهر البنت، والله غفور رحيم.

– ولكني بهذا سأصنع لنفسي جرسة وفضيحة !

- لا جرسة ولا فضيحة، ألا يذهب معك ابن الحجايزة؟

- نعم، برهومة معي في كل مرة، لا أذهب من غيره.

- وأنا سأذهب معكما، وكل واحد منا يشهد على عقد الآخر ، وكله بما لا يخالف شرع الله.

وكان هذا هو الحل الذي أراح ضمير عطية، إلا أن هذا الحل أوقع عبئًا عليه إذ كان يقوم في كل مرة بسداد مهر من يضاجعها، ومهر من يضاجعها حسن «ولكن طريق الحلال مكلف» هكذا كان يخاطب نفسه.

وفي أحد الأيام الأخيرة من شهر رمضان الكريم كان عطية وبرهومة معتكفين، لم يكن الاعتكاف عند عطية عبادة فقط، ولكنه كان عبادة ورزقًا وأكل عيش، فإفطاره مضمون، وسحوره مكفول، لذلك كان هو المتخصص الأكبر في إعداد مائدتي الإفطار والسحور، والإفطار دائمًا يبدأ بالتمر، ثم بعد صلاة المغرب يقوم عطية وبرهومة برص الأواني المليئة بالطعام الذي يحضره المعتكفون والمتصدقون، وكعادة عطية فإنه كان يقوم بعد الفراغ من الطعام بلحس الأواني برغيف خبز، وكان يقول لبرهومة: «هذا هو أطيب الطعام كله ففيه نكهة الطعام الحقيقية».

وبعد صلاة القيام يضع عطية عينيه على أحد الشباب من المعتكفين الجدد من الذين يبدو عليهم اليسار ويهمس في أذنه: ألست جائعًا؟

- بلى، ومعدتي تلح عليَّ بغباء.

- هل معك مال؟

- نعم.

- بالقرب من المسجد يوجد مسمط الرهوان،فلنخرج من الاعتكاف ونذهب إليه لنملأ تلك البطون الخاوية.

- وهل يجوز أن نخرج من الاعتكاف؟

- نعم يجوز لقضاء حاجة الناس.

- ولكننا لن نقضي مصالح أحد، سنأكل فقط!

- أوَ لسنا ناسًا؟

- بلى.

- أوَ ليس الطعام مصلحة لنا؟

- بلى، إذن المسألة واضحة يا أخي، أنا خارج لقضاء مصلحتك وأنت خارج لقضاء مصلحتي ونحن بذلك نعمل في سبيل الله، بما لا يخالف شرع الله.

وبين المرق ولحمة الرأس والفشة والكوارع كان عطية يسبح باستمتاع شديد وكأنه يسبح في البحر الأحمر، إذ كان يخرج من هذه الغزوة وجلبابه قد أخذ نصيبه من المرق والفتة ولحمة الرأس، ولحاويس الطعام، وفي ذات الوقت يكون جيبه قد نجا من دفع نفقات هذا الطعام، فالمعتكف الغر الجديد يقع في المصيدة ويدفع إلا أنه كان لا يكررها مرة ثانية فيبحث عطية عن غيره، وهكذا دواليك تتكرر «غزوة الكوارع» ـ كما كان يطلق عليها ـ ويستمر في نصب حبائله وخيوطه ليصطاد الغافلين الحمقى كما يصطاد العنكبوت

الذباب، وله في ذلك نوادر قد يسـجلها التاريخ يومًا في موسـوعة الطفيليين تحت اسم «الحوس الطفيلي».

عُـرف عـن عطية أنـه كان مهـذارًا كثير الشـغب، ولكن هـل كان متدينًا حقيقيًـا؟ لا يسـتطيع إنسـان أن يدخـل في ضمير أحد فيحكم على مشـاعره الدينية، إلا أن عطية وفقًا للظاهر كانت له لحاويس من مشاعر دينية متبقية في قعر قلبه ولكنها مختلطة بمشـاعره الدنيوية، فكان غالبًا ما يبكي بكاءً حقيقيًّا في دعـاء ليلة القدر خاصة عندما يتدفق الشـيخ راضي في الدعاء، ولكنه بعد الصلاة سرعان ما يعود إلى هذره مع رفاقه كأنه لم يبك قط، وفي إحدى الليالي كان الشـيخ عبد اللطيف مشتهري إمام أهل السُّـنَّة هو ضيف درس الثلاثاء وألقى محاضرة مرهفة تمس شـغاف القلوب عـن الجنة والنار، وحين وصف أهوال يوم القيامة وعذاب النار إذا بالحضور ينخرطون في البكاء، فما كان من عطية إلا أن انساح في البكاء والنشيج.

ولكـن الديـن كان عند عطية دنيا، وآفة المتدين أن يختلط دينه بدنياه، فهو لم يكـن منتميًـا لعائلة لها اعتبار، فعائلته من أضعـف عائلات البلد وأفقرها، وكان والـده دائمًا ما ينتحل لنفسـه أمام الأغيار نسـبًا يمتد إلى الرسـول ﷺ، فـكان يقـول: إننا ننتمي لعائلة «الكحلوت» التي في غزة والتي ينتهي نسـبها للرسـول ﷺ، وقـد جـاء جدنـا من هنـاك في تجـارة في أواخر القرن التاسـع عشر فاسـتوطن كفر الشـيخ عندما كانت تتبع مديريـة الغربية، ثم تزوج من عائلـة «الفار» أكبر عائلات مطوبس وجاء بجـدتي إلى «روينة» فأصبحنا من أهلها».

ولكن المعمرين من أهل القرية كانوا يكذبونه وهو لا يني[1] يروي حكاية نسبه وأصله ثم يختم كلامه بقوله: «نحن أصحاب نسب، ولنا شأن كبير» وعلى خطى أبيه وقضبان قطاره سار عطية، إلا أنه كان يتزيد ويبالغ فيقول لمن لا يعرف أصله وفصله: أبي هو الداعية الشيخ رمضان الكحلوت الإمام الثقة المحدث، وهو من أصدقاء الشيخ الألباني، وينتهي نسبنا إلى جدي رسول الله ﷺ، وأنا - والحمد والفضل لله وحده - عضو الجمعية الشرعية، وجمعية أنصار السنة، ومن تلاميذ الدعوة السلفية، وقد اصطفاني شيخي الإمام المحدث «راضي سلطان» وجعلني مُنظم مواعيد دروسه وخطبه ومحاضراته، وبعد أن ينتهي من سرد تلك السلسلة التي تعطي له اعتبارًا لدى من يحدثه يأخذ نفسًا عميقًا وينظر للأرض وكأنه يتواضع.

كان اقتراب عطية من الدين اقتراب الذي يبحث لنفسه عن نسب وقيمة واعتبار، وليس اقتراب الباحث عن الحقيقة أو المندمج في حب الله، لذلك لم تكن رقائق الترغيب هي التي تجذبه، فالترغيب إنما هو باب المتدينين تجارة الذين يقول لسان حال تدينهم «سنعبدك يا ألله ولتعط لنا الجنة ثمنًا للعبادة، وهل هناك أفضل من التجارة مع الله؟ والتاجر بسليقته لا ينظر إلا إلى الصفقة وقيمتها والربح الذي سيربحه من ورائها.

وغلامنا عطية عَبَدَ اللهَ تجارةً، ثم جمع مع عبادة التجار، عبادة العبيد ومنطقهم؛ إذ إن نفسية العبد هي التي كانت تتحكم فيه وفي سلوكه الشخصي،

(1) لا يني: لا ينفك.

فكانـت فرائصه ترتعـد فرقًا من رقائق الترهيب والوعيـد والعذاب،وكانت آيات الخلود في النار تفتت كبده وترجف قلبه، ولكن الأمر في نفسيته الدفينة كان يحمـل بُعـدًا آخـر يتلخص في أنـه عاش زمنـه المنصرم عـلى حلم واحد لا يغـادره، هـو أن ينتقل من مرتبة الدونية إلى مرتبة الأسـياد، وها هو الدين يسـوي بين البشر، بالدين ينال الأغمار مكانة النسـب وادعاء العلم، أما عن النسب فقد وضعوا له نشيدًا يقول:

ياأخي في الهند أو فـي المغربِ	أنـا منـك أنـت منـي أنت بي
لا تسل عن عنصري أو نسبي	إنـه الإسـلام أمـي وأبـــي

أمـا ادعـاء العلـم فيكفي أن يشـيخه النـاس، ويرتـدي الغطـرة والعدبة والجلبـاب، ويحفـظ افتتاحية الخطب وبعض الأحاديث بسـندها، ثم يصرخ زاعقًا من فوق المنبر.

في الدين لا فرق بين غني ولا فقير، شريف أو وضيع، أبناء أكابر عائلات الحنبـلي والطبَّاخ والحجايزة مثل ابن الكحلوت (قدم بقدم وسـاق بسـاق)، ويكون الأمر أكثر ترضية لنفسـية ذلك العبد عندما ينتمي إلى جماعة دينية لها اعتبارها واسـمها وتاريخها، فيكون قد صنع لنفسـه عائلة ذات مجد وتاريخ، وبدلًا من أن يقول: أنا ابن الكحلوت فإنه سيقول: انا ابن الجماعة.

لذلك ما إن قال له برهومة ذات يوم: هل تعرف عبد النبي بطيخ؟

- نعم، ما له؟

- هل تعرف أنه ينتمي للإخوان المسلمين؟

- لا، لا أعرف هذا.

- اليوم دعاني لحضور مقرأة في بيته وقد استأذنته في أن تكون معنا في المقرأة.

- ألا يمانع أبوه في هذا؟

- نعم يا غبي فأبوه هو أحد قيادات الإخوان في كفر الشيخ، وابنه عبدالنبي يعمل مع شباب الجماعة في استقطاب شباب جدد.

- ومتى تعقد هذه المقرأة؟

- اليوم بعد صلاة العشاء.

كان ابن عم الشيخ كحلوت حريصًا على الالتحاق بالجماعة والاستمرار في أروقتها، فهي التي ستدخله إلى اعتبار اجتماعي جديد، لذلك كان حريصًا على إرضاء عبد النبي بطيخ، وكان أحرص الناس على التودد للأستاذ عودة والده، موجه اللغة العربية وأحد المقربين من الأستاذ عمر التلمساني مرشد الإخوان.

اجتاز عطية المواقف الإخوانية التي تعرض لها، والتي يدخلونه فيها دون أن يعرف أنها اختبارات لولائه وطاعته، إلا أنه كان يدرك بغريزته أنه الآن يُمتحن، فكان يبالغ في تنفيذ الأوامر مهما تكن شاقة أو غريبة.

وعندما أصبح عطية في نهاية دراسته المتوسطة كان قد أصبح عضوًا منتسبًا بالإخوان وهي عضوية تسبق العضوية الكاملة، ولكن توفر له الوجود في أسرة إخوانية حقيقية، والتبعية لنقيب يوجهه ويرشده لطريق الطاعة والتبعية، وبعد عامين من تخرجه أصبح عضوًا بالجماعة في أول درجات العضوية الكاملة، تلك الدرجة التي يلتزم فيها العضو بسداد

اشـتراك شـهري، وحين علم عطية بقصة الاشتراك الشهري هذه أصابه الهم والغم، فهو بالكاد يكسـب نفقاته من وراء مساعدة أحد الباعة الذين يقفون أمام سور المسجد ويبيعون الكتب والأشرطة، فكيف وايم الله يدفع من تلك القروش شيئًا للجماعة! وكم هو المقدار الذي يجب أن يلتزم بسداده !: ثمانية بالمائـة مـن إجمالي دخله كل شـهر، هكذا قـال له نقيب أسرته، وقتها سـكت وأومـأ برأسـه علامـة الموافقة أو الدهشـة، وفي اليـوم التالي طلب مـن نقيبه عبدالنبي بطيخ أن يذهب به إلى مسـئول الشُّـعبة لأمر هام، فسـأله نقيبه عن سبب طلبه هذه الزيارة ولكن عطية رفض أن يفصح عن السبب.

- لكن يجب أن أعرف السبب يا أخ عطية، هذا هو المتبع.

- والله أنا مكسوف يا أخي ومحرج بعض الشيء وأريد أن أختلي بمسئول الشعبة لأمر عائلي.

- كلنـا في الإخـوان عائلـة واحدة يـا أخ عطية، ونحـن في أسرة واحدة، عائلتنـا الكـبرى هي الجماعـة، وكل واحد فيهـا أخوك حتى السـادة أعضاء مكتـب الإرشـاد وليس هنـاك أمر سيخفى عليَّ فما سـتقوله للأخ المسـئول سأعرفه فورًا.

استسلم عطية وأخبر نقيبه عبد النبي بما يريد، وعند مسئول الشعبة جلس عطية متحرجًا على حافة الأريكة، وبدأ الحديث وهو يطأطئ رأسه ويخفض صوته:

ـ لن أستطيع يا فضيلة الأستاذ أن أسدد الاشتراك الشهري.

ـ لمـاذا يـا أخ عطية؟ أنت تعمل في بيع الأشرطـة والكتب وهذه مهنة تدر ربحًا معقولًا.

ـ أنـا بالكاد أنفق هـذا المبلغ على أمي وأبي، فأبي كان إمامًا لمسـجد القرية واعتـزل لكبر سـنه وضعف جسـده وتواطؤ الأمراض عليـه، وأمي مريضة ونفقاتها كثيرة.

والحـق أن عطيـة كان يكذب، فهـو لم يشـارك في أي مصاريف أو نفقات لأسرتـه منذ أن بدأ يكسـب قوته، حتـى نفقاته الخاصة كان يمـد يده إلى أبيه بشأنها.

واسـتطاع عطية بطريقته الخانعة الذليلة ومسـكنته الزائفة أن يحصل على إعفاء من سداد الاشتراك الشهري، وبذلك تخلص من عبء نفسي ثقيل، فهو لم يكن يتصور أن تخرج ملاليم من جيبه لتذهب إلى غيره مهما يكن السبب.

اسـتقامت عضوية الإخوان لعطية وخضعت لخضوعه، وقد بز بعضويته هـذه صاحبه برهومة الـذي كان لا يزال في درجة «المُحـب» وهي درجة من درجات البداية المبكرة للجماعة وقد يظل الأخ فيها عمره كله.

ومـع عضوية عطية للإخـوان فإنه ظل من المترددين على دروس الشـيخ راضي سـلطان السـلفي وأحد رفاق الشـيخ أسـامة عبـد العظيـم أحد كبار الدعـوة السـلفية، كان الـدرس الأول ينعقد بعد صلاة المغـرب يوم الجمعة ويمتد إلى ما بعد رفع أذان العشاء حتى ينتهي الشيخ من درسه فيقام للصلاة ومن بعد الشـفع والوتر ينصرف المصلون، ويهرعون إلى سور المسجد لشراء شرائط كاسـيت خطب الشـيخ عبد الحميد كشـك، وخطب الشـيخ أسـامة عبد العظيم، وكتيبات منسـوبة للشـيخ ناصر الدين الألبـاني، هذا غير كتب

عذاب القبر وأهوال يوم القيامة، والصارم البتار، والثعبان الأقرع، والنقاب فريضة.

الدرس الثاني كان يوم الثلاثاء بعد صلاة العشاء وكان غالبًا ما يستضيف فيه الشيخ أحد شيوخ الدعوة السلفية، الشيخ المحلاوي من الإسكندرية أحيانًا، والشيخ أسامة عبد العظيم من القاهرة أحيانًا أخرى، وكانت كفر الشيخ عن بكرة أبيها تجتمع في الجامع وخارجه عندما يأتي الشيخ «عبدالحميد كشك».

وآنذاك كان عطية يقف بين منطقتين.. منطقة السلفيين ومنطقة الإخوان وفي الحقيقة لم يكن يشعر بفارق كبير بينهما، كل ما في الأمر أن السلفيين يلقون دروسًا متخصصة في صحيح البخاري ومسلم ومسند الإمام أحمد بن حنبل، في حين أن هذه الأشياء لا يعرفها المنهج الثقافي والتربوي للجماعة، غاية ما في الأمر أنه كان في الإخوان يلتزم بحفظ الأربعين النووية، مع دراسة كتاب العقيدة الطحاوية، وكتاب فقه السيرة للشيخ سعيد رمضان البوطي، والاجتهاد في حفظ عدة أجزاء من القرآن هي «قد سمع»، و«تبارك» ثم جزء «عم» وهو من هذه الناحية متميز فقد كان يحفظها منذ أيام الكُتَّاب عن ظهر قلب، والإخوان لهم تنظيمهم الهرمي المتراكب في حين أن السلفيين لهم حلقات العلم.

وفي أحد أيام الثلاثاء وبعد أن فرغ الضيف الشيخ المحلاوي من درسه، التف حوله عدد كبير من المصلين يستفتونه في أمور الدين والشيخ منهمك في الفتوى، وعطية يهم بالانصراف سريعًا للوقوف على «فرشة الكتب والشرائط»

التي بخارج المسجد، حينئذ نده عليه الشيخ راضي سلطان، فهرع إليه مسرعًا، أخذه إلى حجرته بالمسجد، وبدون سابق إنذار استدار الشيخ ولطمه على وجهه لطمة صارخة زاعقة فأوقعته على الأرض من فرط المفاجأة.

■■■

اذهب إلى الله طائعًا حرًّا، ولا تذهب إليه مجبرًا، اذهب إلى الله لأنك تحبه، ولا تذهب إليه مرغما، ما قيمة أن تعبد الله لأنك تخافه وتخشى ناره! الخوف ليس عبادة،الخوف رهبة ووجل وفزع، فهل يفزع المحب من حبيبه! فإذا نجاك الله من النار فمن تعبد يا مسكين؟ وإذا كبك في النار فهل ستنقم منه وتبغضه ! الحب فقط هو العبادة.

اذهب إلى الله لأنك تريده هو، لا من أجل جنته، حين تعبد الله من أجل الجنة فأنت تعبد الجنة، فإذا وهبك الجنة فهل ستتوقف عن عبادته؟! تعس عبد الجنة.

■■■

من اليوم مسجدي هذا محرم عليك إلى يوم الدين. هكذا قال الشيخ راضي سلطان لعطية الكحلوت بعد أن لطمه بقسوة وغل.

بُهت عطية، لطمة مدوية على الوجه ! وطرد أبدي من المسجد! قال وهو يغالب دموعه: لماذا يا مولانا؟ ماذا فعلت لأنال منك هذا؟!

– دخلت الإخوان من دون أن تخبرني، والإخوان جماعة ضالة، تميل للرخص وتعمل بالسياسة، وعقيدتها أشعرية.

- يا مولانا أنا سـلفي ابن سلفي، ونقيب الأسرة يقرأ لنا من كتب الشيخ العالم محمد سعيد رمضان البوطي.

- نهـارك أسـود من قرن الخروب، هل تعتـبرون البوطي شـيخًا وعالمًا، البوطي هذا يا جاهل لا يسـاوي قلامة ظفر الشيخ الألباني، والله لو دخلت إلى هذا المسجد لجعلتهم يضربونك حتى تصاب بالكساح.

- أريد أن أعرف يا مولانا من الذي أخبرك بانضمامي للإخوان؟

- أتحسـب أنني أنام على أذني فلا أسـمع، وأغمض عيـوني فلا أرى! أيها الغـر الأحمـق أنا أعرف كل شيء يحـدث في البلد، حتى خبيئـة إبليس أعرف مكانها.

- تمهـل يـا مولانـا، أنا في الإخوان قد أقـوم بدور هام ينفعنا، كأن أنسـق بيننا وبينهم في بعض المواقف، أو أتوسـط لأجعل شـيوخنا هم خطباء صلاة العيد في كل ساحات كفر الشيخ الكبرى، وأشياء مثل هذه كثيرة، كما أن قربي من فضيلتك سـيجعل لي مكانة عالية عند الإخوان تمكنني من تسهيل كل ما نريده منهم.

وعقـب أن قال ذلك نهض قائمًا وأمسـك بيد الشـيخ التـي لطمته وقبَّلها ابتغـاء الرضـا، كانـت هـذه هي الملكـة التـي يجيدها عطيـة، يأخذ مـا يريده بالخضـوع والذلـة والمسـكنة، إلا أنـه حين يتمكـن ينقلب إلى شـخص آخر لا يمكن أن يكون هو نفس الشـخص الأول، ولكن هل كان عطية متمسـكًا إلى هذا الحد بالدعوة السـلفية وشـيوخها؟ أقول لك الحـق: لم يكن يهتم بهم

إلا بمقـدار مـا يأخـذ منهم، وقد اكتسـب منهم الكثير، أطلـق لحيته وأصبح رواد المساجد يطلقون عليه لقب «الشيخ» وكان في ذات الوقت قد تم ترقيته لمكانته عند الشيخ فسمح له بامتلاك فرشة كتب، وأشرطة، وجلابيب، وغطر وطواقٍ، وأحجبة وروائح ومسـاويك، وقـد أتاحت له هذه التجارة الرائجة الفرصة لاكتناز قدر أكبر من المال بالرغم من الإتاوة التي يدفعها - مثل كل أصحاب الفَـرْشـات - للشـيخ راضي سـلطان.وتغلب عطية بمنطقه على شـيخه، فوافقه وعفا عنه، وجمع عطية بذلك بين السـلفية والإخوانية، وكان هذا الجمع هو أحد الفتوحات التي مرت على حياته حتى إنه كان يطلق عليه عندمـا يدخل في هذرٍ مـع صديقه برهومة: «هذا هو الفتـح الرباني في الجمع بين السلفي والإخواني».

وانفتح كثيرٌ من الأبواب للشيخ عطية، وكان الفتح الأكبر يوم أن توسط له الشـيخ راضي لدى الشـيخ خميس كبير فتوات مسـجد عين الحياة بحدائق القبـة بالقاهـرة، نعـم كان مسـجد عـين الحياة الـذي يخطب فيه الشـيخ عبد الحميد كشك هو قبلة المصلين من القاهرة ومن المحافظات القريبة والبعيدة، لذلـك كانت له فتوات وكان الشـيخ خميـس هو كبير هـؤلاء، وكان عملهم ينحـصر في تنظيم أماكن أصحاب الفرشـات،ومنع الخناقـات بينهم، ومنع دخـول أي بائع جديد حتى لا يزاحم القدماء، إلا إذا دفع هذا الوافد الجديد مبلغًا معتبرًا، ولكن الشـيخ عطية دخل إلى عالم فرشـات مسـجد عين الحياة بدون أن يدفع قرشًـا واحدًا، فقط بواسطة من الشيخ راضي سلطان، على أن يدفع الإتاوة المقررة شهريًا.

يوم واحد فقط هو الذي يضع فيه عطية فرشته، هو يوم الجمعة من الصباح الباكر إلى ما بعد صلاة العصر، كان هذا هو القدر الذي سمح له به الشيخ خميس، وبذلك أصبح لعطية وقت فراغ كبير، ولأنه كان من الإخوان المسلمين فكان أن عمل بائعًا وموصلاً للطلبات في حانوت بقالة كبير في مدينة نصر مملوك لأحد الإخوان، ومن حسن حظه أن سمح له صاحب هذا الحانوت بالمبيت فيه، فمنها حراسة، ومنها مأوى، والله يحب المحسنين.

أكبر شيء استفاده عطية من القاهرة - مع المال الذي اكتنزه - هو أنه قرأ كتيبًا صغيرًا للشيخ الألباني عن صفة صلاة الرسول ﷺ، ثم حفظه (صم)، وفوق هذا وذاك اكتسب صداقة الشيخ خميس بطريقته الخانعة الخاضعة الذليلة التي يتقنها، وكان طريق الشيخ خميس مفروشًا بالورود والفرص، ففي نهاية أحد أيام الجُمَع قال له خميس قبل أن يغادر: عندي لك فرصة طيبة.

- خير يا مولاي؟

- عمل في السعودية، كاتب حسابات في مستوصف طبي بالمدينة المنورة، ومن خلال شيخ يمني سأعطيك بياناته، ستعمل على فرشة هدايا وروائح محمدية في مكان مميز بالقرب من المسجد النبوي.

- ربنا يبارك فيك يا مولاي.

- ولكي تكون البركة كاملة ستدفع لي ألف جنيه عندما أعطيك التأشيرة.

- ألف جنيه ! يا دين النبي، هذا المبلغ ليس في إمكاني يا مولانا.

- في إمكانك ونصف، وإذا لم يكن في إمكانك فغيرك يقدر.

أطرق عطية قليلًا ثم قال للشيخ خميس: سأستخرج جواز السفر وأعطيه إياك، ثم سأذهب للبلد لمدة أسبوعين، وربنا يسهل لي حتى أستطيع الوفاء بالمبلغ المطلوب.

وحين دخل على أبيه في قريته «روينة» بعد فترة غياب، أعطاه هدايا انتقاها له عبارة عن مسواك، طاقية رأس، قنينة رائحة، سبحة، وأعطى أمه تربيعة مزينة بالترتر وطرحة، فرحت أم الفرج بهديتها فرحة طاغية، فقد كانت أقل الأشياء ترضيها وتبعث البهجة في نفسها، وضحك الأب رمضان الكحلوت وهو يقول: ما شاء الله، ما شاء الله، إنت سافرت للعمرة؟

- إن شاء الله نسافر معًا، ربنا يكتبها لنا يا أبي.

- غبت عنا كثيرًا، لا حس ولا خبر.

- المشغوليات يا أبي، أنا كدحت كثيرًا لكسب العيش وتحصيل العلم.

- أي علم؟!

- العلم الشرعي، أنا جلست على كبار الشيوخ، وكلهم أحبابي.

- طيب يا سيدي، يا ليت ينوبنا من الطيب نصيب.

- أنا نويت ألقي دروسًا في المسجد يا أبي.

- أي مسجد؟

- مسجد البلد.

– يا بني غنِّ بعيدًا عن هنا، زامر الحي لا يطرب، وكل شجرة ولها بلبلها.

– إن شاء الله أهل البلد سيسمعون كلامًا جديدًا، لم يسمعوه من قبل.

– ربنا يفتح لك يا بني أبواب النجاح.

– هناك موضوع أريد أن أكلمك فيه يا أبي

– خير يا عطية!

– أنا مسافر بعد شهر.

– أين يا عطية؟

– السعودية، واحد صاحبي وجد لي عملًا في مستوصف طبي بالمدينة.

– وما هو هذا العمل؟ طبيب أمراض مستعصية؟!

– لا وانت الصادق، طبيب حسابات مستعصية.

– يا ولد بطّل لكاعة، هل ستعمل فرّاشًا تنظف الفرش وتقدم الشاي والقهوة؟

– لا يا أبي، سأكون في وظيفة أعلى من ذلك كثيرًا، كاتب حسابات مُعتبر.

طمأن عطية أباه على الوظيفة المقبلة، ووعده بإرسال مبلغ شهري يفي باحتياجاته وأمه، ثم باغته قائلًا: أريد ألف جنيه سلفة.

– من أين؟! عد غنمك يا جحا.

– مِن ثمن بيعك للقيراطين، بأمارة الصندوق الحديد الموضوع تحت سريرك.

- مدخرهم ليوم موتي.

- سأردهم لك يا أبي خلال سنة.

- موت يا حمار على ما يجي لك العليق، أنت مدين لي بثمن الجدي الذي ذبحته لك يوم مولدك.

وهنا قام عطية واقفًا وأسرع نحو حجرة أبيه وهو يقول: سآخذ المال برضاك أو من غير رضاك.

فقام الأب صائحًا مهرولًا خلفه، استدار له عطية ثم نظر إلى أحد الجوانب فوجد نبوتًا فأمسكه ورفعه رفعة الاستعداد للبطش، وأم الفرج التي لم يحسب أحد حسابها أخذت تولول وترقع بالصوت.

■■■

الزمكان

استدار مصطفى الشرقاوي عائدًا على صرخة الرجل الغريب الأسمر، فوجده واقعًا على الأرض، والرجل الآخر واقفًا وهو يحملق ويبحلق في شيء ما في ركن الصالة، والزوجة ثريا تطل برأسها من حجرتها على هذا المشهد الغرائبي.

- ما الذي حدث يا عم الحاج؟!

لم يلق مصطفى إلا صمتًا، فجلس بجوار الرجل الأسمر فوجده يحدث نفسه همسًا: يا رب سلم سلم.

أسرع مصطفى إلى المطبخ وأحضر كوبًا من الماء، رش بعض ما فيه على وجه الرجل الخائر المتهافت، ثم سقاه شربة، واعتدل واقفًا وأجلس الرجل الآخر الذي كان لا يزال يبحلق في ركن الصالة، فأخذ يتتبع بصر هذا المبحلق، فلم يجد شيئًا غريبًا، أو مفزعًا، فقط كان جهاز التلفزيون مفتوحًا على صلاة الفجر والشاشة تنقل وقائعها.

- اهدأ يا عم الحاج، لا تخف، هل سمعت شيئًا مريبًا؟ هل تظن أن أولاد الليل يتتبعونكما؟

اتكأ الرجل الأسمر على مرفقيه قاعدًا وقال بصوت هامس مرتعش ونفسه يتردد اختلاجًا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾، ثم أخذ يحرك لسانه بسرعة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ وأخذ يكررها مرات ومرات ومصطفى يهز رأسه ويزم شفتيه حيرة.

- اهدأ يا عم الحاج، خير إن شاء الله، قل لي ما الذي أصابك؟

- لقد رُوِّعت يا رجل.

- روعت !

- نعم لم يصبني روع مثل الذي أصابني الآن.

- ما الذي روعك يا حاج؟

- أدْخَلَ هذا الشيء - وأشار إلى التلفزيون - الروع في قلبي، هذا من عمل الجان.

- لا يا حاج، هذا من عمل شركة النصر.

- ما معنى ما تقول أيها الرجل؟

- هذا تلفزيون يا سيدنا.

- وما التلفزيون؟ وكيف دخل إليه هؤلاء الناس؟ وكيف هم بهذا الحجم الصغير؟

قام ابن حنبل واقفًا واقترب من الجهاز بحذر، وأخذ يفحصه بعناية، وغريب يوسف ينظر إلى التلفزيون وهو يمعن الفكر، ثم قال لمصطفى:

- هل هذا راديو حديث؟

- لا يا حاج، هذا تلفزيون صناعة مصرية، يبدو أنكما من الصحراء ولم تدخلا مدينة أو قرية في حياتكما.

رد ابن حنبل: أنا من بغداد ولا توجد مثل هذه الأشياء عندنا.

- يا سلام يا سيدنا، بغداد ! أهلًا وسهلًا، لكن بغداد فيها تلفزيونات وسينما، وكومبيوتر وكل شيء، إلا إذا كان صدَّام قبل أن يُعدم قام بإلغاء هذه الأشياء، بطلو ده واسمعو ده.

بتردد وانتباه قال ابن حنبل: صدَّام ! أنت تهرف بأشياء لا معنى لها، أنا أسأل عن هذا الصندوق العجيب، هل هو من العلم الذي أعطاه الله آصف ابن بارخيا، نقله لكم؟

قال مصطفى وقد افترَّ ثغره بابتسامة لأول مرة منذ وفاة ابنه نور: من آصف بن بارخيا هذا؟! صاحب شركة سامسونج!

ـ ما هذه الكلمات الغريبة التي يلوكها لسانك؟ آصف بن بارخيا يا رجل هو العبد الذي كان في حضرة سيدنا سليمان، وقد أعطاه الله علماً من الكتاب، فأحضر به عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه.

تدخل غريب يوسف: يبدو أن العلم الذي عليه الناس في هذا الزمن فوق عقولنا نحن، وهم يعقلونه، وما قد يعلمه الناس بعد مائة عام قد يكون فوق عقول أبناء هذا الزمن، ولكنه سيكون معقولًا عند أبناء زمنه.

رد مصطفى: والله ما فهمت شيئًا!

قال ابن حنبل: اشرح لنا هذه الأشياء كأننا أتينا لك من زمن آخر ولا نعرف شيئًا عن زمنكم ومستجداته، ثم قل لي، ما هذا المصباح الغريب الذي يتدلى من سقف الحجرة؟!

رد غريب سريعًا: هذا مصباح كهربائي يا إمام، كان موجودًا في زمني ولكنه لم يكن قد دخل قريتنا.

تحير الإمام ابن حنبل، إلا أن مصطفى حسم الأمر: نتوضأ ونصلي أولًا ثم نتحدث براحتنا.

أمَّ ابن حنبل الصلاة، وفيها خشع قلب مصطفى خشوعًا لم يقترب منه من قبل، رق قلبه وانتفض وكاد يقفز من قفصه الصدري: «ما هذه الحلاوة التي تغمرني؟ ما هذا الخفقان اللذيذ الذي يداعب قلبي؟ هذه صلاة لم أصلها من

قبل، يبدو أن هذا الشيخ من أولياء الله الصالحين، أنا أصلي الآن خلف ولي، هذه هدية مباركة أعطانيها الله ليؤنس قلبي ويمسح وجيعته».

فرغوا من الصلاة ولكن الصلاة لم تفرغ من قلوبهم، كان صوت ابن حنبل نديًّا، قرأ القرآن كأنه يتنزل عليهم الآن، أفرغ مصطفى وجيعته بالبكاء، وانساح معه غريب يوسف وكأنه يهيم في دنيا غير دنيا الناس «هذه هي دنيا النور».

وفي مطبخ الدار كانت ثريا تعد صينية الإفطار، وإذ أقيمت الصلاة أخذت تسترق السمع فوصل إلى كيانها كله القرآن الذي كان يقرؤه الإمام في الصلاة، كان يقرأ من سورة النمل، كان صوته نديًّا خاشعًا ملهبًا المشاعر، وحين وصل إلى موضع من القراءة صدح فيه بقوله تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ﴾ وجدته يقرؤها بطريقة لم تعهدها من قبل، إذ نطق كلمة «نملة» كأنها أصغر أو أتفه شيء في الكون، ثم كرر الآية فنطق «نملة» وكأنها أكبر شيء في الكون، ما باله ينطقها هكذا؟ هل يقصد أنه «يوضع سره في أضعف خلقه» فجمعت النملة بين قمة الضعف وقمة القوة في آن واحد، وهكذا نكون نحن، قد تجعلنا طاقات الإيمان أقوى مما نتصور أو يتصور أحد، وقد يسقط بنا الإحباط وانعدام الإيمان إلى مدارك الضعف والهوان وقلة الحيلة. ليس القوي من بني الإنسان هو قوي الجسد، أو قوي الشكيمة، فالزمن يمر علينا فيحيل القوي ضعيفًا قليل الحيلة خافت الأثر، والمرض يغزونا فيحيل الصحيح مريضًا، هو الزمن الذي يفعل بنا الأفاعيل، ولكن هو الإيمان الذي يرتفع بنا ويرفعنا، ويمسح بحلاوته على قلوبنا، فلا نحمل همًّا ولا نأسى على ما جرى لنا.

اطمأن قلب ثريا، هؤلاء الناس من أهل الله وخاصته، تبدو الطيبة عليهم، فكان أن أسرعت وأعدت لهم صينية الطعام، وإذ تحينت دخولهم إلى حجرة نور طرقت باب الحجرة وتركت الصينية على الأرض، ثم شعرت بالإنهاك ينهل من قواها فتركت ما كانت عليه من توجس وخيفة وذهبت تأوي إلى فراشها بعد أن استودعت زوجها مصطفى.

قبل أن يفتح مصطفى باب الحجرة قام ملهوفًا على الإمام، سلَّم عليه وأمسك كفه بقوة وانكب عليها مُقَبلا، ثم جثا على ركبتيه وقبل رأسه.

شعر غريب يوسف أن المكان انداح بهم واتسع، كيف تكون الدنيا ضيقة على سعتها، تكون ضيقة إذا افتقدنا الإيمان، وتتسع مع رحابة إيماننا، لذلك كانت صالة بيت مصطفى التي شهدت ركوعهم وسجودهم شديدة الاتساع في نظر غريب الذي قال: أشهد يا إمام أنني ما صليتُ قبل هذا اليوم قط، أنت جعلت لصلاتي معنى وأيقظت مداركي وجوارحي، كانت شجرة إيماني ميتة، فبث الله فيها الحياة، فاهتزت وربت..... ثم أخذ ينشد وهو ينشج:

عرفتُ الهوى مذْ عرفتُ هواكا

وأغلقتُ قلبيَ عمَّن سواكا

وقمتُ أناجيكَ يا منْ ترى

خفايا القلوبِ ولسنا نراكا

كان ابن حنبل في حال أخرى، ووجدانية فريدة، أذهلته عن غريب ومصطفى، وهكذا كان هو في كل صلاة، ينقطع عن الدنيا وما فيها ويعيش

وجدانه في عالم شكّله لنفسه من الوجد والصبابة، عادت إلى ذهنه أيام بغداد ولياليها عندما كان ينظر إلى السابلة الذين يمرون في الطرقات أمام داره أو أمام المسجد، ويقول لنفسه: «والله إني لأشفق على هؤلاء الذين لا يدركون اللذة التي أنا عليها، ولا يستشعرون في قلوبهم حلاوة مثلها، لو علموا لجاهدوا من أجل الحصول عليها».

وحين سيق إلى المعتصم وسمع تهديده بالقتل جلدًا قال لنفسه: «لو ذاق المعتصم مثل الذي ذاقه قلبي من حلاوة ما عَذب أحدًا قط، إذا امتلأت القلوب بمحبة الله؛ فلن يكون فيها مثقال ذرة من بغض».

عاد إلى الدنيا الجديدة التي قدر الله له أن يكدح فيها كدحًا، ثم قال لمصطفى وهو ينظر إليه وقد اغرورقت عيناه بالدموع: لهجتك غريبة يا صاحب الدار، هل نحن في مصر؟

تعجب مصطفى من السؤال إلا أنه قال: يبدو أن حكايتكما غريبة لا مثيل لها، فأنتما خرجتما إلى الحياة من قبر مظلم مغلق من الخارج لم يفتحه أحد منذ آماد بعيدة، ثم كانت عليكما جروح لحقت بكما منذ فترة وجيزة، فالدماء كانت تسيل منكما لم تجف بعد! ثم إنكما لا تعرفان شيئًا عن الدولة التي تأويكما الآن ولا القرية التي تحدب عليكما.

قاطعه ابن حنبل: ما تقوله يفتح الباب لحكايتنا، ولكن قبل أن نروي لك، وتشرح لنا، قل لي اسمك يا صاحب الدار.

- مصطفى الشرقاوي يا عم الحاج.

- لماذا كنت تنادينا بهذا اللقب العجيب «عم الحاج»؟!

- لأني لا أعرف اسميكما.

- ولماذا «الحاج» لماذا لم تقل يا عم الصائم، أو المصلي، أو المعتمر؟

تعجب مصطفى مبتسماً: هذا هو ما وجدنا عليه آباءنا يا سيدنا، عم «الحاج» لقب نطلقه على الكبار لتوقيرهم.

- هذا من أعجب ما رأيت، أن يُنادى الرجل بعبادته ! ما علينا، نريد أن نعرف منك كل شيء، في أي عام نحن؟ وما الذي حدث في بلاد المسلمين وبلاد الفرنجة؟

- فرنجة! فرنجة من يا سيدنا؟! لم يحدث شيء في الدنيا، أحوالنا كما هي.

- عذرًا يا أخي الكريم، اعتبرنا مثل أهل الكهف، نحن لا ندري شيئًا عن الدنيا وعن هذا الزمن.

- أهل الكهف! سبحان الله، هل كنتم من موتى القبور وأحياكم الله، مثل سيدنا عُزَير؟!

- لا، لم نمت، ولكن لنا قصة قد لا تصدقها.

- يبدو عليكما الصلاح والتقوى، وصلاتي خلفك رفعتني للسماء السابعة، لذلك أنت مصدق عندي، ورغم أن الأخ الذي معك لا يتكلم كثيرًا، فإن لهجته تدل على أنه من هذه النواحي، كما أن شكله ليس غريبًا عليَّ.

استفسر غريب يوسف: في أي بلد نحن يابن العم؟

- أنتما في السعيدية مركز بلبيس شرقية.

هب غريب واقفًا وكأن ثعبانًا لدغه: السعيدية ! المحروقة ! من هو العمدة؟ ومن أنت؟

- المحروقة! هذه حكاية قديمة جدًّا يا سيدنا، لا يعرفها إلا القدماء من أهل القرية، كل الناس نسوها الآن، والحرائق انقطعت عن البلد تمامًا، شكلك يدل على أنك كنت من هنا ثم غبت كثيرًا، من أين أنت يا سيدنا؟

- سأقول لك بعد قليل، ولكنك لم تقل لي من هو عمدة هذا البلد.

- العمدة من أولاد «أبو يوسف»، وآل يوسف أخوالي، لكن والله العظيم ثلاثة لن أقول لكما شيئًا آخر إلا إذا عرفت قصتكما كلها وإلا ..... وقبل أن يفرغ من جملته قاطعه غريب يوسف: هناك من طرق باب الحجرة منذ قليل.

خبط مصطفى جبهته بكفه وقال: نسيت أن أفتح الباب. ثم أسرع للباب يفتحه، فوجد على الأرض صينية إفطار كبيرة عليها ما لذ وطاب من الطعام، قشدة، وعسل نحل، وبيض مسلوق وبيض مقلي، وجبنة قريش، وفول مدمس، وفطير مشلتت، وبرَّاد شاي، وبرَّاد لبن، وخبز متنوع الأشكال.

وضع مصطفى صينية الطعام على الأرض وقال لهما: بسم الله، بالتأكيد بطنا كما فارغان، هيا نأكل لقمة على ما قُسِم فيبقى بيننا عيش وملح يا أسيادنا.

نزل ابن حنبل من على الأريكة وجلس معهما وهو ينظر للطعام ثم قال لمصطفى: ما هذا الإسراف؟ تتحدثون عن الآخرة وتعملون عمل أهل الدنيا!

- نحن شراقوة يا سيدنا، وأهل الشرقية يتصفون بالكرم، وهذا زاد قليل، ولو كنت أعلم بالذي سيحدث لكنت أولمت لكما وليمة كبيرة، لكن ملحوقة إن شاء الله.

أكل ابـن حنبـل بضـع لقيـمات مع الجبـن القريـش يقمـن أوده، وشرب رشـفات مـن اللبن ثم عافته نفسـه فتركه، ومصطفى يلح عليـه أن يأكل من أنـواع الطعام الأخرى، ويضع أمامه صحن البيض المقلي بالزبدة، إلا أن ابن حنبل أصر على إعراضه.

وأكل غريـب مـن البيض والفول والفطير المشـلتت مع العسـل، وما إن فرغوا من الطعام حتى حمدوا الله سبحانه وتعالى على نعمه وجزيل فضله.

اعتدل ابن حنبل في جلسـته، وأغمض عينيه قليلًا وكأنما يسـتجمع قواه، ثـم تدفق في الحديـث حاكيًا عن قصته منذ أن سـيق إلى الخليفة إلى الأحداث الجمة التي حدثت بعد هذا، ومصطفى يسمع هذه الحكاية اللافتة.

تغـير لون وجهه أكثر من مرة، أقسـم في داخله أنه يحلـم وأن الذي أمامه ليـس حقيقيًـا، وحـين كان ابـن حنبـل يتوقف عـن الحديث ليلتقط أنفاسـه أو ليأخذ رشـفة من كوب الماء كانت تبرز أمـام مخيلة مصطفى ذكريات وفاة نـور كصـور متقطعة يجللها السـواد فتختلط هـذه الصور مع حكاية الشيخ الغريـب، فينبعـث مـن قلـب مصطفى شـعور غير معتـاد يجمع بـين الرهبة والحـزن والدهشـة، ومـا إن انتهى ابن حنبل من سرد ما حـدث له حتى كان مصطفى قد نسي أحزانه، لا لأن أحزانه اختفت خلف غيابات الزمن، ولكن

لأن شيئًا جديدًا مذهلًا كان أدعى للاهتمام. نسي مصطفى نكبته حينما استبد بـه الانفعال وهـو يتطلع إلى هذه الحكاية الأسـطورية التي جاءت له تتهادى من أحد أطراف الزمن.

نظـر مصطفـى إلى ابـن حنبل غـير مصدق، شـعر بـدوار انطلـق أول ما انطلق من أعماقه، قام واقفًا وأخذ يسـير في شـبه دائرة ضيقة، ثم أسـند ظهره إلى دولاب الملابـس، كان مصطفى في حال أخـرى، فلا تعب ولا إجهاد أثر عليه، بل تملكته الدهشة فمسحت الإرهاق وأيقظت الحواس، هل ما سمعه الآن من هذا الشـيخ حقيقة؟! هذا أمر لا يستسـيغه أي عقل، ولكنه كان قد سمع كثيرًا عن كرامات الأولياء، بيد أنه لم تصل إليه حكاية شبيهة، فكان أن قال للشـيخ الراوي: اسمع يا سيدنا، يبدو عليك الصلاح والتقوى، لكن ما تقولـه لا يمكن لعقل أن يستسـيغه، هل مـا تعرضت له من ضرب من أولاد الليل أصاب عقلك بشيء؟

- ما قصة أولاد الليل هذه التي ما فتئت تتحدث عنها؟

- أولاد الليل يا سيدنا، قطاع الطرق، الذين دفنوك وصاحبك في القبر.

- لم يقـم أحـد بدفننا، أنت بنفسـك قلت منـذ برهة يسـيرة أن القبر كان مغلقًـا منذ آمـاد بعيدة، وأعرف أنـه أصابك وصاحبك - الـذي حفر معك - الإجهاد والمشـقة مـن جراء محاولة الفتح، كما أنني قلـت لك: إننا أتينا من زمننا، ومررنا على سرداب الزمن قبل أن ننزل إلى حياتكم وزمنكم.

- وما الدليل؟

- انظر إلى أثر الضرب الذي في ظهري وأنت تعرف، هذا ضرب بالسياط.

- رأيته يا سيدنا ووضعت عليه المراهم بنفسي، ولكن هذه الجروح ليست دليلا.

تدخل غريب يوسف موجهًا كلامه إلى مصطفى: قل لي أولًا في أي سنة نحن؟

- سنة 2012 ميلادية 1434 هجرية.

أمسك الصمت بتلابيبهم، وخيم السكون على المكان، حتى إنك لا تكاد تسمع صوت تردد أنفاسهم، كأنهم أخذوا عهدًا على أنفسهم أن يكتموا هذه الأنفاس حتى لا تشوش أفكارهم.

أخذ ابن حنبل يهز ظهره للأمام والخلف مرات متتاليات مثل المقرئين حينما يندمجون في قراءة القرآن وبعد هنيهة قال: أنا الآن أمام زمني بمائتين وألف سنة مما تعدون، لك الحق ألَّا تصدق يا مصطفى، فأنا نفسي لا أستوعب ما حدث لي، أنا لا أصدق، أظنني الآن في حلم طويل لا يريد أن ينجلي بيقظة.

قال مصطفى بصوته الهادئ: أنت في حلم وأنا في يقظة، فهل يجتمع الحلم باليقظة؟

سكت ابن حنبل فقال غريب يوسف: قد نعيش الحلم ونحن في يقظتنا.

انبرى مصطفى قائلًا: هذه نسميها أحلام يقظة يا سيدنا.

أجابه غريب: أنت واثق ومتيقن أنك في يقظة، وغيرك الذي يجلس معك يظن أنه في حلم، واليقين يغلب الظن.

- طيب قل لي يا سيدنا من أنت وما قصتك؟ هل أتيت أنت الآخر من أيام ابن حنبل؟

رد غريب: قلت لي: إن أخوالك هم آل يوسف، فمن هي أمك يا مصطفى؟

- ليس لك شأن بأمي يا سيدنا.

- أريد أن أعرف اسمها فقط.

- لماذا؟! من أنت؟

- إن كان ما حدث لنا حقيقيًا فأنا من زمن قريب من زمنكم يا مصطفى، ومن بلد أقرب لك مما تتصور.

- من أي بلد؟

- من السعيدية، بلدك.

- شكلك ليس غريبًا عليَّ، أنت تشبه أفراد آل يوسف، أنت صورة طبق الأصل منهم.

- وأنا من آل يوسف يا مصطفى، أنا عمدة السعيدية.

- هه، آل يوسف، العمدة ! كيف هذا؟!

- اسمي غريب يوسف.

- غريب يوسف من؟!

- غريب يوسف غُرَيِّب.

خرج مصطفى عدوًا من الحجرة، بحثًا عن زوجته ثريا فوجدها قد أوت إلى فراشها، إذ أنهكها التعب والإجهاد،غاب برهة، ثم عاد مقتحمًا المكان وهو يحمل صورة فوتوغرافية في يده، فغر فاه وهو ينقل نظره من الصورة إلى الرجل الجالس على الأرض، جلس بجواره واستمر في التحديق به والبحلقة في الصورة، ازدرد ريقه، وأمسك كوب الماء فشرب رشفات منه، ثم طس وجهه بما تبقى فيه من ماء، وأخذ يقول: الحقيني يا أمي، موت نور أفقدني عقلي، ذهبت أزور نور في القبر فخرج لي جدي غريب حيًّا، سنة مطينة بطين. ثم انهمر على رأس جده بالقبلات.

■■■

أخذ غريب يوسف يروي لمصطفى قصته، منذ أن ذهب إلى الحج، إلى أن تاه في الصحراء، ومقابلة عبد الله الرصافي إياه، ثم ما حدث في سرداب الزمن واجتماعه مع ابن حنبل، نهاية بهبوطهما من السرداب إلى هذا القبر.

- نحن الآن معنا دليل يا مصطفى على أننا نعيش في قلب الحقيقة، صورتي التي معك، تلك الصورة التي التقطها لي المصوراتي الخواجة سمعان بلبيس قبل أن أذهب للحج، أعرف أن ما نعيشه الآن فوق عقولنا جميعًا، قد لا نجد إجابة عنه، ولكن كل ما هو تحت العقل في أيامكم هذه كان في أيام ابن حنبل فوق العقل، فوق النهى، فوق التصور، ونحن الآن نجلس مع إمام الأمة، ذلك الإمام الذي حلفت على الله ذات يوم أن يجمعني به في الدنيا والآخرة فسخر مني شيخ الكُتَّاب، ولكن الله سبحانه له في خلقه شئون يبديها

ولا يبتديها، فكان أن استجاب لي وجمعني بالرجل الذي أحببته وشغف به قلبي، هذا الرجل الذي تبرك به الشـافعي، وذاد عن الأمة كلها في فتنة خلق القرآن، انظر لي يا مصطفى ودقق النظر، أنا أعرف هذا البلد شبرًا بشبر، ولكنني رأيت ونحـن في الطريق إلى بيتـك تغييرات كثيرة حدثت فيه، البيوت أصبحت مبنية بالطوب الأحمر، والمقابر تغيرت كثيرًا، لم تكن كذلك على أيامي، الأرض التي عليهـا بيتك هذا والبيوت المجاورة كانت زراعية، وهأنتم تضعون الأسـمنت والطوب الأحمر عليها، والكهرباء دخلت إليكم، وهذا الذي تسميه تلفزيون! أنا أعرف السـينما، وكان لـديَّ راديو وجرامفون وتليفون، هـذا غير التليفون الـذي كان في حجـرة التليفـون «كابينة الخفـراء» وأعرف التلغـراف، وعندي سـيارة، وأعرف القطار والطائرة وأمريكا، ولكن هناك أشـياء لم أسمع بها من قبل، سمعتك تقول كومبيوتر، وصدَّام ولكنني الآن أشعر أن تعب الدنيا حل بي، يدي ترتعش، لا أظن أن البرودة قشعرتني.

قـام مصطفى وأحضر غطاء صوفيًا دثر به غريب، ثم نظر للإمام أحمد بن حنبل وقال: عقلي مشوش يا إمام، هل من الممكن أن يحدث هذا؟

- دعني أصلي الضحى وأخلو إلى ربي ثم سيكون بيننا حديث.

انتهـى مـن صلاتـه، وانتهوا من صلاتهـم، خلا إلى ربه وخلـوا إلى ربهم، عزل قلبه عن الحياة الدنيا وكأنه استقال منها، كانت أفكاره مضطربة وروحه جزعة، فأخذ يحدث نفسـه «يا نفس إني مستقيلٌ من حياة الغافلين، لا تَرْكَنِي للنوم، فيقظة الإيمان هي السبيل، اليقظة نور والغفلة عتمة».

ثم استقامت روحه وهدأت نفسه قليلًا فأخذ يناجي ربه: « معك وحدك يا رب، تكفيني معيتك، أنر لي بصيرتي، أنت حسبي، أنت عزي، أنت جاهي يـا إلهـي، ليس لي غيرك ربي مرشـدًا، أنـت أشرقتَ الوجـود، وليس من بعد اللجوء إلى حماك يكون عندي مستحيل».

« زاد شوقي وحنيني لإلهي، انسكبت روحي لوعة وفاض نوحي، هطلت دموعـي مثـل طوفان نوح، نـار قلبي استعرت مثل نيران الخليـل، أغرقتني أدمعـي، أحرقتني زفرتي، إن أريتني وجهك، وألقيتني في الجحيم، فأنا في عز النعيم، وإن حجبت عني نورك، وأعطيتني الجنة كلها فأنا في ذل مقيم».

«يـا ألله يـا مالك الملكوت، فوضـت أمري إليك، يا ألله يـا من يعلم السر وأخفـى، روحي هائمة في ملكوتك، فضعها حيـث تريد، ولا تضعها حيث أريد، واجعلني كما تريد لما تريد، اللهم استعملني ولا تسـتبدلني، اللهم إني أنشـدك فأرشـدني، أطلبك فعرفني الطريق إليك، اللهـم ارزقني معيتك ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

نظـرا إليه فوجدا دموعه تـكاد تفتت عينيه، كان في حال غير الحال، ودنيا غـير الدنيا، يرتعد جسـده، وتهتـز خلاياه، وإن كلماه لا ينظـر إليهما كأنهما لا شيء، أو مـن هواء الحجرة، قال غريب يوسـف: أكاد أقسـم أنه الآن في حق اليقين.

وما بين طرفة عين وانتباهتها وجداه قد اضطجع على جنبه الأيمن، وراح في سبات عميق.

أمسك مصطفى مصحفه وأخذ يقرأ سورة يوسف بصوت خافت، ورويدًا رويدًا أخذ جسده يهتز مع القراءة، بينما تكور غريب يوسف على جنبه وغفلت عيناه والقلب يقظان، وما إن فرغ مصطفى من السورة حتى وجد ابن حنبل يقوم مستيقظًا، سعل ابن حنبل فاستيقظ غريب وقعد من نومته، قال ابن حنبل: ﴿أَلْقَـٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ قل لي يا مصطفى: أئذا ألقيت ثوبًا على أعمى فهل يرتد بصيرًا؟

- لا، وإلا كان العمى قد انتهى من الدنيا.

عاد ابن حنبل يقول: ولكن الله أعطى هذا الثوب خاصية ليست لغيره، جعل له ناموسًا خاصًا به، بحيث عندما ألقاه البشير على وجه سيدنا يعقوب ارتد بصيرًا.

- نعم.

- لكل شيء في الدنيا ناموس، حتى المعجزة لها ناموسها، والخارقة كذلك، فإذا أعطاك الله قدرًا من علم ناموس الأشياء، كان لك تسخيرها.

عقَّب غريب: اشرح لنا يا إمام.

جاء صوته من أغوار عميقة ملتحفًا برداء الزمن:

(خلق الله الزمن، وخلق المكان، وأعطى لكلٍّ ناموسًا، يخضع الزمن لناموسه ويخضع المكان لناموسه، ولكن خالق الناموس لا يخضع لما خلقه، خالق الزمن لا يمر عليه زمن، خالق المكان لا يحتويه مكان، هو فوق، ولكن فوقيته فوقية مكانة لا مكان، خلق السماوات والأرض في ستة أيام

ثم استوى على العرش، مرّت الستة الأيام على المخلوق لا على الخالق، إنما أمره بين الكاف والنون، ولأن المخلوق خاضع لناموس خالقه، فقد مر على السماوات والأرض ستة أيام إلى أن تشكلتا، ولكن هذه الأيام لم تمر على من شكلهما وخلق ناموسهما.

أوجد رب القدرة صلة بين الزمن والمكان، جمعهما في إناء الزمكان ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فكان الليل والنهار زمنًا، وكانت الشمس والقمر مكانًا، فإذا سبحت الشمس «المكان» ذات المكان والحيز، في مدارها المكاني، وسبح القمر «المكان» صاحب المكان والحيز، في فلكه المكاني، جرى على أثرهما الليل والنهار، فيتعاقب الزمن ويمر على من يحتويه المكان، تنتظم حركة الزمن ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فإذا خرجنا من نطاق مكانية الشمس والقمر، لن يمر علينا ليلهما ونهارهما، ينحسر عنا زمنهما، وإذا دخلنا إلى مكانية أخرى، مر علينا زمن هذه المكانية، وخضعنا لناموسهما).

قاطع مصطفى استرساله: ولكن من الذي قال إن هناك مكانًا آخر و....؟

أوقفه غريب يوسف بلكزة خفيفة على كتفه، عاد ابن حنبل إلى استرساله كأن أحدًا لم يقاطعه:

(هو الذي قال لنا هذا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ

سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ وفي سورة الجن قال: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾.

قال لنا الله إنه خلق السماوات والأرض طباقًا، وطباقًا تعني متداخلات، حتى إن هذا التداخل لا يترك لك مجالًا لاكتشاف الفروق بين الطبق والآخر الذي انطبق عليه، لم يقل لنا: إنه خلقها طبقات، أو متطابقات، فالطبقات جمع طبقة والطبقة تعلوها طبقة ولا تتداخل فيها، فيكون بين الطبقة والطبقة تفاوت، والمتطابقات أي المتشابهات والمتساويات، وما لهذا قصد، وما لذلك خلق، ولكنه خلقهن طباقًا، إذ لا يوجد بينهن فروج أو تفاوت، لذلك قال ربكم تأكيدًا لهذا: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ والفطور هو الفارق بين الطبق وما انطبق عليه، إنك لن تجد فارقًا أبدًا، ولو كان هناك فارق لكانت طبقات).

قال غريب: يا إمام، هل لما تقول علاقة بالآية ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾.

- النفاذ هو الاختراق، والاختراق هو خروج الشيء من شق إلى آخر، والأقطار هي الجوانب، والسلطان هنا هو قدرة الله التي يعطيها من يشاء من عباده، ولك أن تقرأ سورة الرحمن كلها، فإذا قرأتها بروحك فإنها ستقودك إلى حقائق يعجز عنها العقل، ستقرأ عن شواظ من نار ونحاس تمنع النفاذ

والاختراق، وستقرأ عن السماء التي حين تنشق لينفذ منها من أراد الله له أن ينفذ سيكون هذا الانشقاق في شكل ولون الوردة الحمراء «وردة كالدهان».

غريب: ولكن يا إمام أنا قرأت في بعض التفاسير للقرآن أن الآية الكريمة ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ هي خاصة بيوم القيامة.

- لا يوجد شيء اسمه تفسير للقرآن، فالله نزل القرآن ولم ينزل معه تفسيرًا له، وإنما ما تقول عنه إنه تفسير هو مجرد رأي لصاحبه، مثلما أقول لك الآن رأيي، وهذا الرأي ينسب لي ولا ينسب إلى القرآن، كما أن سياق الآيات يدل على أن الله يتحدى خلقه في الحياة الدنيا وليس في يوم القيامة،فليس في القيامة تحدٍّ ولكن تصدٌّ، إنما التحدي يكون في حياة التكليف لا في حياة الحساب، ووردة كالدهان هذه هي الشكل الذي ستكون عليه السماء التي ستنشق وتنفرج لينفذ منها الإنسان، والمعنى هنا أنها ستكون منشقة على شكل وردة حمراء، وستكون مدهونة بشيء كالدهن أو الزيت يساعد على الانزلاق والنفاذ، واعلم أن النفاذ لا يكون إلا من مكان لمكان آخر، وما دام قد نفذ إلى مكان آخر فإنه سينفذ إليه ليجد نواميس أخرى للزمن،فلكل مكان حركته الخاصة به التي يتولد عنها زمنها.

- فما هي قصة الجن إذن؟ قالها مصطفى باستفهام تضمخ بشبق المعرفة.

وما إن نطق مصطفى بكلماته هذه وسؤاله عن الجن حتى أتى لهم من خارج الدار صوت دوي وفرقعة، أصم أسماعهم، وأوقع الرعب في نفس ابن حنبل وغريب، فانتفض غريب فزعًا.

■■■

قفز مصطفى سريعًا من جلسته وخرج من الحجرة وكأنه يسابق الريح، وانكمش ابن حنبل وغريب على حالهما، وزاد ارتعاش غريب وكأنه أصيب بحمى، فدثره ابن حنبل بغطاء آخر كان متكومًا على السرير، ثم قال: أصابتني الرعدة مثلك يا غريب، ترى أي صوت هذا؟

قال غريب وأسنانه تصطك وجسده ينتفض ارتعاشًا: ضرب نار.

- ضرب نار! ولماذا يضربون النار؟ !هل ناركم تطفأ بالضرب؟

- ليست نارًا مشتعلة كالنار التي تعرفها، ولكنها نار أخرى.

- أعرف نار الدنيا ونار الآخرة، فهل لديكم نار أخرى؟! ثم أردف: خلق الله الجان من مارج من نار، فهل تقصد نار الجان؟ يبدو هذا لأنها انبعثت بعد أن سألني مصطفى عن الجان،ولكن كيف تضربونها؟ هذا لعمري شيء عجيب!

- ضرب النار يا إمام غير هذا وذاك، هذه أداة مصنوعة من الحديد لها ماسورة.

- وما الماسورة؟

- أنبوب أجوف مستدير من حديد، له فوهة، فإذا تحاربنا أمسكنا هذا الأنبوب وحشوناه بشيء حديدي حاد اسمه الرصاص، وخلف هذا الرصاص شيء اسمه البارود، إذا اشتعل انطلقت الرصاصة بسرعة لا يتصورها أحد، تحدث هذه الفرقعة، وتصيب العدو فتقتله أو تصيبه.

- يا رب سلم سلم، ما هذه الكوارث التي صنعها الإنسان!

- هي مثل كوارث السيف والرمح والقوس، لكل زمن سلاحه.

- وهل سرعة الرصاصة هذه تفوق سرعة السهم؟

- السهم بالنسبة للرصاصة كأنه يمشي الهوينى، وهي تجري بعزم ما فيها.

- يا ألله، وعلم الإنسان ما لم يعلم، وهل توجد حروب في ذلك البلد؟

- علمي علمك يا إمام، سيأتي لنا مصطفى بالخبر اليقين.

حين خرج مصطفى يستطلع الأمر كانت زوجته ثريا قد قامت من نومها منتفضة فزعة من صوت الفرقعة، هرعت هي الأخرى تستطلع الأمر من شباك الدار، وحين عاد مصطفى سألته فطمأنها، فاستفسرت عن الأضياف أهل القبر، فقال لها: إنهما من أهل الصلاح والتقوى وإنه لا يزال يسمع منهما قصتهما، أنبأته أنها اليوم تشعر بنعاس غريب، فسألها عن الأولاد فقالت: إنهم يغطون في نومهم، ثم استأذنته لتذهب إلى نومها وأحلامها، فأذن لها وانصرف إلى حجرة نور ليطمئن الضيوف.

- خير إن شاء الله يا جماعة الخير، هؤلاء من خفر القرية يقومون بضرب النار في الهواء بناء على أوامر العمدة؛ إذ إن هناك بعض اللصوص يقومون كل حين في المسافة الفاصلة بيننا وقرية «حفنا» بتثبيت المارة وسرقة متاعهم ونقودهم، لذلك فإن خفر القريتين يطلقون الرصاص على الفاضي لتخويف أي لص يريد أن يفعل فعلته السوداء.

قالها مصطفى ثم جلس وهو يبتسم، ثم أردف: أعمل لكما قهوة؟

رد غريب: قهوتي سادة.

استفسر ابن حنبل: وما القهوة؟

رد مصطفى: اشربها يا إمام، إنها لذيذة وتنبه الحواس.

ـ أنا أعرف الشاي ولكنني لم أسمع عن القهوة من قبل، وما دمت لا أعرفها فلن أشربها.

ـ ستعجبك.

ـ والله يا أخي لو دفعت لي مال الدنيا حتى أشربها ما شربتها.

قام مصطفى خارجًا من الحجرة وما هي إلا برهة حتى عاد بصينية عليها «كنكة» القهوة وعدة فناجيل، صب لغريب يوسف قهوته، وصب لنفسه، ثم سأل الإمام:

ـ وهل القهوة حرام يا فضيلة الإمام؟

ـ لا أعرف ولا أستطيع أن أحرمها، فأنا أجهلها، ولكنني لن أشربها، ولكن لماذا قلت لي هذا الاسم الغريب «فضيلة»؟

ـ نقول فضيلة الأستاذ أو الشيخ أو الإمام للعلماء الكبار من أمتنا.

ـ أأنتم تقدسون العلماء؟

ـ لا ليس تقديسًا، ولكنهم يقولون: إن لحم العلماء مسموم.

ـ مسموم !

ـ نعم.

ـ وما معنى مسموم، ما المراد بهذه الكلمة؟

- العلماء من أمثال فضيلتك يا إمام، أولياء لله، والحديث ـ وفضيلتك سيد العارفين ـ يقول «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب».

- وهل تعادونهم؟

- وهل نجرؤ؟!

- انظر يا مصطفى، لا تتعقب أي إنسان في معايبه الشخصية إلا إذا كان سيتولى أمرًا من أمور الأمة، وقتئذ وجب على من يعرف عيب هذا الإنسي أن يخبر به الأمة، ولك وللأمة أن تتعقب أي عالم في رأيه وفقهه مهما علا شأنه، لا تجعل من عبارة «لحم العلماء مسموم» هذه التي لا أدري من قالها، حاجزًا يحول بينك وبين الحق الذي تراه، جادلت امرأة عمر بن الخطاب في المهور، ولم يقل لها أحد لحم الصحابة مسموم، فانصاع عمر لرأيها وقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر. لا تقدسوا العلماء كما قدستهم الأمم السابقة فتهلكوا.

- يا إمام حديثك شيق، قطع الرصاص كلامك عن الزمن والمكان والجن، ونريد أن نصل ما انقطع.

تدخل غريب قائلًا: لقد انقطعت عن دنياكم منذ أن تكلم الإمام بهذا العلم الذي لم أسمعه من قبل، وكلي شوق لاستكمال الحديث.

أغمض الإمام عينيه يستعيد الحالة الروحية التي كان فيها، وأخذ ينسحب بروحه تدريجيًا من دائرة المكان والزمن.

(سألتني عن الجن الذين جعل الله سبحانه من النجوم رجومًا لهم،كانوا يجوسون بين السماوات المنطبقات فيخترقونهن طبقًا عن طبق، وحين يخترقون

يتسـمعون لأحـداث وأخبـار أزمنـة لم تـأت بعـد ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ فأوقف الله هذا التسـمع بأن وضع حرسـاً وشـهبًا وجعلها رجومًا للشـياطين التي تريد الاخـتراق، فإن تعدت على خاصيـة خلقها وانطلقت، احترقـت، وفنيت قبل أن تصل لمبتغاها، ولكن الله سبحانه أعطى لمن يشـاء مـن خلقه علمًا، يركب بـه طبقًا عن طبق، وينتقل زمنًا عن زمن، وأقسـم الله على ذلك بقوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي سـتخترقون هذه الطبـاق، وتنتقلون من طبق لطبق آخر يخضع لنواميس أخرى، وقد أقسم الله هنا على ذلك بدلائل المكان والزمان، الشفق، والليل، والقمر).

قاطعه مصطفى: ولكننا يا مولانا لم نسمع عن أحد اخترق الزمن وركب طبقًـا عن طبـق، حتى الأنبياء لم يفعلـوا ذلك، وأهل الكهـف لم يفعلوا هذا، ولكن الله أنامهم ثلاثمائة سـنين وازدادوا تسـعًا، و«عزير» أماته الله مائة عام، وهـو بذلـك لم ينقلهم من زمـن لآخر، ولكنـه أخرهم لزمن آخـر، أفيفعلها الأقل منهم؟

انبعث صوت ابن حنبل من أغواره السحيقة:

(بل هناك من اخترق حاجز الزمان والمكان، نبي، وولي).

قال غريب يوسف وكأنه يعرف الإجابة: قل لنا عنهما.

- أنـت تعرف يـا غريب ذلـك الرجل العجيـب عبد الله الرصـافي، كان يتحـدث معـي ومعنا، وقال لي ولنا إشـارات، إلا أن قلبي وقتها لم يسـتقبلها

للحالة التي كنت فيها، تحدث معنا عن الزمن وانطلاقاته، والمكان وحركته، ولكـن قلبـي كان غافـلاً وقتئـذ، إلا أن ذلـك القلـب الذي رشـف من محبة الله أصغـى الآن للـذي قالـه لي من قبـل، فقلَّبته على أوجهـه، وأجريت عليه ما أعرفه من الأحاديث، وهاك ما جرى في خاطري.

(كل نبي من الأنبياء اخترق سـننًا كونية، بإذن الله ومشـيئته وعلمه الذي بث قدرًا منه فيهم، إبراهيم عليه السلام اخترق خاصية النار المُحرقة فكانت بردًا وسلامًا عليه، وإسماعيل اخترق خاصية الذبح، وعيسى اخترق خاصية الموت والحياة فأحيا الله به الموتى، وأجرى الله على يديه الشـفاء للمرضى، ثم رفعـه الله إليـه ليبقـى متخطيًا زمنًا لا نعرفـه في مكان نجهله ، وانظر للسـنن الكونية التي اخترقها موسى و...).

عـاد مصطفـى لمقاطعته: كل هـذا نعرفه يا مولانا، ولكنـك لم تقل لنا عن اختراق الزمن، أنت قلت منذ دقيقة: إن الزمن اخترقه نبي وولي فمن هما؟

(أمـا النبي فهو سـيدنا محمـد ﷺ، وحادث الإسراء والمعراج شـاهد على اختراقـه حجـب الزمان والمكان، جيء له بالـبراق، ونحن لا نعرف عن هذا البراق إلا أن اسمه مستمد من البرق، ويقولون إن اسمه جاء من البريق ومن شدة ضوئه، فكأن الرسول ﷺ ركب دابة من الضوء، حملته بقواعدها وليس بقواعدنا، بسـنتها وليس بسـنتنا، بناموسـها وليس بناموسـنا، وذهبت به إلى القـدس حيث صـلى بالأنبياء، وشرب اللبن فاختار الفطـرة، ثم عـُرج به إلى السماوات، ولا نعرف كيف عرج به، لكننا نعرف العروج).

مصطفى: وما العروج؟

(عرَّج الثوب أي خططه خطوطًا ملتوية، والعروج هو السير أو الصعود في خطوط ملتوية متعرجة ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ عروج الملائكة والروح هو الصعود بالتواء، والزمن الذي استغرقوه كان خمسين ألف سنة وفقًا لناموس العروج،وهذا يدل على اختلاف الأزمنة.

وقد شهد الرسول ﷺ كل مشاهد الإسراء والمعراج، واستغرق زمنًا لا نعلم مقداره، وعاد إلى بيته قبل أن يبرد فراشه، وكانت الليلة شاتية باردة، فأنكرت قريش ذلك وقالت وفقًا لعلمها:نَحْنُ نضرب إليها أكباد الإبل الشهر والشهرين، ويذهب مُحَمَّد إليها في ليلة! فماذا لو علموا أنه عاد بمقدار أن يتجرع أحدهم شربة ماء، كانت سُنة الزمن الذي دلف إليه غير سُنة زمننا، وسُنة المكان غير سُنة مكاننا، لذلك ذهب وعرج به ونزل وعاد دون أن يمر عليه الزمن الخاص بنا، ولكن مر به الزمن الخاص بالطبق الذي دخل إليه ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

قال غريب يوسف وقد اندهش لمقال الشيخ الإمام: وهل رأى الرسولُ ﷺ «الله» في هذا المعراج؟

(سُنة الله في الحياة الدنيا أننا لا نراه بالنظر، إذ إنه خلقنا على هيئة وحالة لا تستطيع أن تستقبل النظر إليه سبحانه،ولكن الأمر في جنة الخلد يختلف عن الدنيا، فالله سبحانه يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي أن

رؤية الله بالنظر والبصر ستكون لطائفة من أهل الجنة، ولكن سيدنا موسى عندما أراد أن يرى الله بالنظر في الدنيا قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أي أنه طلب الرؤية بالنظر ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ ولكن الله أخبره أنه لن يراه بهذه الطريقة فقال سبحانه: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ لماذا لن يراه بالنظر؟ لأن بشرية موسى لم تهيَّأ لذلك، ومكانية المكان لا تسمح بهذا، ثم أثبت الله له هذا فقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ أدر يا موسى نظرك وحدق في هذا الجبل، وسيتجلى الله له، وهذا معناه أن الله تجلى، وقادر على أن يتجلى للمخلوق، لأن الجبل من خلق الله ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ هذه هي لحظة التجلي ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ لم يتحمل الجبل بقوته وثباته وشموخه وحديديته وصخريته هذا التجلي فتفتت، الله تجلى للمخلوق والمخلوق بمكانه وزمنه لم يهيأ للاستقبال فانهار).

استفسر مصطفى مشدوهًا: معنى ذلك أن الرسول ﷺ لم ير الله في المعراج؟

(أما سيدنا موسى فكان قد طلب الإراءة وليس الرؤية، وسيدنا محمد دخل في الرؤية وليس الإراءة).

غريب يوسف: وما الفارق يا إمام؟

اندفع مصطفى قائلًا: أنا أول مرة يا إمام أسمع عن كلمة إراءة هذه، هل هي من كلمات عصرك وزمنك؟

سكت ابن حنبل قليلًا وكأنما يقدح فكره ليُبَسِّط الحديث حتى يصل إلى مداركهما، ثم قال: ألم يسمع أحدكما عن الإراءة من قبل؟

صمت غريب، ونطق مصطفى: أنا عن نفسي لا أعرفها أبدًا.

قال ابن حنبل لمصطفى: هل خزينة الملابس المغلقة هذه، فيها جلباب؟

- نعم يا إمام.

- أرني أنظر إليه.

فقام مصطفى وفتح الدولاب وأحضر الجلباب.

قال ابن حنبل: كان الجلباب غائبًا عن بصري وبصرك، وأنا لم أكن أعلم بوجوده، إلا أنك كنت تعلم بوجوده يقينًا مع أنه محجوب عن بصرك مثل محجوبيته عن بصري، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- الطلب الذي طلبته منك الآن هو «طلب الإراءة».

- والآن هذا الجلباب أمامنا، وغريب الذي يجلس معنا يستطيع أن يراه، هذه هي الرؤية.

- والله يا إمام أنت شوقتني لموضوع الإراءة هذا، أنا الآن معي مفتاح الفهم ولكني أريدك أن تشرحه لنا على حالة سيدنا موسى، وحالة سيدنا محمد.

(طلب موسى وهو بجوار الجبل على الأرض التي نحيا عليها ـ في الحياة الدنيا ـ النظر بالبصر ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ طلبها من القادر، طلبها نظرًا، والنظر لا يكون إلا بصرًا، وهذه هي الإراءة، أي أن المريد لا يملك، فطلب

من المراد الذي يملك، أن يمكنه من النظر، والمطلوب النظر إليه هو القادر، فقال له القادر: حواسك في الدنيا لا تقدر على رؤية القادر. ودلل له على ذلك بالتجلي لخلق من خلقه وهو الجبل، فحدث ما حدث... ولكن الرسول ﷺ لم يره في حياتنا الدنيا على الأرض التي نحيا عليها، في مكة، أو في القدس، ولم يره بسنن الحياة الدنيا ونواميسها، ولكنه رآه في دنيا أخرى غير دنيانا، وزمن آخر غير زمننا، ومكان آخر غير مكاننا، هو سدرة المنتهى، وبحواس هيئت لهذه الرؤية في هذا الموقف، أما صاحبه جبريل فلم يكن قد تهيأ لهذه الرؤية؛ لذلك أحجم وخاف أن يحترق، ولكنه قال للرسول: تقدم أنت فستخترق. إذ كان يعلم أن الله أعطاه القدرة على ذلك، فتقدم الرسول واخترق، فرأى الله كما قال ابن عباس بالفؤاد وليس بالبصر ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾).

قاطعه غريب ليستزيده: سمعت أن بعضهم قال يا إمام إن الرسول لم ير في هذا الموقف إلا سيدنا جبريل، ويقولون: إن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت ذلك.

(كيف تكون لجبريل وهناك من يباري فيها؟! وكيف يكون لم ير إلا جبريل وتكون آية كبرى اوجبريل كان يتنزل على رسول الله ﷺ كل حين! وكيف يكون قد رأى جبريل بالفؤاد فقط وهو الذي يراه في الحياة الدنيا بالبصر! ثم إن الله قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ وهناك قراءة تقول: (لَقَدْ رَأَى مِن آياتِ رَبِّـهِ الكُبْرَى) أي إنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه، وهي آية رؤية الله، ولكن النفي الذي قالته السيدة عائشة - رضي الله عنها - كان عن رؤية البصر).

قال غريب: أو لم يره بالبصر؟

(هنـاك مـن قال: إنه رآه بالبصر، ولكن الأمـر عندي غير ذلك، إذ إن من يستقبل فعل الرؤية على أنه إدراك بالبصر لا يعرف حقيقة اللغة وفقهها، فإذا جـاء لفـظ الرؤية هكـذا «رأى» دون أن تتقيـد بالبصر، فإنـه لا يجوز صرفها إلى الرؤيـة البصريـة دون غيرهـا مـن وسـائل الإدراك؛ لأن الرؤيـة أوسـع وأعم وأشـمل من المشـاهدة والبصر والنظر، فالرؤية لغة غير النظر والبصر والمشـاهدة، وقـد وردت الرؤيـة في كثير من الآيـات في القـرآن الكريم على نحوٍ يدل على الإدراك بحاسـة غير حاسـة البصر، ويدل على الإدراك بالفؤاد والعقل والقلب، ومن ذلك قول الله سـبحانه وتعالـى في سـورة النحـل: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ والمـراد برؤيـة العـذاب إشرافـه عليهـم، والكثير من آيـات «ألم تر» اتفق المفسرون عـلى أن معناها ألم تعلم.. فالرؤية هنا هي العلم، مثل قوله تعالى في سـورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي ألم يصل إلى علمك.

وقولـه سـبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ و﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؛ أي: ألم تعلـم، ولذلـك فـإن قوله في سـورة النجم: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ يشـير إلى أن الرؤيـة كانـت إحاطـة فؤاد وليـس إحاطة بصر، وإحاطـة الفـؤاد هي أحد أشـكال الإدراك، أمـا الكلمة في اللغـة التي تعني إدراك الأشـياء بالعين فهي «البصر» كقوله سـبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ وفي سـورة الأعراف: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ وفي سـورة يونس: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ وفي سـورة مريم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ وفي سـورة طـه: ﴿قَالَ بَصُرْتُ

بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ أمـا كلمـة النظـر فتسـتخدم لغـة أيضًـا للدلالـة على اتجاه الإنسـان بعينه إلى الأشـياء، ففي سـورة البقـرة: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ وفي سـورة البقرة: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ ومع ذلك قد يستدير وجهـك ويتجه نظـرك إلى شيء ولا تبـصره، فالله يقول في سـورة الأعراف: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ لذلـك فإننـا نقـول أحيانًا: نظر إلى القمر فأبصره، ونقول: رغم أنه نظر إليه فإنه لم يبصره، لذلك كانت رؤية الفؤاد أكثر إدراكًا من رؤية البصر).

بـدا الأمر عصيًّا على إدراك مصطفى فقال للإمـام: أنا أفهم كلامك جملة واحـدة، ولكن يسـتعصي عليَّ أن أفهم أن هناك رؤيـة يراها القلب ولا يراها البصر.

رد عليه الإمام وهو يتبسط في الحديث: ألا تنام كل يوم؟

- بلى يا سيدنا، أنام مثل باقي خلق الله.

- ألا تغمض عينيك في النوم؟

- كلنا نغمض عيوننا، السمك فقط هو الذي ينام وعيونه مفتوحة.

- أليـس بصرك هو الذي يلتقط صور الموجودات فيفهمها عقلك؟ ومع ذلـك فإن أجفانك في النوم منطبقة، لا يتسـلل إليها بصيص ضوء، وأنت في سبات عميق، وترى الرؤيا فيعقلها عقلك، وتظهر أمامك الموجودات، تمامًا كإبصارك إياها.

- معنى هذا أن الرسول رأى الله في المنام.

- رآه في اليقظة بالفؤاد، تجلَّى الله لفؤاده بالكاف والنون، عند سدرة المنتهى، وهذه دنيا أخرى لا نعرفها تعلو على أمكنة وأزمنة الحياة الدنيا وطباقها.

- وما الكاف والنون يا سيدنا؟

- ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ساد السكون في المكان، وأنفاس غريب يوسف تتردد متلاحقة، والعرق يتفصد من جبينه فصدًا، ومصطفى يجس جبين جده لعله ألمَّ به شيء فآلمه، فوجد هذا الجبين الأبيض المتلألئ باردًا، إلا أن يد غريب كانت ترتعش في سكون.

- هل أحضر لك شرابًا يا جدي؟

- لا عليك، لا تخف عليَّ، تنتابني هذه الحالة دائمًا في جلسات الذكر.

- لا أعرف كيف أناديك، فأنا في سنِّك تقريبًا، ولكنك جدي حبيبي الذي خطوت خطواتي الأولى في الحياة في حجره.

ابتسم ابن حنبل وقال لهما: أنا ولدت قبلكما، وأنتما قد تكونان أسن مني، هذا أمر الله.

قال غريب موجهًا كلامه لمصطفى: دع صلة الدم التي بيننا فهي في علم الله، ونزلت إلى علمك أنت، إلا أنها لم تنزل إلى علمي بعد، وقل لي: يا عمدة. فهكذا يناديني الناس في دنياي.

أخذ كل واحد منهما يفكر في الحال التي هو فيها، لا شك أن الأفكار كانت تتنابهم جميعًا وتؤرق عقولهم، وتلهب مشاعرهم وأفئدتهم، كانت الهواجس هي التي تسيطر عليهم عندما أخذوا في الحديث ، إلا أن هذا الإشراق الذي فتح الله به على ابن حنبل هدهد تلك القلوب الحيرى، فهجعت هواجسهم واستكانت.

أصبحت هذه القصة الغريبة هي واليقين سواء عند مصطفى، وفهم غريب يوسف ما كان قد استغلق عليه، ومع ذلك ظلت أشياء تناوش مصطفى، فقال لابن حنبل:

- ولكن يا سيدنا الإمام، هذا العلم الذي من لدن الله هو للأنبياء فقط؛ لأنهم هم الذين يبلغون الرسالات، فكيف يكون للبشر العاديين، وأنت في نفس الوقت كنت تقول منذ قليل: إن علم اختراق الزمن والمكان هو لنبي وولي.

(من قال إنه للأنبياء والرسل فقط ! الله سبحانه قال عن يوسف عليه السلام ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وقال عن موسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.. والمحسن هو من يعبد الله كأنه يراه.

بدرت من الإمام حركة أظهرت أنه يقبض بيمناه على شيء فداعبه مصطفى:

ـ وما تلك التي بيمينك يا إمام؟

انفرجت أساريره وقال: هي شعرات للرسول ﷺ أتبرك بهن، كن معي والمعتصم يجلدني.

كلي شوق يا إمام أن أعرف قصة الولي الذي اخترق حجب الزمن والمكان: قالها غريب يوسف وهو في حالة من الوجد ملكت عليه شعوره.

(كان الرجل الذي يجلس في مجلس سيدنا سليمان من الرجال العاديين، تنظر إليه وأنت في الطريق فلا تجده مختلفًا في شيء، وقد لا تنتبه له إذا كان في مجلسك، وإذْ أراد سيدنا سليمان أن يُحْضر عرش بلقيس ملكة سبأ قال للذين كانوا يجلسون في بلاطه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ كان سليمان قد علم أن بلقيس تركت عبادة الشمس وستأتي له مسلمة لله وحده بلا شريك، فأراد أن يظهر لها قدرة الله الذي استسلمت لعبوديته حتى يُمَكِّن الإيمان من نفسها، وكيف تظهر قدرة الله هنا؟ تظهر كما ظهرت على يد موسى، حينما ألقى عصاه فالتقمت ما يأفكون، وكما ظهرت على إبراهيم فكانت النار بردًا وسلامًا عليه، والله سبحانه سخر الجان والريح لسليمان وعلمه منطق الطير، أراد سليمان أن يستظهر قدرة الله في تلك الأشياء التي سُخرت له ويريها إياها، ففكر، هل الريح تقدر على حمل عرش بلقيس وتأتي به إلى مجلسه قبل أن تدخل الملكة إلى قصره وهي الآن على الأبواب، لو أمرها لأطاعت فهي مسخرة له، ولكن ناموس خلقها لا يمكنها من هذا، فالملكة على الأبواب والعرش بعيد والريح تغدو وتروح وفقًا لسرعتها التي ستقطعها، وللمسافة التي سترحل إليها، فقد علمه الله أن الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وهو لو ارتكن إليها فلن يستطيع أن يحقق مقصوده، فهل الطير يحقق مقصده، لن يستطيع لا بالسرعة ولا بالقوة، إذن فليكن الجن،

وهنـا وفي تلـك اللحظة قال عفريت من الجـن ـ وعفاريت الجن هي الأقوى والأسرع - ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: بمقـدار أن تنتهـي مـن جلسـتك هـذه، وقبل أن يبرم سـليمان أمرًا، قـال ذلك الرجـل الذي كان في مجلس سليمان، ويقولون: إن اسمه آصف بن بارخيا).

ارتفـع صوت مصطفـى: آصف بن بارخيـا، هذا الذي ذكرت لنا اسـمه عندما رأيت التلفزيون؟

تدخل غريب: وسـبحان الله يا إمام، الله سـخَّر الجـان والريح لسليمان، وعلَّمه منطق الطير وجعل له هيمنة على كل هذه الأشياء، كان لسليمان ملك لا ينبغـي لأحـد من بعده، ومع ذلك لم يأت العرش عن طريق الأشـياء التي سخرها الله له، ولا عن طريق العلم الذي أعطاه له، ولو كان لديه علم بكيفية إحضار العرش في لا زمن لاستخدم هذا العلم بنفسه ولما طلبه من أحد.

استكمل ابـن حنبل (هذا صحيـح لذلـك ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ هـذا الرجـل وصفـه الله بأن عنده علمًا من الكتاب، وهذه العندية كانت من فضل الله عليه، والذي عنده ليس هو «العلم» فـالله هو العليم صاحـب العلم، أما هذا الرجل كغيره من المحسـنين والأنبياء والرسـل كان لديـه علم؛ أي قدر قـدره الله له، وبهذا العلـم الذي عنده ركب طبقًا غير طبق حياتنا، ودلف إلى مكان له سنن كونية أخرى وزمن له مقاييس أخرى، وسار فيه ما شاء الله له أن يسير، ثم أحضر العرش، وعاد قبل أن يرتد طرف سليمان إليه، وربما يكون قد سار في المكان الآخر شهورًا وسنين، ولكنها كانت بالنسـبة لزمننا طرفة عين، وليعلم كلاكما أن سـليمان لم يستطع إحضار

العرش بالأشياء التي سخرها الله له كما قال غريب منذ قليل، إذ عجزت هذه الأشياء - بنواميسها الخاصة - مع خروقيتها للنواميس الكونية، ولكن العرش جاء عن طريق رجل أعطاه الله علمًا غير الذي عند سليمان وإلا لكان سليمان قد ركن إلى العلم الذي عنده، وعندما رأى سليمان العرش مستقرًّا عنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: إنه لا حيلة لي ولا حيلة لك أيها الرجل الذي عنده علم، في إحضار العرش، ولكن العرش بفضل الله محمول).

قال مصطفى وأنفاسه تتلاحق من فرط الدهشة: سبحان الله، كان حقه آصف بن بارخيا يحضر لزمننا ويأخذ عرش مبارك ويريحنا من غير ثورة.

غريب يوسف: مبارك؟! من مبارك يا مصطفى؟

- سأحكي لكما، أصلها حكاية طويلة.. يحزنك يا مبارك ويحزن أيامك، لكن آخذ نفسي وجدي يهدأ وسأقول لكما كل شيء.

أسند ابن حنبل ظهره إلى ظهر الأريكة والتمس رشفة ماء فناوله مصطفى الكوب، أما العمدة غريب فكان في حالة الرجفة التي اعترته مذ بدأ ابن حنبل في الكلام، ومصطفى هذا المكلوم في ولده شعر أن الله وضع يدًا حانية على قلبه، قال ابن حنبل لمصطفى وهو يزدرد ريقه: أخبرنا يا مصطفى عن أحوال هذا الزمن وأخباره، وما الذي حدث في الحياة الدنيا، وما الذي جرى على الخليفة المعتصم والمسلمين، وهل بغداد هي حاضرة الخلافة، وما الذي في مصر؟ ومن هو مبارك الذي ذكرت اسمه الآن، ولماذا دعاؤك عليه بالحزن؟

أجاب مصطفى وهو يقدح زناد فكره: اسمع يا مولانا وصلِّ على النبي، عن المعتصم فهذا موضوع قديم يا إمام، كنا قد أخذناه في التاريخ، وأعرف

أنك حاربت عن الأمة في فتنة خلق القرآن، لكني لا أعرف أكثر من ذلك وما الـذي حدث بعد هذا، ولكننا كنا نحفـظ مقولة هي «وامعتصماه» ولا أتذكر ظروفهـا، فهل نقـول «وامعتصـماه» لهذا المعتصـم الذي جلـدك، أم لمعتصم غيره؟ الله أعلم، والكذب خيبة.

غريب يوسف: إذن قل لنا أخبار هذا الزمان.

مصطفـى: هـل أحكـي لك يا جـدي... يـا.. يا حـضرة العمـدة، أخبار السعيدية والعائلة؟

غريب: لا تحكِ لي شيئًا عن هذا، لا أريد أن أخترق عوالم تؤرقني، ولكن قل لنا عن أحوال مصر والعرب والمسلمين.

أخذ مصطفى يروي لهم قصة العالم الذي نعيش فيه وأحواله، والأمم التي تسـيدت علينا، والحكام الطغاة الذين حكمونا، والعراق، وإيران، وأمريكا، والخليج، واليهود، وفلسـطين، والمسجد الأقصى الأسير الذي ينتهك في كل لحظـة دون أن يتحـرك المسـلمون والعرب إلا بالشـجب والتنديـد، قال لهما والدموع تطفر من عينيه أبيات شعر حفظها وانفعل بها:

يا جالسـون على العـروش ألـم تروْا ... أن العروبـة مــن يهـودٍ تغتصـب

دارالزمـانُ ولسـنا نــدرى نصـــرةً ... بغـدادُ أرضٌ للمنـايـا والعطـب

هذي الجموع تفاسـدت فـي قدسـنا ... ورجـالنا مثـل الصبــايا تنتحـب

ثم بدت الفرحة على قسمات وجهه وهو يتحدث عن ثورة مصر وثورات الربيـع، ثم انتهى وجهه إلى خيبـة الأمل وهو يحكي عن نتائج هذه الثورات، وقال حينها: والله احنا ناس حزانى، حتى الطيب ليس لنا فيه نصيب.

ثـم اسـتطرد في حديثـه فتكلـم عـن الحركـة الإسـلامية، والجماعـات الإسـلامية، والإخـوان، والدعوة السـلفية، والمشروع الإسـلامي والنهضة الإسلامية،والأزهر الشريف ومدرسته العلمية، وهلم جرًّا.

خيبة أمل كبيرة مغموسـة في بحر الاسـتفزاز افترست ابن حنبل وغريب وهما يسـتمعان إلى حال الأمة: «هل هذه أمـة أم غُمة؟» هكذا قال ابن حنبل وهو يتصعب على مآلنا.

اسـتطرد مصطفـى عاطفًـا عـلى أحـوال الدنيـا ومسـتجداتها العلميـة والاختراعـات الحديثـة، والطائرات، والسـيارات، والكمبيوتر، وشـبكات التواصل «الإنترنت» وأسلحة الحرب الحديثة، وكل شيء.، انفعل ابن حنبل مع كل حديث عن مخترع من المخترعات وتفاعل مع حكايته، ولكن دهشـة غريـب كانت أقـل لأنه كان قريب عهد بهذا الزمـن، ثم تحدث مصطفى عن لغات العالم: الإنجليزية، والفرنسـية، والألمانية، والروسية، وروى لهما بأسى كيف أن اللغة العربية تأخرت، فبعد أن كانت في الحضارات السابقة هي لغة العلم، أصبحت الآن لغة ثانوية لا يحفل بها العالم.

ثـم عرج مصطفـى على قصته هو، ووفاة ابنه، وانفطار قلبه حزنًا على هذا الحبيـب الـذي غيبه الثرى، وكيف أن هناك رجلًا غريبًا جاء له في المنام وحثه عـلى الذهـاب إلى القبر، فذهـب واسـتمع إلى أصواتهما، فكانـت النجاة هي سبيلهما الذي كتبه الله لهما.

كان مصطفى يتكلم، والشيخان يستمعان، لا تظن أبدًا أنهما كانا يستمعان

بآذانهما، ولكن كيان كل واحد منهما تحول إلى أذن كبيرة بحيث لا مجال في جسد أيهما لأي حاسة أخرى، هل تعرف كيف يغطس الإنسان في القصة التي تُروى له ليعيشها؟ كان هذا هو حالهما.

بعد أن انتهى مصطفى من كلامه راح ابن حنبل يحدق في الحائط وهو شارد الذهن، أعمار مضت، وأعمار انقضت، دنيا ذهبت، ودنيا جاءت، أمم ارتفعت، وأمم تهاوت، حضارات انقرضت، وحضارات بزغت، أقوام ماتوا، وأقوام ولدوا، لغات انطمرت، ولغات بُعثت، ودائرة الحياة تسير في مسارها الطبيعي لا تنقطع أبدًا، لم تتوقف الحياة لموت أحد ولو كان أعظم العظماء، حتى الرسول ﷺ، مات واستمرت الحياة، يقول مصطفى إن علمهم الحديث أثبت أن القمر يطوف حول الأرض، وهي تطوف حول الشمس، هكذا كنا نعرف، وهكذا قال لنا خالق القمر والأرض: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾، ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ثم قال لنا مصطفى إن الشمس تطوف، كل الكون يطوف ويطوف، ونبقى نحن، فكان أن عبَّدنا الله له بالطواف حول الكعبة، ومع ديمومة الطواف، تتواصل الأعمار مع الأعمار، فيكون الجد والابن والحفيد وحفيد الابن وهكذا، وتظل سلسلة الخلق إلى أن يقضي الله أمره فيبتلعنا يوم القيامة، ثم يقذفنا يوم البعث والنشور، وكل هذا حدث في علم الله، فنحن الآن ولدنا، ومتنا وبعثنا، وحوسبنا، ودخل من دخل إلى الجنة ودخل من دخل إلى النار، ودخل الخلق في رحمة الله.

غريب يوسف كان في حالة الوجد والصبابة التي تحتويه في جلسات

ذكـر الله، ظـل جسـده يرتعش فـترة ومصطفى يبلـل يده بالماء ويمسـح على وجهه حتى استعاد رباطة جأشه،واستنامت أنفاسه على وتيرة هادئة.

قطع ابن حنبل فترة الصمت: من هم يا مصطفى علماء السـلفيين الكبار، وعلماء الإخوان، وعلماء الأزهر.

- علـماء الأزهـر في الجامع الأزهر وجامعته، وعلـماء الإخوان في مكتب الإرشاد، وعلماء السلف يا إمام في كل مكان وكل محافظة.

- من أعلم شيوخ الأزهر؟

- الـذي أعرفـه هو شـيخ الأزهر يقولـون عنه إنه عالم كبـير، وعن نفسي رأيـت في التلفزيون شـيخًا أزهريًا قال درسًـا جميلًا، وكلامـه كان مختلفًا عن باقي الشيوخ.

- من هو؟

- اسمه الشيخ سعد الدين الهلالي.

- ومن أعلم شيوخ الإخوان؟

- الإخـوان أهـل سياسـة وحكـم، ويقولـون: إن لديهـم علـماء ولكنني لا أعرفهم.

- قل لي عن السلفيين، من أكبرهم وأعلمهم وأشهرهم؟

- أمـا عـن من أعلمهم فـالله أعلم، كل واحد منهم يقـول: إنه أعلم أهل الأرض، وكلهم حنابلة وعندهم شـهرة كبيرة، لكن أشـهرهم واحد اسـمه أبو إسماعيل الرويني، ومعه الشيخ محمد حسانين.

- حنابلة! كيف؟

- يتبعـون مذهـب الإمام ابن حنبـل والإمام ابن تيميـة والإمام محمد بن عبد الوهاب.

- هل تقصد بابن حنبل أنهم يتبعونني؟

- نعم، عفوًا، فقد نسـيت أنك ابن حنبل شـخصيًا، علماء السـلفيين كلما سـألناهم عـن شيء قالوا: قال ابن حنبل، أو ابـن تيمية، ومن تضييقهم علينا جعلوا حياتنا كلها حرامًا.

- ومن هو ابن تيمية؟

- يا دين النبي ألا تعرف ابن تيمية يا إمام؟!

- لم أسمع عنه في زمني.

- يقولون: إنه من علماء مذهبك.

- ولكننـي لسـت فقيهًـا وليس لي مذهب، أيـن أنا من الشـافعي ومالك والليث بن سعد؟

تكلـم غريب بعد أن ظل فترة سـادرًا في صمته: يـا إمام لنا مهمة علينا أن ننجزها، يجب أن نختلط بالناس لنعرف ما هي الفتن التي تتعرض لها الأمة، ويجـب أن نعاينها ونقف عـلى خبرها، وأنت إمامنا، فعليـك أن تواجهها كما واجهت فتنة خلق القرآن، وأنا معك، لن أتركك، سـأتبعك حتى تُعلمني مما عُلِّمت رشدًا، وسأنصرك إن شاء الله.

قـال مصطفى، وحاله يختلف عـن الحال الذي كان يحتويـه من قبل: وأنا معكما، أنتما أمانة أرسـلها الله لي، وسـأحافظ عليكما ما وسـعني الجهد. والله على ما أقول وكيل.

قام مصطفى، ووضع لكل واحد منهم بعض الملابس في حقيبة، وفي أثناء ذلك أدخل كل واحد منهما الحمام ليغتسلا مما علق بهما من أتربة وعرق ودماء. تخلـص ابن حنبل من الأربطـة الطبية التي وضعها مصطفى على ظهره لتمنع تلوث الجروح وارتدى جلبابًا أبيض وسـترة صوفية بنية اللون، وحين طلب عمامة عثر له مصطفى على طاقية فرضي بها، وطلب غريب يوسف طربوشًا، فأخـبره مصطفى أن الطربوش قد انقرض، وأعطاه هـو الآخر طاقية رأس، وبعد أن عاد النشـاط يسري في جسديهما، وأخذت الدماء تجري في عروقهما، تركهـما مصطفـى هنيهة ثم عاد قافـلًا وقد ارتدى جلبابًا جديـدًا، وأخذ يعد بعض الأوراق النقدية ووضعها في جيب سرواله.

الحـق أن مصطفـى كانت نفسـه قد عافـت الحيـاة، وتغلب عليه شـعور الرغبـة في العزلـة وهجر كل الناس، وتـرك لحيته ولم يهتـم بهندامه، وكان إذ ينفـرد بنفسـه يأخـذ في البـكاء، وحين الصلاة كانـت دموعه تنهمـر دون أن يتحكم فيها، حتى أن يسـتحضر معاني الآيات والأدعية، فكر كثيرًا أن يترك البلـد ويهجرها ويذهب إلى حيث لا يعرفه أحـد، يجلس على الأرصفة وينام في المسـاجد، لا يحمـل همًّا لدنيـا، ولا ينتظر إلا الآخرة، ولـو لا أن إيمانه كان راسـخًا لفكّـر في الموت واسـتشرفه، لذلك كان النوم بالنسـبة لـه بديلًا عن الموت، فاسـتبدت به الرغبـة في النوم، فكان يقضي يومه مـا بين زيارة نور في الجبانة، والنوم على الأرض في حجرته، ولعل الرغبة في الانعزال عن الناس،

وهجر البلد، والسياحة في بلاد الله الواسعة، ثم إدمان النوم واستطيابه،كل هذا كان شكلًا من أشكال الهروب من الطامة التي وقعت على رأسه؛ إذ لم يستطع أن يواجهها فكانت هذه هي وسائله في الهروب، فالإنسان وهو في سبيله للدفاع عن نفسه ضد غوائل الأيام يتبع وسائل كثيرة أغلبها هجومية، فإذا وجد أن ما تعرض له أكبر من قدرته على المواجهة اختار طريق الهرب، والنفس تملك في ذلك حيلًا كثيرة، لذلك عندما اشتدت وطأة الحزن عليه مع عدم قدرته على ترك البلد وهجر الناس، أصدر عقله الباطن ونفسه الخفية قرارًا للسانه أن يتحرك ببطء وتؤدة حتى لا يُحَدِّث أحدًا، أو يتحدث إلا النزر اليسير، فكان أن أصاب الثقل لسانه ولحقته بعض اللعثمة، وإن كان قد تغلب على لعثمته سريعًا وإن مال إلى الصمت الدائم بعد ذلك، وإذ كاد أن يستسلم برغبته لليأس والاكتئاب، أرسل الله له هذين الرجلين ليخرجاه من الدنيا الضيقة التي كان فيها، إلى العالم الرحب، وساعده في هذا الخروج قلبه الحيي المفعم بالإيمان، وتلك القصة الغريبة التي حملاها معهما، وبعد أن كان قد قرر أن يعتزل البشر وحوادثهم، ما لبث أن قرر أن ينساب في خضم الحياة العادية ليؤازر الأمانة التي أرسلها الله له.

وفي لحظة فارقة في حياته عاد إليه نزق الصغار يراوده ويستثير شغبه، وحين رأى العزم باديًا على الرجلين، شعر أن قلبه اعتمل بالرغبة في استكشاف المجهول، هو الآن سيسير مع مجهولين إلى طريق مجهول، ولن يخبر أحدًا من أهله عن مكانه الذي سيذهب إليه، ولا عَمَّا انتوى عليه، سيختفي دون أن يخبر أحدًا.

■■■

الصعـــود إلى الســحــاب

جلس عطية الكحلوت في المسـجد النبوي ينتظر درس الحديث الشريف الذي سـيلقيه الشـيخ «أبو بكر الجزائري» تأخر الشيخ اليوم على غير عادته، ولكـن هنـاك من أكد أنه سـيأتي ولـن يعتذر، كان درسـه الفائـت عن الحج ممتعًـا، تعلم منه عطية الكحلوت أشـياء كثيرة لم يكن يعلمها، ومن أجل هذا صمم على أن يحضر دروس هذا العالم ليأخذ منه ما يسـتطيع: «سـأبحث عن طريقة تقربني من هذا الرجل، وسـتكون أيام سـعدي قد هلّت لو استطعت الاقـتراب من الشـيخ ابن عثيمين، يقولـون: إنه حُجة وأسـلوبه وطريقته في الدرس في منتهى السهولة.

رأى عطية حركة في المسـجد فأدرك أن الشـيخ أبا بكـر الجزائري قد جاء للدرس فتحـرك سريعًا إلى حلقته، وبعد أن انتهى الدرس غادر عطية المكان إلا أنـه لم يغادر المسـجد، إذ ذهـب إلى موضع «أهل الصُّفـة» وجلس وحيدًا يستعيد ما فات من أيامه، أهناك صلة بينه وبين أهل الصُّفة؟ نعم فأهل الصفة كانوا غرباء عن المدينة وهو الآن يشعر بغربته أكثر من أي وقت مضى، وأهل الصفـة كانـوا من الفقـراء، وهو الآن لا مـال معه ولا دنيا، فغنـي عن الذكر أنه لم يوفق إلى الآن في العمل بالمسـتوصف الطبي ككاتب حسـابات، وغاية ما حدث له أن وقف على فرشة من فرشات الشيخ «حمدون» اليمني يبيع فيها العطور والمسـاويك والجلابيب وسجاجيد الصلاة والسِّبح، أما المستوصف فقد خضع لاختبار فيه ولكنه لم ينجح، إذ أنى له أن يعرف القواعد المحاسبية

وإمساك الدفاتر وهو الذي كان ينجح في مدرسته التجارية بالكاد، فضلًا عن أنه لم يخض غمار هذا العمل طوال السنوات الأربع التي تلت تخرجه، وزاد وغطى عن هذا أن السحاتيت التي يأخذها من الشيخ حمدون كانت قليلة لا تكفي احتياجاته: «يكفي أنني وفرت لك مأوى تسكن فيه» كان يقولها له وكأنه يعايره.

« أنا الآن أؤمن أن الفقراء لادولة لهم ولا كرامة، قرشك هو نسبك، وعزك، وفخرك، ودينك» هذه هي الكلمات التي كانت تلح على قلبه وتسيطر على أفكاره، أليس من أجل القرش ضرب أباه وأوقعه على الأرض جريحًا؟!

« لست أنا الملوم، هو الغلطان من قدَمِهِ إلى مَفْرِقِ رأسه، أيضِنُّ الأب على ابنه بألف جنيه تقيم مستقبله ! قلت له إنني سأكفيه مصاريفي، وتذاكر الطائرة، ولكنه مع ذلك صمم وقام يجري خلفي ليمنعني من بلوغ الصندوق الحديدي الذي كان يكتم أسرار ما فيه عن الجميع، حتى إن أمي المغلوبة على أمرها لم تكن تعلم ما هذا الكنز المخفي في هذا الصندوق السحري، وكانت تسميه هزلًا صندوق علي بابا».

« أنا لم أضربه بالنبوت أبدًا، وإن كان هو قال هذا لأهل البلد، أنا فقط هددته بالنبوت، ولكنني دفعته بيدي فوقع على الأرض، فأمسك بقدمي وعضها عضة ما زالت علامتها بادية حتى الآن، فرفسته بقدمي حتى أتخلص من عضته فجاءت الرفسة في أنفه فداخ وسال دمه».

«خمسة آلاف من الجنيهات كانت في الصندوق الحديدي ذي القفل! لم تكن ثمة صعوبة في كسر القفل، ولكن الصعوبة كانت في عد الجنيهات والقروش التي بالصندوق، إذ إن تفرقها واختلاف فئاتها جعل المهمة شاقة، ولكنني كنت في بحبوحة من الوقت لأنني أغلقت باب الحجرة بالترباس من الداخل، لذلك لم أحفل بصراخ أمي ولا بعويل أبي، وما إن انتهيت من عد المال حتى وجدت الطرق يتزايد على باب الحجرة وسمعت صخب عدد كبير من الناس، فوضعت ألف جنيه في جيب سترتي، وقمت لأفتح الباب للطارقين».

– يا عالم، ياخلق هوه، يرضيكم أن يحرمني أبي من مصاريف سفري للسعودية حتى أبني مستقبلي وأبعث له ما أستطيع كل شهر؟

– أليست أموال أبي هي ميراثي من بعده، وهي حقي ومستحقي؟

– ومع ذلك فهو باسم الله ما شاء الله كان لديه بالصندوق الكثير من المال، أنا فقط أخذت النزر اليسير.

«خاف أبي أن أفشي أسراره المالية لأهل البلد، فأخذ يقاطعني حتى لا أستكمل الحديث، وما صدق أن قال أحدهم: صلوا على النبي يا جماعة، هذا شيطان دخل بينكم، فوافقه أبي واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وفهمت أنا ما استقر في خاطر أبي، فقمت مقبلًا رأسه أمام الجميع، ويا دار ما دخلك شر، صافي يا لبن، حليب يا قشدة».

«وقبل أن ينصرف الناس أحضرت رغيف عيش وقطعته نصفين وقبّلته

ووضعته على عيني وأنا أقسم: والنعمة هذه، والنعمة هذه، سأبعث لأبي كل شهر ما يكفيه ويكفي أمي».

خـرج عطية إلى الجُحر الذي يقيم فيه، تعوَّد ألا يدخله إلا للنوم فقط، أما يومه فيقضيه كله بين الفرشة والمسجد النبوي والمحل الصغير الذي يستأجره الشيخ حمدون اليمني في الجهة المقابلة للناحية الغربية للمسجد، لم تكن الحجرة التي يقيم فيها عطية مؤهلة للسـكن إذ إن الشيخ اليمني يستخدمها كمخزن لبضائعه، ولذلك لم يكن فيها أي منافع كباقي المسـاكن، فلم يكن أمام عطية إلا أن يقضي حاجياته الإنسانية في حمامات المسجد النبوي ودورات مياهه.

«أقسـم أن هذا الجحر الكئيب ذا الرائحة العطنة سـيخرج منه عالم الأمة، أنا لا ينقصني شيء كي أبز الجميع، الكلام الذي يقوله الشيخ راضي سلطان محفوظ ومكرر، والكل يأخذ من خطب الشيخ كشك ويتبع طريقته، وللعلم طريقة الشـيخ كشك هي أسـهل طريقة، وخطبته من السـهل تقليدها، أذكر أننـي خطبـت مرة في زاويـة صغيرة بمدينة نـصر عندما كنـت أعمل في أحد حوانيتهـا، وكان للخطبـة « شـنَّة ورنَّة» يومها قمت بمد الكلام مثل الشـيخ كشـك، ورفعت صوتي وانفعلت، وأخذت أقول يـا عباد الله اذكروا الواحد الديـان، ثـم أخذت أضع حديثًـا من هنا وآية من هناك، وقصـة من الرقائق، عـلى قصـة من قصـص بنـي إسرائيل، حتـى اسـتمتع المصلون أيما اسـتمتاع وطلبوا مني أن أداوم عليهم فوعدتهم قائلًا: على قدر المستطاع إن شاء المولى عز وجل.

طريقة الشيخ كشـك سهَّلت لي أشياء كثيرة، فالرجل على تمكنه من اللغة العربية الفصحى إلا أنه في خطبته كان يخلط العامية بالفصحى كثيرًا، وبذلك فتـح لي ـ وأنـا غـير متمكن مـن اللغة ـ أن أسـهب في الخطابـة بالعامية، وقد اكتشفت أن العامية كانت تحرك قلوب العامة وتهز مشاعرهم.

وكـما قـال لي أبي ذات يـوم: إن زامـر الحـي لا يطـرب وكل شـجرة ولها بلبلها،لذلـك لم تلـق خطبتـي في بلـدتي روينـة أي صدى، بل أخـذ الجهلاء يسـتهزئون بموضـوع الخطبـة ويتفاكهون بشـأنها، كنت واثقًا مـن أن الغيرة سـتنهش قلوب شـباب الأزهر بالبلد الذيـن كانوا يظنون أنهـم جمعوا العلم كلـه، فصعـب عليهـم أن يقف على المنبر واحـد دبلوم تجـارة ويتفوق عليهم فأشـبعوني غمـزًا ولمـزًا، كل هـذا لأنني قلـت في الخطبة وأنا أمـط في الكلام كعـادتي: «هـل تعرفون حـووووت يونس، الحـوت الذي ابتلـع يونس عليه السـلام؟ هـل كان ذكـرًا أم أنثـى؟ وهـل تعرفون نملة سـيدنا سـليمان، هل كانـت ذكـرًا أم أنثى؟ تعلمـوا العلم أيها النـاس وعلموه، فالعلـم هو طريق الإيـمان، وحّـدوا الواحد الديان، صلوا على النبـي محمد الذي أشرقت بنوره الظلـمات، أنـت يا مـن تجلـس الآن في آخر الصـف بالمسـجد، رأيتك وأنت لا ترطب لسانك بالصلاة على سيد الخلق أجمعين، قولوا معي اللهم صل على سـيدنا محمد طب القلوب ودوائها، وعافية الأبدان وشفائها، ونور الأبصار وضيائها، وقـوت الأرواح وغذائها، وعلى آله وصحبه وسلم تسـليمًا كثيرًا، عـدد ما أحاط به علمك وخط به قلمـك وأحصاه كتابك، صلينا على النبي، وزدناه صلاة، اسـمعوا مني الإجابة، أما حوت يونس فقد كان ذكرًا لأن الله

سبحانه قال في كتابه الكريم: ﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ ﴾ ولو كان أنثى لقال: «فالتقمته الحوت» ونملة سليمان كانت أنثى لأن الله سبحانه يقول في كتابه الكريم: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ ولو كانت ذكرًا لقال سبحانه: «قال نملة» صلوا على النبي».

«الذي قلته في الخطبة هو العلم الصحيح وقد سمعته من عدد كبير من الشيوخ وتأثرت به، فما بال هؤلاء لا يأبهون لهذا العلم ويستصغرونه؟ إنهم في الحقيقة لا يستصغرونه هو وإنما يستصغرونني أنا، فأنا منذ أن درجت بينهم وأنا صغير في عيونهم، ما أنا إلا ابن الكحلوت خادم المسجد الفقير المهان».

«هذه هي الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، حتى الشيخ راضي سلطان كان ينظر لي على أنني خادمه الخاص، فحين قلت له في يوم من الأيام: دعني ألقِ درسًا على المصلين بعد صلاة المغرب في أي يوم تراه، فما كان منه إلا أن ضحك بملء شدقيه وقال: «والله هزلت، هذا هو الذي كان ينقصنا، عطية سيعطي درسًا!».

«لا أنسى أبدًا نظرته المتغطرسة لي آنذاك، ولا كلماته القاسية التي أشبعني بها، هل قلة شأن عائلتي وفقرها جعلني صغيرًا إلى هذه الدرجة، حتى في الإخوان كان الأمر مماثلًا، فعندهم أولاد الذوات، وأولاد الجارية، وأنا كنت من أبناء الجارية، فعندما انتقلت للعمل في القاهرة، حملت خطاب التوصية من الأخ مسئول محافظة كفر الشيخ للأخ مسئول القاهرة، وعندما عرف مؤهلاتي ودراستي وأنني أسكن مؤقتًا في شقة صغيرة بمنطقة ألماظة

يقيم فيها بعض أبناء البلد، ألحقني بأسرة إخوانية في مصر الجديدة، ومنها قاموا بإلحاقي بعمل في حانوت البقالة الذي يمتلكه أحد كبار الإخوان في مدينة نصر، وكانت إقامتي ومبيتي بالمحل هما طوق نجاة لي من استئجار حجرة لا أقدر على دفع إيجارها، ولكن الأخ عبود الذي معي في الأسرة والذي جاء أيضًا من كفر الشيخ، قد تم إلحاقه بالعمل في شركة منسوجات كبيرة مملوكة لأحد أعضاء مكتب الإرشاد، وقطعًا كان راتبه كبيرًا، والناس مقامات، فعبود هذا كان طالبًا في السنة النهائية بكلية الألسن أما أنا فدبلوم تجارة متوسطة».

«وليت الأمر كان مقصورًا على وظيفة «صبي البقال» التي ألحقوني بها، ولكنهم كانوا يستعملونني في الأشياء الحقيرة، فيكلفونني مثلًا أن أقف مراقبًا للعمال الذين يجرون تعديلات بمقر الإخوان بمنطقة التوفيقية، أو أن أحمل أشياء وأوصلها لبيت الحاج مصطفى مشهور، أو أن أكون سائقًا للحاج أحمد حسانين عضو الإرشاد وهو ذاهب لكفر الشيخ كي يلتقي الإخوان هناك، بالعربي الفصيح كنت مثل «عسكري المراسلة»، في مصر لن تكون لي قيمة، فأنا مضطهد من أجل نسبي وفقري، وغيرة البلداء الأغبياء مني، لذلك كان السفر للسعودية هو الحلم الذي استحوذ على كياني، فبها سأرتفع ويرتفع قدري في كل شيء».

كانت عقدة الاضطهاد قد تمكنت من عطية فذكرياته المشحونة بشدة كانت تبحث له عن الحل السحري الذي يلقي باللائمة على الآخرين دائمًا، لذلك فإن المصاب بهذه العقدة تجده دائم الشكوى من أن العالم كله ضده،

وأن سبب عدم تحقيقه أحلامه ليس لأن هناك مشكلة في هذا الحلم، أو في أسلوب سعيه لتحقيقه، أو ربما لكسله أو قلة حيلته أو صفاته الأخلاقية، بل لأنه مظلوم مقهور ومنكل به! سخرية شباب قرية روينة من خطبته لم تكن بسبب ضعف الخطبة أو تفاهتها أو خطأ منطلقها، ولكن بسبب أنه مضطهد، رفض الشيخ راضي سلطان أن يمكنه من إعطاء درس بالمسجد ليس بسبب أنه لم يكن مؤهلًا بعد للخطابة، ولكن لأن الشيخ يضطهده ولا يريده إلا خادمًا له، قيام الإخوان بإلحاقه بعمل تافه وتكليفه بأشياء تافهة ليس بسبب ضعف مؤهله العلمي وقلة خبرته وحداثة التحاقه بالجماعة، ولكن لأن قياداته في الجماعة تضطهده خوفًا من أن يأخذ موقعها، هذه العقدة التي أصابته تغلغلت إليه وتسربت لمشاعره من خلال ضعف نفسيته؛ لذلك فقد كان استقرارها في عقله الواعي هو مجرد محاولة للتعويض، ومن نتائج هذه العقدة عند عطية أن أصبح شخصًا شديد الحساسية للانتقاد، وكان سرعان ما يشعر بعدم الأمان في أي مرحلة من مراحل حياته، ولكي يهدهد مشاعره التي وقعت تحت وطأة الاضطهاد المصطنع فقد ظل عمره يطلب من الآخرين أن يوافقوه على آرائه، وأن يطيعوه طاعة عمياء لأنه كما كان يقول لهم: «ما أنا عليه هو الحق ولا حق غيره، والعلم الذي أعطانيه الله لا علم بعده» وكان في قابل أيامه يأخذه العجب بنفسه عندما كان أتباعه يقولون عنه: إنه أعلم أهل الأرض!

أخذ عطية يتردد على دروس الشيخ أبي بكر الجزائري، واستطاع بطريقة تزلفه أن يقترب منه ويتحول إلى خادمه المطيع، ثم انفتحت له أبواب ليلة

القدر عندما حل على المدينة الشيخ الكبير العلامة ذائع الصيت محمد ناصر الدين الألباني، فقد استطاع في اليوم الأول ـ من خلال الشيخ أبي بكر الجزائري ـ أن يقترب من الشيخ الألباني وكانت الفرصة سانحة فانكب على يد الشيخ مقبلًا إياها والشيخ يجذب يده وعطية متمسك بها وكأنها أصبحت من أملاكه الخاصة، يالحظه الحسن، هو في معية الألباني.

وكان الباب الثاني من أبواب ليلة القدر قد أطل عليه وأطال النظر له قبل زيارة الألباني للمدينة، إذ أسر له خلسة أحد الإخوة الهنود الذين يعملون معه على فرشات الشيخ حمدون أن للشيخ ابنة اسمها «أساور» وصلت إلى سن الزواج وأن حمدون لن يمانع من زواجها منه إن تقدم لها.

أخذ عطية يقلب الأمر على جميع الوجوه، هذا الشيخ اليمني مقتدر ومعه مال كثير، ولديه أملاك في بلاده، كما أنه سمع بعضهم يهمس أنه في طريقه للتجنس بالجنسية السعودية، ولكن قد تكون البنت دميمة الخلقة «ومنذ متى وأنت تهتم بالجمال يا سي عطية، أنت في وضع لا يسمح لك بالاختيار، أتذكر أيام أن كنت تذهب لبيت «زغلولة» في الإسكندرية للمتعة، لم يكن يهمك شكل من ستقضي معها ليلتك، المهم أن تفرغ طاقتك».

وكانت ليلة لا يمكن أن ينساها عطية، عقد زواجه تم على يد الشيخ ناصر الدين الألباني وبشهادة الشيخ أبي بكر الجزائري، والشيخ عبد العزيز بن صالح إمام المسجد النبوي، وأظن أنه ليس من اللائق أن نتحدث عن أن عطية فوجئ بأن زوجته أساور أكبر منه بعامين، وأن سوق زواجها كان

راكـدًا نظـرًا لأن الله لم يهبها وجهًا حسـنًا، أو خلقة مليحـة، بالإضافة إلى أن سـمنتها كانـت مفرطة بشـكل مـرضي، ولكن هذه الأشـياء الثانويـة لم تكن لتستوقف عطية، كل ما استوقفه أن أساور كانت سليطة اللسان متكبرة كأنها تداري بهذه الشُّـخامة افتقادها للجمال والحُسـن، مع أن النفس السوية تبالغ في الرقة والأدب وحسـن المعشر إذا كان صاحبها دميم الخلقة، ولكن نفوس الناس لا تسير على وتيرة واحدة أبدًا.

تحمَّل عطية الكحلوت سخيمة زوجته من أجل مستقبله، يكفيه أن يعود لقريته ويشـهر في وجوههم عقد زواجه ليعلم هؤلاء الساخرون المستهزئون به أن الشيخ الألباني بجلالة قدره هو الذي عَقَدَ زواجه، وأن العلامة أبا بكر الجزائري كان هو الشاهد الأول، مع إمام الحرم.

«والله لو أن الشـيخ راضي سـلطان بذات نفسه، سف التراب تحت أقدام هؤلاء المشايخ ما استطاع حتى أن يجلس معهم».

وبعد الزواج تيسر له الكثير من الأمور فغير أنه سكن وزوجه في شقة معتبرة بأطـراف المدينـة، فإنه عمل على الفور ككاتب حسـابات بنفس المسـتوصف الطبـي الـذي رفضه من قبـل، وترك الفرشـة التي كان يجلـس عليها وأصبح يجلـس مع حماه الشـيخ حمـدون بالمحـل المملوك له، يدير له شـئون حسـاباته التـي أخذ يتعلمها مـن كاتب الحسـابات الأصلي للمحل «عـم عبدالرقيب» الباكسـتاني، وسرعان ما ألم بأصول صنعة الحسـابات خاصة أنه كان دءوبًا في التعلم سواء من رئيسه في المستشفى أو من عم عبد الرقيب بالمحل.

زادت قيمة عطية عند حماه عندما حملت زوجته، وزادت الهدايا التي عرفت طريقها إلى بيته، ومع منتصف رحلة الحمل، شعر عطية لأول مرة بحنين جارف لمصر، كان هذا الشعور مستجدًّا عليه، هل كان فعلًا متشوقًا للوطن أم أنه كان يريد أن يتباهى أمام معارفه بما وصل إليه، يكاد يقسم بينه وبين نفسه أنه الآن أعلى في العلوم الشرعية من الشيخ راضي سلطان، فقد اكتسب مهارات جديدة، وجلس إلى الشيخ الألباني وعرف بعض مصطلحات علوم الحديث، وكانت ذاكرته القوية هي سنده في تثبيت هذا العلم في عقله.

أيًّا كان الأمر فهو يشعر حقيقة بالشوق للوطن مرتع الطفولة، وأماكن الصبا، وملاعب الشباب، جرفه الحنين لمسجد «الرحمن» ومسمط الرهوان، وكورنيش إسكندرية، ومحطة الرمل، وشارع محمد كُرَيِّم، وبيت زغلولة، شده الحنين لصديقه برهومة، ونقيب أسرته الإخوانية بكفر الشيخ الأخ «عبد النبي» وأيام الاعتكاف في المسجد في العشر الأواخر في رمضان.

وبينما هو جالس بعد صلاة الظهر في المستوصف أمام دفاتره مستغرق في أحلامه، إذا بأحد العاملين المصريين يهزه من كتفه وهو يصيح بفزع حقيقي: « الحق يا عطية، أنور السادات لقي مصرعه في العرض العسكري، التلفزيون أذاع الخبر منذ قليل».

- يا نهار اسود غطيس، من قتله؟!

- جيشه يا عطية، قُتل الرئيس وسط جيشه، فمن سيكون قتله غيرهم؟

ألقى عطية الدفاتر التي كانت أمامه وقفز جاريًا.

■■■

مرت الشهور على سفره ولم يرسل عطية لأبيه إلا الخطابات التي تتضمن فيضًا من المشاعر الجياشة، والأب المكلوم في جنيهاته الألف التي استولى عليها عطية انحسرت عنه مقطوعية المسجد، وهبات المأذون، فأخذ يفضفض لزوجته «أم الفرج» والحسرة تعتريه.

ـ الولد أرسل لنا كلامًا حلوًا لنأكله ونلبسه.

فتطيّب أم الفرج خاطره وتلتمس لابنها الأعذار، وبعد نصف عام أرسل عطية لأبيه حوالة مالية بأول مبلغ وكان قدره مائة ريال، وفي نهاية العام وصل لرمضان الكحلوت خطاب من عطية يخبره فيه بأمر زواجه، وأرفق مع الخطاب حوالة بمائة ريال.

قلب الأب من القلوب العجيبة، وقلب الأم أعجب منه، فالأب الذي كان ثائرًا على ابنه غاضبًا منه، هدأت ثائرته وسكن غضبه عندما علم بموضوع الزواج هذا، ولكنه تحسر من أن يُزف ابنه دون أن يكون واقفًا في عرسه يسلم على المعازيم، والأم بدورها زغردت من الفرحة إذ قرأ لها رمضان الخبر السعيد، ثم ما لبثت أن انهارت في البكاء، كان هذا البكاء يجمع بين الفرح والشوق لابنها، والحزن لغيابه عنها زمنًا، وتقصيره في حقهم، وجحوده لأبيه، ولكنها كانت تعرف ابنها عطية تمام المعرفة، هو في النهاية تأتي له دفقات الحنين فتخفي قسوته، وما كانت هذه القسوة إلا غطاءً يخفي تحته ضعفه، ولكنه في الحقيقة يحب أباه، وينحني قلبه عندما يسمع صوت أمه، ولكن كيف له أن يتزوج دون أن تصدح أم الفرج في فرحه بالزغاريد،

وهـل البنت اليمنيـة التي تزوجها جميلة وطيبة الخلق « أنا لا أعرف طبع أهل اليمـن، لكـن أبي قال لي قديـماً: إنهم من أطيب خلق الله لـولا أنهم يمضغون الشيء الذي اسمه القات، ولكنهم مع ذلك أهل دين ومروءة، يا رب اجعل زوجة عطية زوجة صالحة».

ثم سألت رمضان: ما اسمها يا رمضان؟

- اسمها أساور يا أم الفرج.

ضحكت أم الفرج وهي تقول: يا رب اجعلها أساور ذهب.

- وسأقول لكِ شيئًا يبهجك يا أم الفرج.

- خير يا أبا عطية.

- الذي عقد قران ابنك هو الشيخ الألباني.

- لماذا، ألم يكن هناك شيخ سعودي؟

- سـعودي مين أيتها الجاهلة؟! الشـيخ الألباني هذا هو عالم العصر، أكبر عالم حديث في العالم كله.

- وهذا الشيخ الكبير من معارف عطية ابنك يا رمضان؟

- عطيـة يقول إنه مـن معارفه وإنه يتعلم على يديه علـوم الحديث، ابنك سيكون عالمًا يا أم الفرج.

انطلقـت زغرودة أخـرى من أم الفرج ثـم أعقبتها قائلـة: والله وفلحت يا عطية يابن بطني، سأبل الشربات للجيران كلهم يا رمضان، أريد أن يعرف كل الناس إن ابني صديق للأكابر.

ويعد شـهور أخرى عندما وصل خطاب آخـر للأب من عطية أسرع إلى داره كـي يبـشر أم الفـرج أن زوجة رمضان حامل، إلا أنـه ذكر في خطابه أنه لن يسـتطيع إرسـال أي مبالغ أخـرى لأنه أصبح في حاجـة، وأنه الآن يجمع السـحتوت على السحتوت ليستطيع مواجهة النفقات التي ستستهلكه، وأنه سيؤجل دفع الألف جنيه لحين عودته إلى مصر.

- الله الغنـي يـا رمضان، نحن لا ننتظر منه قرشًـا ولا جنيهًا، المهم يكفي نفسه.

ومـن بعـد هذا الخطاب بشـهر توالـت الأحـداث على مسـتوى الدولة، وقامت الجماعات الإسلامية بقتل الرئيس أنور السادات في الحادث التاريخي الذي سـمي بحـادث المنصة وانشـغل الجميع بهـذا الأمر، ثـم روعت مصر بحـوادث إرهابية قامت بها جماعات جهادية اعتبرت أنها تجاهد في مصر ضد الكفر والكفار فقتلت الجنود، والأبرياء، الكبار والأطفال، وفجرت المحال، وقامـت مواجهـة كبرى بين الدولة ممثلـة في الجهات الأمنيـة، وهؤلاء القتلة الذيـن قتلوا وهم يحملـون في أياديهم فتاوى تبيح لهم هـذه الدماء، وأخذت هذه الجماعات تستقوي بالسـلاح وتنهب محال الذهب المملوكة للمسيحيين بدعوى أن أموالهم حلال لأنهم أهل كفر.

في هذه الفترة اختفى من السـاحة كثير من علماء الدعوة السـلفية، وانكفأ الشيخ راضي سلطان في بيته لا يغادره إلا لمامًا، وظهر رجال الإخوان يقدمون قرابـين الولاء للحكومـة، ويذهبـون في قوافل دعوية مع شـيوخ الأزهر إلى السـجون التي فيها أهل التطرف فيخطبـون فيهم ويحرضونهم على ترك فكر

التكفير الذي آمنوا به، وفتحت المساجد منابرها لكثير من شيوخ الإخوان، يخطبون في الناس ويقولون: إنهم أهل الوسطية والاعتدال، وإنهم والأزهر الشريف حائط الصد الذي سيقف حائلًا بين مصر والجماعات المتطرفة.

وفي نهار أحد الأيام جاء أحد الخفراء يطرق باب دار رمضان الكحلوت، وإذ فتح أخبره أن ابنه عطية اتصل عليه تليفونيًا عند دار العمدة وأنه سيعاود الاتصال عليه مرة أخرى بعد ساعة، وعليه أن يذهب الآن لدوار العمدة ليتلقى مكالمة ابنه.

هرع رمضان بعزم ما عنده من قوة، وحين وصل كان الدوار خاليًا إلا من خفير واحد، جلس رمضان القرفصاء على الأرض ينتظر مهاتفة ابنه، وعندما رن التليفون انقبض قلب رمضان، ما باله يخشى هذه المكالمة، ألأنها أول مرة يكلمه ابنه فيها تليفونيًا، أم لأنه كباقي المصريين ينتظر من المجهول - من كثرة الأحزان والآلام التي مرت به - خبرًا سيئًا، أو لأن غربة الأبناء تثير مخاوف وهواجس الآباء وتعض على قلوبهم؟

تعود المصري عبر آلاف السنين على السكن بين ضفتي النيل لا يغادرهما، فإذا تزوج ابنه أسكنه معه في الدار نفسها، فإذا تزوج ابنٌ آخر بنى طابقًا فوق بيته، ويتوزع الأبناء في الدار نفسها، لا يفارقون الأب، ويصبح بيته هو بيت العائلة، الأم بدورها لا تستطيع أن تطمئن إلا إذا كانت تشم ريح أبنائها، وتطمئن على أحوال كل واحد منهم؛ لذلك نشأ المصري منذ فجر التاريخ وهو يخشى الغربة ويمقتها، حتى إن الذي يقيم في محافظة من المحافظات إذا جاء إلى القاهرة فإنه يعتبر نفسه في حالة غربة، أما إذا ذهب إلى محافظة من

المحافظات النائية فهو في اغتراب للجسد والنفس معًا، فما بالك إذا ذهب إلى دولة أخرى، بيننا وبينها بحار وجبال!

وللمفارقة فإن الغربة الوحيدة التي كانت تتحملها الأم هي غربة ابنتها عندما تتزوج من رجل يأخذها إلى قرية بعيدة، أو محافظة أخرى، فتظل الابنة ترزح في غربتها، والأم تشرب من أساها، ولكنها سنة الحياة التي يذعن لها الجميع.

- ما أخباركم يا ابا، وما أخبار أمي، أنا قلقان عليكما.

- «الأشيا معدن» والحمد لله يا عطية، ما أخبارك انت وأخبار امرأتك، خايف تكون أخبارك ليست على ما يرام، قل لي بسرعة متى ستلد الست زوجتك؟

- قريب يا ابا إن شاء الله، لكن أنا كنت قلقان على الأحوال التي تعيشون فيها في مصر، وموضوع الجماعات الإسلامية و و و و. وأخذ عطية يسرد أخباره سريعًا ويستوثق من أخبار مصر حتى انقطع الخط.

بعد يومين طرق على بابه الخفير مرة أخرى، قال له رمضان: خير يا سالم تليفون من السعودية؟

- لا يا رمضان، تليفون من المركز.

- خير يا سالم.

- إشارة من المركز تطلب حضورك فورًا لمقابلة السيد معاون المباحث.

■■■

هذه هي المرة الثانية التي يدخل فيها رمضان إلى مقر من مقرات الحكومة، المرة الأولى كانت يوم أن ذهب للمحكمة مشكوًّا في حقه، أو بمعنى أصح كمتهم، إذ كان قد اشترى قيراط أرض ودفع عربونًا ثم بصم على «شيك» بالمبلغ المستحق عليه، كان يحدوه الأمل أن يرسل له عطية من السعودية ما وعد به من مال، إلا أن عطية لم يف بوعده، فحرر البائع ضده محضرًا بالمركز، وقامت النيابة باستدعائه لسؤاله وتوجيه الاتهام له توطئة لإحالته للمحاكمة، كان يعلم من خلال أهل الخبرة أن وكيل النيابة سيخلي سبيله إذا دفع ضمانًا ماليًا، وتوقع الخبراء بالمحاكم من قريته أنه سيدفع مائة جنيه كفالة، فارتدى رمضان جلبابًا قديمًا مهترئًا، ووضع المائة جنيه في جيب السروال، وذهب إلى المحكمة، وحين دخل إلى حجرة السيد وكيل النيابة هرع إليه وانكب على يديه مقبلًا ووكيل النيابة ينهره ويوبخه، ثم ظل منحنيًا في وضع أقرب إلى الركوع، وحين بدأ وكيل النيابة سؤاله أصر رمضان على أن يجلس على الأرض ويضع بُلْغته على رأسه، وإذ سمع وكيل النيابة يسأله عن الشيك قال وهو يبدي جهله: تيك؟ تيك؟ ما هو التيك يا جناب البك، وأخذ رمضان يستخدم «مكر الفلاحين» الذي يتفوق فيه حتى أقنع وكيل النيابة بسذاجته المفرطة؛ فأخلى وكيل النيابة سبيله بعد دفع مبلغ عشرين جنيهًا.

وها هي المرة الثانية حيث قضى رمضان فيها نصف يوم وهو جالس على الأرض أمام هذا الضابط الجاد الذي لا يبتسم أبدًا، دخل أولًا على معاون المباحث وهو ينتعل بُلغته، ثم سرعان ما خلع البُلغة وأمسكها في يده من باب توقير الضابط، فنظر إليه المعاون وطلب منه أن يظل واقفًا في أحد جوانب الحجرة، وبعد دقائق دخل رجل لا يعرفه ومعه عسكري فخرج المعاون

وأغلق الحجرة، فهم رمضان أن هذا الرجل هو أحد الضباط المهمين، وحين طلب من رمضان الجلوس، جلس رمضان القرفصاء ووضع بُلغته على رأسه إشـعارًا منه للضابط أنه طوع بنانه وأنه سـيكون معه في قمة الخضوع، تجاهل الضابـط هذه الإشـارة إذ يعلم من خلال خبرته أن الفلاح المصري البسـيط يكون أمام السـلطة منسـحقًا، إلا أن هذا الانسـحاق هو في حقيقته نوع من أنواع «القوة السـلبية» التي تمكنه من الإفلات من شر السـلطة ووطأتها، ظل الضابط متجاهلاً إياه فترة طويلة، كان فيها يُقَلِّب في كثير من الأوراق، ويقرأ من بعض الملفات، وعيون رمضان تترقبه وتفحصه في محاولة منه لسبر غوره: «مـا الذي وراءك أيها الضابط، ما الذي جنته يداي، أنا لم أفعل شـيئًا يغضب الحكومة مني».

حانت التفاتة عابرة من الضابط لرمضان، فسأله: من أنت؟

- أنا رمضان الكحلوت يا سيادة البك.

- وما الذي جاء بك هنا؟

- إشارة من المركز يا سيادة البك.

نظر الضابط إلى العسكري وسأله: من هذا؟ ولماذا أتيتم به؟

- هذا رمضان الكحلوت أبو الشيخ عطية يا جناب الباشا.

موجهًا كلامه لرمضان: أنت والد الشيخ عطية.

- خير يا باشا! هل أخطأ عطية في شيء، كلنا مِن خدامين الحكومة، عطية خدامك يا باشا.

- لا أبدًا، عطية شيخ قد الدنيا، ويعرف الشيوخ الكبار، ونحن نحبه، قم يـا عم رمضان واجلس أمامي على الكرسي... هات شـاي يا عسـكري لعم رمضان.

شـعر رمضـان برهبة عندما جلـس على الكرسي، هـذه أول مرة في حياته يجلس على كرسي أمام أحد المسـئولين، كان حديث الضابط معه رقيقًا هادئًا، فلـماذا إذن كانت هـذه الجهامة وهذا الإعـراض الذي قوبل به منـذ البداية! ففوق أن الفلاح المطحون يشـعر في قرارة نفسـه بالهـوان، فإن صنعة «الأمن السـياسي» توجـب عـلى صاحبهـا أن يتفانـى في إشـعار هـذا الـذي وقع في مصيدتهم بالضِّعة والحقارة حتى يسهل له قياده.

ورغم ذلك فإن الموضوع كان غير ذي بال، فكل الحكاية هي أن هذا الضابط يعرف عن عطية أشـياء كثيرة، يعرف أنه يعمل الآن في السـعودية وأنه اقترب مـن بعض العلماء الكبار الذين يتبعون المنهج الوهابي ، ورجال الأمن يريدون مـن عطية أن يعـود إلى مصر لينضم إلى قافلة الدعاة الذين يواجهون الجماعات الإرهابيـة، ولأن بعض الرجال التابعين للأمن السـياسي تحدثوا في السـعودية مع عطية في هذا الشأن إلا أن عطية أوجس خيفة وامتنع عن إجابتهم.

- «افرحي يا أم الفرج فقد جاء الفرج من أوسع الأبواب، ووزارة الداخلية أدخلتنا في مسـابقة من أجل العمرة، وقد فزنا والحمد لله، عمرة على حساب الدولة، شاملة نفقات الإقامة والطعام مع مصروف جيب لي ولكِ قدره ألف ريال، والباشا طلب مني أوراقنا حتى يجهز لنا جوازات السفر».

كانت هذه هي المرة الأولى التي شـد فيهـا رمضان الكحلوت الرحال إلى

الأراضي الحجازية ليستقبل الكعبة الشريفة ويطوف حولها، والمرة الأولى دائمًا هى أروع وأشجى وأعذب المرات، حيث يسبقها الغموض وتكتنفها الرهبة وتخالطها رغبة جارفة في المعرفة، وفي قلب الطائرة انكمش رمضان في مقعده وكأنه مذنب فر هاربًا من جريمته ويخاف أن يطلع عليه الناس.

وبعد أن انتهت مراسم العمرة مكث رمضان وزوجته أسبوعًا في مكة، ثم ركبا الحافلة في طريقهما إلى المدينة لزيارة قبر الحبيب ﷺ، ثم زيارة الابن الغائب الذي تزوج دون أن تتاح لهما الفرصة لرؤية زوجته، كان رمضان قد هاتف ابنه عطية من التليفون الذي في مكتب حضرة الضابط وأخبره أنه سيكون في السعودية بعد عدة أيام من أجل العمرة، وقال له: إنه ربح الرحلة من خلال مسابقة أجرتها الدولة.

في الفندق كان اللقاء، دار بينهم حوار طويل إلا أن رمضان تجنب أن يتحدث عن السبب الحقيقي للزيارة، وفي شقة عطية كان الحديث المسهب بينما أم الفرج تجلس مع أساور تطمئن على حملها وتعطيها النصائح والخبرات.

أبدى عطية لأبيه تخوفه من العواقب، فمن ناحية هو لا يأمن لنوايا رجال الأمن، ومن ناحية أخرى فإنه يخشى أن يدخل في غمار مواجهة مع الجماعات الإسلامية فيناله منهم الويل والثبور وعظائم الأمور.

- «سيجعلون لك مكانة يا ولدي وستجري الدنيا طوع بنانك مستجيبة، ما عليك إلا أن تأمر».

«سأعيد بناء داري في البلد بالطوب الأحمر، وسيعرف الناس كلهم أنك أصبحت صاحب شأن كبير مرهوب الجانب».

«وفوق هذا فإنك ستكون شيخًا كبيرًا وستيسر لك الدولة كل الطرق لتتبوأ مكانة العلماء، وسيوفرون لك الحماية».

لان عطية قليلًا إلا أن الخوف ظل مقترنًا به لا يغادره قيد أنملة.

- لو فرض وكان ما تقوله صحيحًا يا أبي، فهل أستطيع الإفلات من الجماعات الإسلامية.

- توكل على الله وهو حسبك.

أمضى عطية ليلته ساهدًا على فراشه، زارته كل الهواجس وأرَّقته، أيقبل فيصير في بلده عالمًا رغم قلة بضاعته، أم يرفض ويظل في السعودية ومنها يكون منطلقه، هو يعرف الآراء التي تحرم الخروج على الحاكم، يستطيع أن يراجعها ويعض عليها بنواجذه، كما أنه يحفظ بعض الأحاديث وخمسة أجزاء من القرآن، ولسانه أصبح منطلقًا عن ذي قبل فقد وعى الكثير من أساليب الخطابة، فضلًا عن أنه كان موهوبًا فيها بالفطرة منذ طفولته، ألم يكن يقف مقلدًا الشيوخ فيثير إعجاب الرفاق، ولكن الذي حيره لماذا تلجأ إليه الدولة ليقوم بهذا العمل في حين أن هناك الكثير من علماء الدعوة السلفية في الساحة وتستطيع الدولة أن ترتكن إليهم! خاطب نفسه وهو يجادلها:

«ومن قال لك إن الدولة لن تستعين بهم، بل لعلهم الآن يقومون بالدور المطلوب».

«ولماذا أنا إذن إذا كانت الساحة مليئة؟».

«البحر يحب الزيادة، وقد تكون طريقتي البسيطة السهلة هي التي جعلتهم يفكرون في الاستعانة بي».

«ومن أين عرفوا يا فالح أن لك طريقة بسيطة وسهلة؟».

«هـذه الحكومة لا يخفى عنها خافية، ثم أنسـيت أنك خطبت في مسـجد القريـة، وخطبت في زوايا مدينة نـصر، بالتأكيد أصبح لك ملف لدى الأمن وكتبوا عنك تقارير، ويعرفون أنك أحد المقربين من الشيخ الجزائري، وأنك حضرت لمدة ثلاثة شهور دروس الشيخ الألباني، أنا واثق الآن أن واحدًا من الضبـاط المجهولين اكتشـف موهبتي وراهن عليَّ، وقـد تكون خطبة الحوت والنملـة هي التـي فتحت لي الطريق، فأنا لا أتحدث أبدًا عن السياسـة ولكن عن الدين فقط».

« من الأفضل أن أجلس معهم وأستمع إليهم، أبي أخبرني أن أحد رجال الأمـن جـاء معهم في العمرة، وأنه ينتظـر أن أجلس معه، لا يضيرني شيء إذا جلست معهم، وبين البائع والشاري يفتح الله».

ورد على خاطره أنه سيؤدي خدمة جليلة للوطن وللإسلام، ستكون كل دروسـه عن تحريم الخروج على الحاكم، بيعة الحاكم شرعية ومن ينقضها إنما يسير في طريق الكفر.

سمع عطية أذان الفجر فقام ليستعد للوضوء، وبينما هو في نصف الوضوء سمع التليفون يرن رناته المزعجة، من هذا الذي يتصل عليه في هذه الساعة، لم يتم عطية وضوءه وأسرع للهاتف، جاءه صوتٌ باكٍ:

«البقاء لله يا شيخ عطية، حماك الشيخ حمدون في ذمة الله».

والمصائـب إذا جاءت لا تأتي فُرادى كالجواسيس، ولكنهـا تأتي متتابعة

كسرايا الجيش، فما إن سمعت أساور بخبر موت أبيها حتى صرخت ووقعت على الأرض فاقدة النطق.

■■■

بموت الإنسان تُغلق صفحة من صفحات الحياة الدنيا وتُفتح صفحة من حياة أخرى، فليس الموت انقطاعًا عن الوجود أو انحدارًا إلى العدم، فالموت هو أحد مخلوقات الله، وإحدى صور الوجود في ملكوته، ألم يقل لنا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ الحياة حضور وتجلية لروح «مُرَكَّبَة على جِرم» في الدنيا المرئية لنا، واستتار وغياب عن دنا أخرى غير مرئية لنا، والموت هو غياب واستتار لهذه الروح «المُرَكَّبَة على الجِرم» من هذه الدنيا المرئية لنا، وحضور وتجلية في دنيا أخرى لا نعرفها وغير مرئية لنا، وقبل أن تشرق أرواحنا في دنيانا الملموسة وتنزل إلى الحياة الدنيا، كانت في دنيا أخرى نجهل طبيعتها وكينونتها، وحين أشرقنا في دنيانا غربنا عن الدنيا التي كنا فيها، فكل شروق يسبقه غروب، وكل غروب يعقبه شروق ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ حيوات ومماتات إلى أن نرجع إلى رب الموت والحياة.

■■■

مات الشيخ حمدون اليمني، وترك ابنته المتزوجة من عطية، وزوجته المريضة، وأخًا شقيقًا يعيش في اليمن يدير له أملاكه هناك، هؤلاء هم كل من كانوا له في الدنيا، وقد أضاف له الزمن زوج ابنته عطية، وبموت الشيخ حمدون أُغلقت صفحة من صفحات الحياة وذهبت إلى دنيا أخرى غير دنيانا.

فقـد عطية شـيئًا عزيزًا آلمه فقـده وأجرى دموعه، لم تجـر دموعه على حماه ولكن على الجنين الذي أسقطته زوجته، فعندما تم نقلها إلى المستشفى اضطر الأطبـاء إلى إجـراء جراحـة لتوليدها بسـبب جفاف ماء المشـيمة الذي يمده بالحيـاة، حاول الأطباء إنقاذ الجنين ولكـن إرادة الله فوق علم البشر وتفانين بني الإنسان.

دُفـن الجنـين مع جده حمدون في لحـدٍ واحد، جنين كاد أن يسـتقبل الحياة فغادرهـا، وعجـوز ظـل بالحيـاة ردحًا مـن الزمن ثـم غادرهـا، وكلاهما في لحـد واحـد، كأنك أيها الإنسـان لن تمكـث في الحياة الدنيـا إلا لحظة، طالت أو قصرت هي لحظة.

أطلق عطية على ابنه اسمًا إعمالًا للسُّنة، فكان إسماعيل، إسماعيل بن عطية ابن رمضان الكحلوت، لماذا أطلق عليه إسـماعيل؟ هل لأنه استشـعر أن أبنه هذا ذبيح حزن أمه، ذُبح بسكين اللوعة والأسى، ذُبح بسبب ثكل أمه لأبيها فكان أن ثكلته، وبدلًا من أن نودع حبيبًا ودعنا حبيبين؟

مـرت أيام العـزاء، وأخذ عطيـة يرتب أمر الحيـاة الجديدة التـي تنتظره، جلـس في فنـدق الحـرم مـع الضابـط المـصري المعتمـر، كان متخصصًـا في الجماعـات المتطرفة، أبدى لعطية إعجابه بطريقتـه في الخطابة وأخبره أن هذه الطريقة يسـتطيع أن يصـل بها للأغمار من الناس الذيـن لا يحملون قدرًا من علم أو ثقافة.

«هؤلاء هم الذين نقصدهم يا شـيخ عطيـة، فالجماعات الجهادية المتطرفة تتصيد هؤلاء وتوقعهم في شباكها ثم تنفث فيهم شرورًا وتكفيرًا وعنفًا».

«هـذا الفكـر الانقـلابي ليس إسـلاميًا يـا شـيخ، ونريـد أن نواجهه بكل ما نملك من قوة من أجل الله والوطن».

«سـنفتح لك أكبر المسـاجد ونيسر لك الخطابة، وسنقربك من كبار علماء الدعوة السلفية وستنطلق في آفاق لم يبلغها خيالك».

«كبار دعاة السلفيين يقومون بالواجب، ولكنهم يخاطبون فئة واحدة هي فئة المتدينين الدارسين، ومن العسير على البسطاء أن يصلوا إليهم».

« تخيـل يـا شـيخ عطية أن الشـيخ أسـامة عبـد العظيم ظـل أربع خطب متواصلة يتحدث عن قواعد رفع السَّبَّابة في أثناء التشهد في الصلاة! طريقته معقدة لا تصل للبسطاء أبدًا».

«ولكنـك سـتترك الإخوان، ولن يكون لك بهم صلـة، الإخوان يقومون بأدوارٍ هم أهلها، ولكننا نريدك مع الدعوة السلفية».

«ومع ظهورك على الناس سيظهر عدد آخر من الدعاة الشباب سيأخذون نفس طريقك وسيكونون شركاءك في هذه التجربة».

«وسـتخضع لـدورة تدريبية تؤهلك لهـذا الدور وتعلمـك الموضوعات التـي سـتتناولها وأهمها تحريم الخروج عـلى الحاكم، ومواجهـة فكر التكفير، وكل فترة ستدخل دورة متخصصة ترفع من مستواك».

سـيدربونه ويجهزونـه للمهمـة وكأنه رجل مخابرات أو جاسـوس، ولكن كيف سـيجعلون الجمهور يُقبل عليه؟ هل يملكون مفاتيح القلوب! المسـألة ليسـت عويصـة فمصر لهـا خاصيتها النفسـية، النـاس في مـصر يندمجون مع

مشـاعر المجمـوع، لذلك كانت هناك مهنـة قديمة اسـمها «الصَّيتة» وكانت هـذه المهنة ذائعة في أوسـاط المطربين والمقرئين،فإذا بـدأ القارئ يتلو آيات الله تجويـدًا ترتفـع الآهـات وصيحات الإعجاب مـن هؤلاء الصَّييتـة الذين يتم استئجارهم وتفريقهـم بين المسـتمعين، وعندمـا تزداد الآهـات وصيحات الإعجـاب يبـدأ النـاس العاديـون في الاندمـاج والتماهـي مع المقـرئ، حتى يتحولوا هم بدورهم إلى منشـدهين متأوهين معجبين، والأمر نفسـه بالنسـبة للمطربـين، وفي عـالم المآتم والأحـزان تنتشر مهنة أخرى هـي مهنة «النائحة» أو «المعددة» التي تُستأجر لتنوح في العزاء وعند تشييع الجنازة فتَستجلب دموع المشيعين، المصري يندمج دائمًا مع روح المجموع، وبروح المجموع تستطيع أن تصنع شعبية، ولكنها في هذه الأحوال تكون شعبية مصنوعة لا تلقائية.

أخـذ الكلام مسـاره نحـو المزايا التي سـيتمتع بهـا عطية والأربـاح التي سـيجنيها مـن وراء ما سـيقوم به، ولكـن كلمة قالها الضابـط في نهاية عرضه السـخي أحدثت ربكة في عقل عطية، كلمة كانت إشـارة إلى سبب اختياره، فهمها عطية وأدرك بذكائه كيف تدير هذه الجهات الأمنية ملفاتها:

«تعـرف يـا عطيـة، أكثـر شيء أعجبني فيك هو أنك شـاب متسـاهل في تدينـك، لا تحفل بالتعقيـدات التي يضعهـا المعقدون، أعجبتنـي فكرتك في مسألة عقد الزواج العرفي الذي كنت تعقده مع بنات «زغلولة». الحقيقة هي فكرة رهيبة».

- زغلولة!!

- نعم أنسيتها؟! زغلولة سيدة المتعة في الإسكندرية.

اصفر وجه عطية وتحشرج صوته وجف ريقه وأخذ يتمتم متلعثماً: زغ زغ زغلولة، كي كي كيف عرفت موضوعها؟

- لا تخشَ شيئًا يا عطية، نحن سترك وغطاؤك، سرك في بئر، كل الصور وتسجيلات الفيديو التي صورتها لك زغلولة في يد أمينة، اعتبرها في قبر لن تخرج منه أبدًا.

- صور، فيديو!

- شريرة هي زغلولة، تعودت هذا مع زبائنها، ولكننا استطعنا الحصول على هذه الصور والتسجيلات حتى لا تهددك بها.

أهكذا هو الأمر! إذا أردت أن تقود إنسانًا وتسخره لك فقُدْهُ من أضعف نقطة فيه، أمسك بتلابيبه من غرائزه التي باح بها، ضع أوراقك على عورته، سيخشى حتمًا أن ترفع أوراقك فتنكشف عورته أمام الجمع الذين رأوه مقدسًا.

سرعان ما استعاد عطية رباطة جأشه قائلًا: كلنا يا باشا ارتكبنا أخطاء ونحن صغار، هذه أمور كانت في سن المراهقة والله غفور رحيم.

همَّ الضابط بالقيام بعد أن وضع لمساته الأخيرة، ولكن هناك مشكلة كانت شاخصة في ذهن عطية، لم يرض أن يترك اللقاء بالضابط قبل أن يتحدث معه بشأنها.

«الشيخ حمدون حماي مات كما تعلم، وهو من اليمن، وبما أنني سأعود إلى مصر وهو ليس له إلا ابنته زوجتي، وأمها زوجته، فأريد أن أصفي

مـا يمتلكه هنا، حتى أعطي للنسـاء حقهـن في الميراث، والعقبـة الكبرى أن الشـيخ له أملاك في اليمن يديرها شـقيقه، ولكننا لا نعرف عنها شيئًا، وأريد أن أستخلص حقوقهن، فماذا أفعل؟».

ـ هذه أشياء صغيرة يا شيخ عطية ويجب ألا تعطلك عن مهمتك الرسمية، أنت في مهمة وطنية.

- لن أذهب إلى مصر إلا إذا قمت بحل هذه المشكلة يا باشا.

- ستنزل مصر سريعًا يا عطية. لديك أسبوع، قم خلاله بحل مشاكلك

- لن أنزل مصر يا باشا وسأذهب لليمن.

- اليمن! أنت مجنون، ليس مسموحًا لك أن تخالف أوامري.

- يـا باشـا أنا أريـد أن أرضي ربي وأسـتخلص حقوق زوجتـي، ثم إنني لا أستطيع أن أصطحب حماتي إلى مصر ويجب أن أذهب بها لليمن لتعيش مع أهلها، حماتي يا باشا ليس لها أهل ولا أقارب في المدينة.

وارتفـع صـوت عطية وهو يقـول: اليمن يا باشـا، سـأذهب لليمن مهما كانت العواقب، وستساعدونني في حل مشكلة الميراث هناك.

■■■

أفـادت الجهات الأمنيـة أن ذهاب عطية الكحلوت إلى اليمن سيسـاعده مسـاعدة كبيرة في إنجاز مهمته، فهناك في اليمن سـيلتحق بمدرسـة الحديث للشـيخ «نعـمان بن عبـد الكريـم الوتر» الذي بدأ نجمـه يبزغ وأخـذ مكانته كواحد من كبار دعاة الدعوة السلفية في اليمن، وقد تخصص في شرح أصول

السنة للإمام أحمد بن حنبل، والشيخ نعمان الوتر على خصومة مع دعاة الإخوان المسلمين، فإذا مكث عطية في اليمن في مدرسة الشيخ نعمان ستة أشهر سيكسبه هذا خلفية علمية، ومكانة لدى جمهور المتدينين في مصر، كما أن هذه الزيارة ستوفر على أمن الدولة مشقة تدريب الشيخ عطية، ولتكن هذه الزيارة لليمن بمثابة دورة تدريبية له، أما عن حل مشاكل الميراث فالشيخ «عبد الكريم الزنداني» سيتكفل بها بما له ولقبيلته من مكانة، وهو أيضًا من رموز الإخوان المسلمين هناك ولجماعته كلمة مسموعة، ووادي أرحب باليمن يقع تحت سيطرته، وهناك لا يستطيع أحد أن يعصي له أمرًا، أي أن عطية سيتعلم على يد السلفيين أعداء الإخوان، وسيتم حل مشكلة ميراث زوجته عن طريق الإخوان.

ومضت الأشهر الستة وعاد الشيخ عطية إلى مصر تاركًا وراءه في اليمن زوجته أساور على وعد أن يعود ليصطحبها إلى مصر بعد أن يرتب أمور حياته ويجهز سكنًا يليق بها وبذكرى أبيها الشيخ حمدون، عليه رحمة الله، حمد الله أنه استطاع حل المشاكل المالية لزوجته وأمها سواء تلك التي كانت في المدينة، أو التي في اليمن، كان عطية مع زوجته وهو في اليمن كالخادم المطيع لا يعصي لها أمرًا، يتحمل انفعالاتها وإهاناتها ويتمادى في الخنوع والمسكنة حتى استطاع برفقه ومهادنته إقناعها بأن يحمل معه وهو ذاهب إلى القاهرة مبلغًا يوازي مائة ألف جنيه مصري من ميراثها، حتى يشتري لها شقة باسمها في حي راق من أحياء القاهرة ويؤثثها بالرياش اللائقة، لم يكن إقناع أساور بالشيء الهين، ولكن مداهنة عطية لأمها مكنته من تحقيق مرامه.

حين عاد إلى مصر لم يعد كعطية الكحلوت، ولكن عاد باسم آخر، وسيرة أخرى لم تتحر الحقيقة ولكن أخذت منها قبسات ثم أضافت لها وزينتها، فهو «الشيخ أبو إسماعيل الرويني» حافظ حديث رسول الله، وتلميذ الشيخ الألباني والشيخ أبي بكر الجزائري، وقام بتدريس علوم الحديث الشريف في مدرسة الحديث للشيخ «نعمان بن عبد الكريم الوتر» باليمن السعيد، والذي ساح في الأرض من أجل العلم فجلس يتلقاه على يد أكبر علماء العصر، ومن نبوغه وجلاء بصيرته حصل على إجازة برواية الحديث من الشيخ الألباني.

ترك الشيخ أبو إسماعيل الرويني في اليمن كراكيبه القديمة، وماضيه، وزوجته أساور التي كانت جزءًا من هذا الماضي، ولم يعد لها أبدًا بعد ذلك، وبدلًا من أن يرسل لها تأشيرة زيارة لمصر لتسكن إليه أرسل لها ورقة الطلاق.

وكما يطوي الموت صفحات حياة، تطوي الحياة نفسها صفحات من عمر الزمن، ولكل زمن حال، ولكل حال رجال، وما كان بالأمس ليس بالضرورة أن يبقى اليوم، وما هو صائر اليوم ليس بالضرورة أن يكون غدًا، لا شيء ساكن في الحياة، كل شيء يتحرك، حتى الجماد يتحرك في مكانه، أليست الأرض تتحرك بما عليها من جماد ومخلوقات؟ الحركة الدائبة هي سر الكون، فالحركة هي إثبات لمرور الزمن، قال أحد الفلاسفة: «إنك لا تنزل النهر مرتين» كان يقصد أن مياه النهر تسير في طريقها ولا تعود أبدًا، وحين تسير يأتي خلفها مياه أخرى، تتغير وتتبدل المياه فيصير النهر نهرًا آخر غير الذي نزلت فيه من قبل.

لم يعد الشيخ أبو إسماعيل الرويني إلى مدينة كفر الشيخ ، أو قريته روينة، ولكنـه أقـام في حي الجيـزة، منطقة لم تعرفه من قبل، وفيهـا بعض كبار رموز الدعـوة السـلفية، وفيها أيضًـا بؤر سـوداء لجماعات الجهـاد والتكفير، ومن الجيـزة كان انطلاقـه، وأخذ يتردد عـلى العلماء يخطب وُدَّهـم ويقبِّل أياديهم، فها هو ينكب لاثمًا يد الشـيخ الكبير عبد اللطيف المشـتهري إمام أهل السـنة بالجمعية الشرعية، وها هو يظل على تزلفه وتودده حتى سـمح له الشيخ بأن يخطب مرتين في الشهر في أحد مساجد الجمعية الشرعية بالجيزة، وعن طريق «الصَّبيتـة» الذين تباكوا أثناء خطبته عن الجنـة والنار ذرف كثير من المصلين البسـطاء دموعهم، وأخذت شـهرته تتنامى يومًا بعد يـوم، في بداياته لم يكن يخطـب إلا في ثلاثة موضوعات هي: «أهوال النار» و «نعيم الجنة» و«أحوال الموتـى وعذاب القبر» وبهذه الخطب كان يتنقل في مسـاجد الجيزة ومراكزها الحوامدية، والبدرشـين، وأوسـيم، وأطفيـح، والعيـاط، وفي كل مكان كان الصبيتـة يرافقونـه ويقومون بدورهم خـير قيام، أما هو فقد اسـتطاع تطوير أدائـه وتطويع كلماته، وتفخيم عباراتـه، كان كالممثل الذي يقف على المسرح كل يوم ليـؤدي دوره المحفوظ في المسرحية، ومع التكرار تكون الإضافات، والتنويعات، والصياح الباكي حتى يسـتدر الدموع، وكما كان الشـيخ كشك يفعل في خطبه فعل أبو اسـماعيل الرويني، الشـيخ كشك كان يكثر بالسليقة والفطرة من الصلاة على النبي ﷺ، والرويني ابتدع طريقة جديدة في الصلاة على النبي تثير بهجة المصلين، إذ بعد الصلاة على النبي والاستزادة كان يقول وهو يفشـخ نابيه مبتسـماً «شـايفك يـالي قاعد في آخر الصـف ولا تصلي على

النبـي. إوعـى الشـيطان يكون ضحـك عليك، صل معنـا على النبـي يا من أغمضـت عينيـك وأغمضـت قلبـك ارفع صوتـك بالصـلاااااة حتى تنال الأجر والثواب».

وكانـت قريحتـه كثيرًا ما تجـود له بالقفشـات فيوزعها عـلى من يحضرون دروسـه وخطبـه، ففي درس ألقاه في مسـجد بالبدرشـين سـأله أحدهم عن صلب السيد المسيح فلم يناقش التفصيلات كثيرًا، وإنما أخذ يقرأ من كتاب الله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وبعـد أن قـرأ الآية قال ضاحكًا «صلوبونـا على النبـي»؛ أي صلوا بنا عـلى النبي ولكنه مـزج الكلمات لتبدو «صلبونا على النبي» فضج المسجد ضحكًا لهذه القفشة.

ودارت الحيـاة دورات ودورات، ومـرت السـنوات، وأصبـح الشـيخ أبو إسماعيل الرويني أحد أشهر دعاة السلفيين، لا يجيب عن سؤال إلا وقال: نحـن العلماء نجتهد في بحث هذا الأمر ولم ننتـه إلى رأي واحد بعد، ولكنني أميل إلى رأي الإمام أحمد بن حنبل.

أو يقول: جلست مع إخواني العلماء وشرحت لهم فقه هذا الأمر فأخذوا برأيي.

أو يقول: أنا باعتباري واحدًا من كبار علماء الأمة أقول كذا وكذا.

وكثيرًا ما كان يقول: قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ ينطبق على كل شيء مـا عدا العلم، فالعالم يجب أن يقدم نفسـه للأمة ويخبرها بعلمه، ألم يقل يوسف عليه السلام ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

وانتشرت شرائط الكاسيت التي تحمل خطبه ودروسه، ووضع بعضهم كتيبات تحتوي على ملخصات لبعض دروسه، ووسع الله عليه في الرزق، فتزوج أربع زوجات حسناوات منتقبات، استأجر لكل واحدة منهن شقة في نفس العقار الذي يقيم فيه، وجعل من شقته الأصلية مضيفة لضيوفه وزواره، وكان كل حين يُطَلِّق الأقدم ويتزوج أخرى في ميعة الصبا، وكأنه ينتقم للفترة التي كان لا يتخير فيها، ولكن يُجبر جبرًا على القبيحات.

وكان من ترتيباته مع أمن الدولة أن يعود إلى مدينة كفر الشيخ غازيًا، فهذه المدينة هي التي كان يتبع فيها الشيخ راضي سلطان ويقوم على خدمته، وهي المدينة التي شهدت أيام صعلكته مع برهومة حجازي «أين أراضيه الآن؟ وماذا سيفعل عندما يراني في هذه الهيئة الشامخة؟ وقريتي روينة وغزواتي فيها أين أيامها؟ رحم الله أمي وأبي، ماتا وأنا في رحلة حج مع إحدى الشركات السياحية الكبيرة، كنت مرشدهم في الرحلة كعادتي كل عام، أقضي أيام حجي في أفخم الفنادق وأحسن المناجر والخيام، وألقي دروسًا عن مناسك الحج ، وفوق هذا أتقاضى منهم عمولة كبيرة، فسفري معهم يجذب الحجيج إليهم، ويجعلهم الأعلى أجرًا بين الشركات، فتتخم خزائنهم بالمال، وحين عدت من رحلة الحج عرفت أن أبي كان قد اصطحب أمي لمدينة كفر الشيخ ليقضي بعض شئونهما، فصدمتهما سيارة، ماتت أمي في الحال، ومات أبي بعد يومين، وقام أهل القرية جزاهم الله خيرًا بالواجب، حيث قاموا بدفنهما في مقبرة خالية لإحدى العائلات الكبيرة، على أن أدفع لهم ثمنها حين أعود، وإذ عدت لم أستطع أن أدخل القرية التي خلت من أمي وأبي وهما كل من كان لي في الحياة الدنيا، فأرسلت واحداً من أتباعي بتوكيل مني، حيث قام

بسداد ثمن المقبرة، وتكاليف الدفنة، ثم عرض البيت والقراريط للبيع وعاد بثمن معقول، ولله الأمر من قبل ومن بعد».

قام الشيخ أبو إسماعيل بترتيب أموره قبل أن تدق قدمه على أرض كفر الشيخ. اختار موقعًا متميزًا يقيم لنفسه فيه سكنًا كبيرًا يقع غرب المدينة بالقرب من مدينة دسوق عروس النيل، وأقيم السكن من أربعة أدوار فوق الدور الأرضي، فجعل لكل دور زوجة من زوجاته وأولاده منها، وجعل من الدور الأرضي استراحة له ودار ضيافة يستقبل فيها تلاميذه وزواره ومعارفه، وأحاط البيت بحديقة صغيرة، وبهذا أصبحت كفر الشيخ هي المقر الرئيسي للشيخ، يضع زوجاته فيها، ويتنقل إلى مدن مصر حيث اقتنى لنفسه سكنًا كبيرًا في الإسكندرية، ومصر الجديدة، بالإضافة إلى سكنه في الجيزة.

في مسجد الرحمن كان اللقاء الذي ارتقبته كفر الشيخ، ارتفعت قبله اللافتات ترحب بالشيخ الرويني ابن كفر الشيخ وكبير علماء الدعوة السلفية، وازدحم الجامع عن بكرة أبيه، فشهرة الرويني طبّقت الآفاق وسدت عين الشمس، وشرائطه أصبحت تجارة رائجة لكل أصحاب الفرشات الذين يقفون أمام المساجد، كان الشيخ راضي سلطان قد أصابه الكبر بكثير من الأوجاع والأمراض، بحيث انحنى ظهره وكاد بصره أن يكف، كان الشيخ راضي أول المستقبلين للشيخ الرويني في المسجد إلا أنه لم يتعرف عليه، لم يقع في خاطره أبدًا أن هذا الشيخ صاحب اللحية العظيمة والشهرة الكبيرة هو نفسه عطية الكحلوت الذي كان يعمل في خدمته، ويقف على فرشة أمام المسجد، ويترقى فيقف على فرشة في القاهرة ـ بوساطته ـ أمام مسجد الشيخ كشك!

وبعد أن انتهت الليلة الحافلة والدرس الذي تجول فيه الشيخ أبو إسماعيل الرويني بين الجنة والنار وعذاب القبر وحيل الشيطان، وقصص الغابرين الشائقة التي استخرجها من الإسرائيليات، خرجت تأوهات الإعجاب من الصبية الذين حُشروا في هذا اليوم حشرًا بين الحاضرين، فتجاوب أهل المسجد معهم.

وبعد الدرس أخذت الأسئلة تنهال على الشيخ وهو يجيب عن بعضها بعبارات عامة ويتهرب من الإجابة عن البعض الآخر، ويشرد في إجابة بعض الأسئلة ليحكي قصصًا مسلية، وبعد أن انتهت الليلة همس الشيخ أبو إسماعيل في أذن الشيخ راضي: ألم تعرفني يا شيخ راضي؟

- لم أعرف كيف ! أنت نار على علم يا مولانا.

- ألا تتذكر أنك تعرفني من قبل؟

بحلق فيه الشيخ راضي وأخذ يعصر فكره، من هذا، من هذا؟

- لن تعرفني يا شيخ فالدنيا تغير كل شيء ولا شيء يبقى على حاله، ولت أيام الشباب، وأنا الآن على شفا أربعين عامًا من العمر، وأنت لم ترني منذ عشرين عامًا.

- من أنت؟

- أنا الشيخ عطية الكحلوت، هل تذكرتني؟

■■■

دنيـــانـــا

كواحد من أهل الكهف كان الإمام أحمد بن حنبل يسير والذهول يعتريه، ما هذه الدنيا الغريبة التي لا يعرفها؟! هذا عالم آخر لم يصل إليه خيال إنسان، أشـياء تجـري عـلى الأرض بسرعة غريبـة، وأشـياء تطير في السـماء، ورجال يضعـون أعوادًا غريبة في أفواههم يخرج منها دخان، وطرق صلبة جلمودية، أرضها سـوداء لم ير مثلها من قبل، ونساء متبرجات وأُخر كاسيات، ورجال يرتـدون ثيابًـا غريبة، معظمهم لا يعفـون اللحى، كأنهم مـن الفرنجة الذين سـمع عنهم في زمنه، هل هؤلاء هـم أهل مصر؟! فما بال أحوال أهل بغداد؟ أوقفهـم مصطفـى في مكان غريب، عـلى أرضه زُبَرُ الحديد ممتـدة ومتجاورة بطريقة منتظمة.

- ما هذا يا مصطفى؟

وقبـل أن يجيـب مصطفـى قال العمـدة غريـب مندفعًا: هـذه محطة قطار يا إمام.

- وما القطار؟

اسـتمر العمدة ممسـكًا بزمـام الإجابـة: القطار هو مجموعة مـن العربات تسير بعجلات على هذا الحديد.

- عربـات! كنـا نطلق على السـفينة الراكـدة في دجلة عربـة، وهي أيضًا مركبات تنقل الناس وتجرها الدواب.

- هي مثل هذه المركبات، ولكن لا توجد دواب تجرها.

- وكيف تسير؟

- بآلات تحركها بسرعة كبيرة.

وقبل أن ينتهي العمدة من كلامه ظهر القطار آتيًا من بعيد، فجَفَلَ الإمام وأخذ يتمتم بالأدعية والاستغفار، وداخل القطار استبدت به الرهبة فأغلق عينيه وأخذ يرتجف، وبعد حين وإذ استمع لحوارات الناس وتطمينات مصطفى هدأ خاطره، وفتح عينيه وأخذ يتجول ببصره بين الجالسين والواقفين، وإذ كانت تحين منه التفاتة للطريق يرى الأشجار وكأنها تسير عكس اتجاه حركة القطار، أغلق عينيه مرة ثانية وأخذ يحدث نفسه: «ما هذا الخطل! أأصبحت رجلًا هطلًا، أم أصابني رِئي من الجن، العربات تسير بسرعة والأشجار تأتي من الجهة المقابلة وتسير هي كذلك بسرعة، لا بد أنني ممرور، يا رب سلم سلم».

فتح عينيه مرة أخرى وأخذ يراقب الطريق بدقة بالغة «سبحان الله، الأشياء التي حسبتها تجري بسرعة واقفة في مكانها لا تتحرك؛ الأشجار واقفة، وولد ساكن بجوار نخلة، وولد آخر يجري يريد أن يسابق العربات التي نركبها، ولكن حركة العربات التي أنا فيها هي التي هيأت لي أن الأشياء الثابتة تتحرك؛ ثابت لا يتحرك، ومتحرك سرعته دوننا، ومصطفى قام الآن واقفًا ثم سار في هذا الممر بين مقاعد العربة، فإذا به متحرك داخل متحرك أسرع منه، وأنا والعمدة ساكنان في هذا المتحرك، هه، ساكن يتحرك بحركة غيره!».

استرخى جسد الإمام ونظر إلى العمدة غريب الجالس على المقعد المجاور له وابتسم له بحنان دافق وهو يقول ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾.

عقب العمدة قائلًا: صدق الله العظيم يا إمام، هل حركة القطار هي التي فكرتك بهذه الآية؟

- كل الكون يفكرني بها يا غريب، وما أبدعت قرائحكم إلا إلهامًا من الله.

- وهل الله يلهم غير الأنبياء والأولياء والصالحين؟

- نعم أوحى للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا، وأوحى لأم موسى أن ألقيه في اليم، ولم تكن نبية.

- ولكن هل يُلهم الله الكفار وغير المسلمين؟ هذه المخترعات والمستحدثات إنما صنعها الكفار وغير المسلمين، ونحن استعملناها.

- وماذا يفعل الله لكم وقد نزعتم عقولكم! الله يلهم من يشاء من عباده، الله يلهم من يسعى ويكد، يلهم من يمسك فسيلة ليغرسها، لا من يجلس منتظرًا ثمارها، طلب الله من كل أبناء آدم أن يُعمروا الأرض فقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أفلا يلهم من يسعى لتعميرها حتى ولو كان كافرًا؟

أنهى الإمام ابن حنبل كلامه ثم نظر إلى وجوه الرجال والنساء الذين في العربة، النساء معظمهن يتشحن بالسواد، وبعضهن يرتدين ثيابًا عجيبة عبارة عن غطاء للرأس وثوب هو أقرب ما يكون إلى السروال يستر النصف

الأسفل من الجسم، ولكنه ليس سترًا حقيقيًا، فهذا السروال العجيب يلتصق بالجسد حتى إن كل تفاصيل هذا الجسد تظهر بوضوح بدون إعمال خيال، غض الإمام بصره واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذ به يسمع صوتًا يقول له: فتح الله عليك يا عم الشيخ، حضرتك بتدي دروس في أنهي بلد؟

حدق الإمام في الرجل فوجده من الفلاحين الذين شاهد مثلهم وهو خارج من بيت مصطفى، استنتج ابن حنبل المعنى ولكنه همس في أذن العمدة مستوضحًا، فأخبره أن الرجل يسأله عن انبلد الذي يعطي فيه دروسًا دينية.

رد الإمام على البديهة: في مسجدي ببغداد.

- ما شاء الله عليك يا شيخ، صحيح شكلك غريب عن مصر، يا ألف آه على بغداد يا شيخ، ربنا يعطي صدام ما يستحق، ويلعن أمريكا دنيا وآخرة.

فهم الإمام مقصود الرجل، ذلك أن مصطفى كان قد روى لهما ما حدث في بغداد وما حل بها، إلا أن شابًا ملتحيًا كان واقفًا يراقب حوار الفلاح مع الإمام، فإذا به يقول: انت شكلك شيعي يا شيخ، العراق فيها شيعة أكثر من الهم على القلب.

رد الفلاح مدافعًا عن الشيخ: يا رجل حرام عليك، شيعي ازاي وهو يقول: قال الله وقال الرسول؟

- يا عم انت، أنا أقصد شيعي وليس شيوعي، شيعي من أتباع سيدنا علي ابن أبي طالب، وهم أكثر ناس يكرهون الصحابة ويشتمونهم ليل نهار.

همس ابن حنبل في أذن العمدة: ما معنى ازاي / ومن هو الشيوعي؟ هل هي فرقة جديدة من فرق المسلمين؟

- «إزاي» معناها كيف، وهي أداة استفهام يا إمام، والشيوعية هي طريقة حكم لكنهم لا يؤمنون بالله.

كان الجدل قد احتدم بين الشاب الملتحي والفلاح، وكان مصطفى يتجول في آخر العربة فجاء مسرعًا ليسمع الشاب وهو يقول: ألم تسمعه وهو يقول: إن الله يلهم الكافر ! هذا كفر والعياذ بالله.

تدخل مصطفى في الحديث قائلًا: يا أخي صل على النبي، هذا الشيخ غريب عن البلد وهو ضيفي، ولا علاقة له بالشيعة ولا الكفر لكنه رجل مبارك ومن الصالحين.

رد الشاب موجهًا حديثه لركاب القطار : أرأيتم يا ناس، يقول إنه رجل مبارك يعني من الفلول.

قال مصطفى زاعقًا: اسكت يا ولد، فلول! هذا هو الذي كان ينقصنا، أيها الجاهل الذي يدعي العلم. كلمة «مبارك» تعني أنه رجل صالح من أولياء الله ومقامه عند الله كبير.

عاد الشاب يقول: ها هو يقولها مرة ثانية، هل سمعتم؟ مبارك رجل صالح ومن أولياء الله الصالحين، عشنا وشفنا.

رد عليه الفلاح البسيط: يا بني هو يقصد أن هذا الشيخ من الشيوخ المباركين وأنه من أولياء الله، لا تتهجم على أولياء الله، ألم تسمع الحديث الشريف: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب»؟

رد الشـاب بقحَـة: «ولي» يعنـي مـن الصوفيـين عليهم لعنـة الله، الولاية للعلماء يا عم وليست للرفاعية الذين يلعبون بالثعابين ويرقصون في الموالد.

أثار كلام هذا الشـاب الملتحي امتعـاض ركاب القطار فأخذوا يوبخونه ويزجرونه، ويسـبون تلك الجماعات المتطرفة التي قامت بإلغاء عقول هؤلاء الشـباب، وأنهى واحد من الركاب الكلام قائلًا: صلوا على النبي يا اسيادنا، الموضـوع لا يسـتحق هذه المهاتية ، ثم أردف بصـوت منخفض: داهية تاخذ الجماعات وأشباههم، أفسدوا عقول العيال.

في محطـة مصر بميدان رمسـيس هبط الثلاثة بحقيبتهـم، كان المنظر الذي بوغـت به ابن حنبـل فوق احتماله، فشـعر بقدميه ترتخيان وجسـده وكأنه في طريقه إلى التفكك.

«ياسـبحان الله، مـا هـذه الدنيا !ما هـذه الأرض التي نسـير عليها؟! إنها مفروشـة بالحجـارة المصقولـة مثل التـي في قصر الخليفـة المعتصم، كل شيء في هـذا المـكان مدهـش ويثير الحـيرة، كيف تجمع هـذا الخلق في هـذا المكان الرحب؟ الأكتاف تصطدم بالأكتاف، والوجوه بعضها جامد لا يشي بشيء، وبعضها تقفز الفرحة منه، وبعضها الآخر تسـيطر عليه الحسرة، كل المشـاعر تجتمـع في هذا المكان؛ هذا الرجل تبدو عليـه الحيرة والارتباك، وذاك يتلفت يمينًـا ويسـارًا يشرئـب بعنقه ليبحث عـن مبتغاه، وهذا الرجـل الذي هناك لمـاذا يعدو بهذه الطريقة؟ هل يفر مـن شيء؟ لعله يهرب من الشرطة! يا ألله! هـذه امرأة تحمـل صغيرها وتكاد تنفطـر من البكاء، ألا يوجـد من يكفكف

عنهـا دموعها؟!وهـذا الولـد الصغير يبدو أنـه يبحث عن أهله، يسـير تائهًا بلا مرشد ولا دليل، إيهٍ أيها التائه الشريد، متى تئوب إلى عشك الذي ينتظرك؟ ليس هذا المكان مكانك ولا هذه اللحظة لحظتك، اللهم اهده واهد أهله له، كل النـاس يتحركون في هذا المكان، هناك من يدخل وهناك من يخرج، وعلى كل أنماط الحركة تدور المحطة بناسـها ولا يديرونها، كل الدنيا تجمعت فيها! وصوت هذه القطارات يكاد يصم الآذان، تدخل العربات بانسـيابية إلى هذا المـكان ثم تتراص فوق أعواد الحديد، كل شيء محسـوب، وعندما يأتي وقت المغادرة تغادر بانسيابية كما دخلت، الفارق فقط أنها حين تدخل لمقرها تترفق وتتهـادى إلى أن تتوقـف، ولكنهـا حين تخرج تغادر ببطء ثم تسرع في المسير تسابق الريح».

استحثه مصطفى على الإسراع في المسير، ولكن قدميه لم تطاوعاه، فاستند مـن ناحية عـلى مصطفى ومـن الناحية الأخـرى على غريـب، وأخذ يجرجر قدميـه وكأنـه هو الذي يحملهما وليسـتا همـا تحملانه، حتى خرجـوا من هذا المـكان الغريـب، لم يقو ابـن حنبل على رؤية هـذا العالم الجديد مـرة واحدة، فطلب من مصطفى أن يعطي له برهة يجلس فيها على الأرض حتى يسـتعيد رباطة جأشه ، أعطوا ظهورهم للمحطة وجلسوا يفترشون جانبًا منزويًا من الطريـق، وبقدر انبهار الإمام أحمد، كان مصطفـى قلقًا عليه وجَدّه، صحيح أن الجد غريب كان متماسكًا إلا أن شيئًا ما ينبئ عن أن بركانًا يفور في داخله، الانتقـال مـن مـكان لمكان يحـدث ربكة نفسـية لبعضهـم، فما بالـك لو كان الانتقـال ليس من مكان، ولكن من زمان لزمـان؟ ابن حنبل انتقل عبر ألف

سـنة، وغريب انتقل عبر أكثر من ستين سـنة، انتقال ابن حنبل هو الأصعب بلا جدال، فدنياه كانت مختلفة عن دنيانا بشكل جذري، ومع ذلك فإن الأمر بقـدر مـا هو صعب، فهو محير، قـد تكون الصعوبة والحيرة أكثـر طغيانًا عند ابـن حنبل من غريب، ولكـن كليهما يخرج للحياة كمولود تـرك منطقة دافئة مريحة في بطن أمه كان يظن أنها الدنيا كلها وأنه لا شيء غيرها، لتصدمه الحياة الرحبة باتساعها وغرابتها، كل مولود يستغرق أعوامه الأولى في التعرف على الدنيا وحاجياتها، ليتعلم الأسماء كلها، ليفهم ويعقل، ليقوم بالتجربة ويخفق مرة تلو الأخرى حتى ينجح ، تُرى ماذا كان شـعور أبينا آدم عندما خرج إلى الحيـاة ، وأخذ ينظر إلى أعضائه ويتعرف عليها، نظر للموجودات التي تحيط به وقام يلمسـها ليتعرف عليها، الاسـتغراب هو الشعور الأول الذي يحتوينا حين نهبط إلى الحياة الدنيا، والاسـتغراب يبدأ من شـعور الإنسان بغربته عن المكان أو الـشيء الـذي اسـتغربه،إذ لم يألفه بعـد، ولأنه لم يألفه فـإن المكان أو الشيء يصبح غريبًا عنه، أما هو فيكون مغتربًا عنه، لذلك يكون الاستغراب، ولكـن الوافد الجديـد إلى الحياة الدنيا لا يشـعر بالاسـتغراب فقط؛ ذلك أن شـعوره بالاستغراب يندمج مع شعوره بالدهشة، نعم يشعر بالدهشة قطعًا، والدهشـة غير الاسـتغراب، فالدهشـة تصاحب الأشـياء المبهجـة التي تثير الإعجاب لجمالها أو لرقتها أو شـجنها الشفيف، والاستغراب إنما يكون دائمًا مصحوبًا بالحيرة والخوف والقلق والإنكار، وفي مزيج الاستغراب والدهشة كانت مشـاعر ابن حنبل ترتع، وكانت مشـاعر «العمدة غريب» تسبح ، بينما كان مصطفـى يغـوص في قلقـه خوفًا على الأمانة التـي أوصلها الله له، وعلى جده الذي عاد إلى دنيانا.

وإذ هـم على هذه الحالة لم تهدأ نفوسـهم وخواطرهم بعد، إذا بمجموعة كبـيرة من الناس تتضامُّ، وترفع لافتات، وتـصرخ بهتافات لم يتبين مصطفى طبيعتهـا، انكمش ابن حنبل في مكانـه، والتصق غريب بحائط المحطة وكأنه يلـوذ بـه من شيء مجهول، قام مصطفـى واقفًا وهو يصيح فيهـما: انتظرا هنا، لا تتحركا، سأذهب لمعرفة الموضوع.

وقبل أن ينتهي مصطفى من كلامه كان قد اندفع إلى نهر الطريق ليسـتبين الأخبـار، وفي اللحظـة التي غـاب فيها مصطفى عن الأبصـار ارتفع صوت فرقعة ودوي يصم الآذان، وامتلأت السماء بسحب دخان كثيف، قال الإمام بصوت مرتعش: هل هذا هو ضرب النار بالرصاص الذي قلت لي عنه؟

قال غريب وهو يسعل: الله أعلم.. أنا لم أر شيئًا مثل هذا في حياتي قط.

ابن حنبل: ما هذه الدموع التي تنسال من عينيَّ، إن عيني تحرقانني.

زاد سعال غريب وراحت دموعه تترى وشعر بالاختناق فهمهم بصعوبة: رئتي يا إمام تكاد تنفجر، أريد ماء.

تهافـت صوت ابـن حنبـل: أكاد أهلك أنـا الآخر. أشـعر بوجهي وكأنه يحترق، قم بنا ندخل إلى المحطة.

وقبل أن يهم الرجلان بالوقوف حدث لهما ما لم يخطر على بالهما قط.

■■■

اقتربـت منهـما مجموعـة كبـيرة من البـشر، كانت تجـري مقبلـة عليهما في فـزع، وخلفهـم مجموعة من الجنود تطاردهم وتعمـل هراواتهم فيهم، خُيل

للشيخين أن الأقدام المسرعة ستدهسهم إن بقيا في مكانهما فأسرعا يعدوان إلى داخل المحطة، ابن حنبل يتقدم وهو لا يعرف بأي شيء يلوذ ويحتمي، والعمدة غريب يحمل حقيبة الملابس ويهرول خلفه وصوته يسبقه، رأى غريب عن بعد كشكًا أخذ صاحبه يغلقه بهمة وسرعة، فنبه الإمام إلى هذا الكشك قائلًا: هيا نحتمي بهذا الرجل ومكانه.

ولكن الذي يريدان الاحتماء به ليس بأحسن حالًا منهما، كان صاحب الكشك قد أغلقه وغريب يقول له: الحقنا يا عم الحج، ما الذي يحدث في البلد؟ نريد أن نحتمي بك.

أضاف الإمام: أجرنا، أجارك الله.

إلا أن الرجل كأنه لم يرهما، استدار بوجهه مسرعًا وهو يقول: كل واحد عقله في راسه يعرف خلاصه.

جرى الشيخان خلف هذا الرجل، وإذ دخل إلى بناية صغيرة داخل المحطة دخلا وراءه، وفي داخل المكان وجدا عددًا كبيرًا من الناس يجلسون إما على مقاعد مصطفة وإما على الأرض، فجلسا على الأرض.

كان هذا المكان هو كافيتريا من الكافيتريات التي في المحطة، وبعد أن دخلا إليها قام بعض الناس بإغلاق بابها، كان الناس في الكافيتريا يتشابكون بالكلام، ويختلفون، اشتد بهم الجدل وظهر عليهم الحنق والغضب فإذا الحوار بينهم يأخذ هذا المنحى:

- ألا توجد نهاية لهذا العبث الذي نعيش فيه؟ نريد أن نتفرغ لأكل عيشنا.

- هـذا ليس عبثًا، هذه ثـورة، وحرام أن يجهض أصحاب المصالح أعظم ثورة في تاريخ مصر من أجل تحقيق مصالحهم.

- أقسم بالله العظيم إن الإخوان متفقون مع المجلس العسكري.

- يا حلو بانت لبتك[1].

- يا عم انت وهو، أكل عيشنا ضاع، هذا هو ما أخذناه من الثورة.

- هـل هـذا الكلام يـرضي ربنا؟ أصحاب «الإسـلام هو الحـل»، ونريد تطبيق شرع الله، وقال الله، وقال الرسـول، هم أول من يريد افتراس الثورة! مـا هـو الثمن؟ خروج آمـن للمشـير والفريـق ! ألم يكونا من رجـال مبارك المقربين؟ ثم لماذا جلس الإخوان مع عمر سـليمان؟ والله هذه تمثيلية من أجل ابتـلاع مصر، الإخـوان يا جماعة ومعهـم الجماعات الإسـلامية لا علاقة لهم بالثورة، صدقوني.

- هـذا صحيـح هم آخر مـن دخلوا للثورة وأول من خـرج منها، هؤلاء خونـة، لا يبحثون عن مصلحة مصر، فقط يبحثون عن مصلحتهم، يريدون الحكم ولا يريدون الدين.

وأخـذت الحوارات مسـارها ما بين رافض للثـورة، ومؤيد متحمس لها، وناقـم عـلى الإخـوان والجماعات الإسـلامية، وملتمـس العذر لهـم، إلا أن أكثـر ما جذب انتباه ابـن حنبل أن الناس يتحدثون عـن طائفة أطلقوا عليها الإسـلاميين، نعـم مصطفـى أخبره عـن الإسـلاميين، ولكنه وجـد أن هذا

---

(1) لبتك: اللبة هي موضع القلادة من الصدر وهو الموضع القريب من عنق الإنسان.

المصطلح غريب على أذنه، من هو المسلم ومن هو الإسلامي؟ هل هذا غير ذاك؟ من الذي خرج على الناس بهذا الدين الغريب، دين الإسلاميين ! ما هذه الطائفية التي انتشرت في هذا العهد؟ همس ابن حنبل لغريب في أذنه بكلمات، فقام غريب واقفًا متدخلًا في الجدل المحتدم.

- يا أخي الكريم انت وهو، نريد أن نعرف من هم الإسلاميون؟

رد عليه شاب ذو لحية خفيفة: ألا تعرف يا عم الشيخ من هم الإسلاميون؟! هم يا سيدي من يرضون بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

سأله ابن حنبل بلكنته ولغته العربية الفصيحة: قل لي أيها البُهْلُول، إذا كان الإسلاميون هم من يؤمنون بما قلت، فبمن يؤمن المسلمون؟

تعجب الشاب واندفع قائلًا: بُهْلُول! أنا بهلول أيها الجاهل؟

انخفضت كتف ابن حنبل من فجأته وقال: البهلول هو السيد، لا تنحرف عن فهم مقصدي يا فتى.

- أنحرف! أنا لست منحرفًا، أنا داعية كبير، تعلَّم كيف تحترم العلماء.

- والله يا أخي العالم لا أستطيع أن أنتقص من نِقابك وعلمك أنا فقط أريد أن أعرف بأي شيء يؤمن المسلمون.

- نقابي ! أنت رجل مخرف، هل تراني ألبس النقاب، أو أنني من رجال النقابات، صن لسانك واحفظ أدبك.

تدخل بعض الجالسين والواقفين لينهوا النزاع، إلا أن أحدهم سأل

ابـن حنبـل: لغتك غريبة يا مولانا لكن يبدو عليك أنك رجل طيب، عن أي شيء تقصد عندما قلت لمولانا الداعية إنك لا تنتقص من نقابه؟

- يا أخي الكريم، الرجل الذي ينقب في البلاد بحثًا عن العلم هو الرجل «النقاب».

- هو حضرتك عضو في مجمع اللغة العربية؟

- أنا لا أريد إلا أن أعرف من هم المسلمون في زمنكم هذا.

قـال الداعيـة بكلـمات وقـور ليسـتعيد مكانته في المـكان: هـذه أول مرة يواجهني أحدهـم فيها بهذا السـؤال! المسـلم يا عزيزي هو من قال لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ارتفعت أصوات الجميع: صلى الله عليه وسلم.

ابـن حنبـل: أي إن المسـلمين هـم من يرضـون بـالله ربًا وبالإسـلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

- نعم.

- وما الفارق بينهم وبين من تطلقون عليهم الإسلاميين؟

رد أحدهم: يا عم الحج رَيَّح نفسك، الإسلاميون هم بتوع الجماعات.

تدخـل غريب يوسـف في الحديث وقـد ظهر عليه أن صـبره نفد أو كاد: يا اسـيادنا نسـتميحكم عذرًا، نحن أغراب عن هـذا البلد وكان معنا صديق ولكنه تاه منا في المظاهرات، فهل يدلنا أحدكم على كيفية العثور عليه.

رد الداعيــة صاحــب اللحيــة الخفيفة وقد أخذتــه الريبة: لمّـا انت غريب يا حاج لماذا دخلت المظاهرة مع صاحبك؟!

تـرك ابـن حنبل قعدته واسـتند على مرفقيـه وقام واقفًا: يا سـيدي إنما أنا رجل حَلَّ على بلادكم في رحلة كان الدافع إليها خالصًا لوجه الله تعالى.

بتهكم: أهلًا وسـهلًا، يعني حضرتك سـائح من بتوع السـياحة الدينية، وما دمت سائحًا لماذا تشترك في المظاهرات؟

- لقد أنطقك الله بالحق يا فتى، أنا سائح أبحث عن الحقيقة.

وإذا بالداعية يصيح مثيرًا الشغب بين الحاضرين: هؤلاء عملاء، شَكْلهم من حماس أو حزب الله.

ـ اقبضوا عليهم، يجب أن نسلمهم للشرطة.

ـ شرطـة ! وهـل يوجـد شرطة؟ الشرطـة انتهت يا سـادة، نحن يجب أن نأخذ حقنا بأيدينا، قسمًا بالله العظيم ثلاثا لنقتلكم الآن يا عالم يا كفرة.

هجمـت مجموعـة مـن الواقفين عـلى الشـيخين، وبـدأ الـركل واللكم، والشيخان عاجزان لا يستطيعان الدفاع عن أنفسهما، كوَّم العمدة غريب نفسه على الأرض وأحاط وجهه ورأسـه بيديه، وعلى إثره فعل ابن حنبل مثله، إلا أن المروءة تمكنت من بعضهم فأحاطوا بالضاربين ومنعوهم من الاسترسـال في الـضرب وأحدهم يقـول زاعقًا: حرام عليكم يا ناس، أتضربون شـيخين يبـدو عليهما الوقار والاحترام لمجرد الشـك فيهما؟ مـن أدراكما أنهما عميلان أو من حماس أو من حزب الله، أمِن غير تحقيق أو سين وجيم تتهمون الناس بالباطل؟!

رد أحدهم: خلاص، يبقى أن نسلمهم للشرطة.

قال آخر: نحجزهم هنا إلى أن تنتهي المظاهرة ثم نسلمهم لقسم الأزبكية.

انحدرت دمعة عزيزة من عين الشيخ المُبتلى ابن حنبل ، لم تُذرف دموعه من قبل إلا في مواضع خشية الله والتبتل إليه ومناجاته،حتى عندما انهال عليه الجند بالضرب بالسياط كان ثابتًا رابط الجأش، لم تنطلق منه دمعة واحدة ، هو لا يبكي أبدًا وهو يقف على ثغرة من ثغور الأمة، فلماذا يبكي وهو في شرف لا يدانيه شرف؟ ولكنه الآن في موضع آخر، هؤلاء الرعاع يضربونه إهانة لكرامته، وشكًّا في مروءته، سالت دموعه رغمًا عنه، إلا أن كرامته انتفضت وابتلعت دموعه قبل أن تعلن عن نفسها، ابتلع دموعه ولكنه بكى، بكى كما يبكي الرجال، والرجل الذي تصاحبه عزة النفس يبكي قلبه، ورأسه مرفوع، وشفته منفرجة عن ابتسامة خفيفة خفية، لا ينكس رأسه أبدًا، هكذا يكون الرجل وهكذا بكى صاحبنا.

رفع رأسه شامخًا ولم يحفل بالضربات التي نهشته، وغريب بين أيدي الضاربين يتلوى، أين أنت يا مصطفى؟ أفي هذا الموقف تترك الشيخين نهبًا للمتشككين وأصحاب الهواجس؟! هذه أول مرة يتعرض فيها ابن حنبل للضرب من العامة، وهي أيضًا أول مرة يتعرض فيها العمدة غريب للضرب من أحد على الإطلاق، ولكنك يا مصطفى اختفيت من أمامهما في الوقت الذي هم فيه في أمس الحاجة إليك، ها هما الآن في قسم الأزبكية يتعرضان

للمهانة والإعراض، عالم الأمة يقف بين المشتبه فيهم والمجرمين، ليس الأمر غريبًا عليه فقد سبق أن اقتيد إلى سجن الرصافة وهو مقيد بالأغلال، ولكنه الآن لا يهتم بحاله وإنما يرأف بالعمدة غريب الذي كان من أرباب السلطة، ومن حكام البلاد ثم إذا به يقف هذا الموقف، هذا أصعب ما يتعرض له رجل ذو سلطة ومهابة وهيلمان، فجأة يقف في موقف الرعاع المجرمين: «والله لو أن الدنيا كلها أصبحت الآن لقمة في يدي ما توانيت عن وضعها في فم العمدة».

وفي حجرة الحجز المظلمة ذات الرائحة العطنة التي لا يعرف الهواء النقي طريقها اقتيد الشيخان، جلسا على الأرض متهالكين.

جسدك يا غريب نال ما نال، وجسدك يا بن حنبل أخذ نصيبه كأن ضربات المعتصم لم تكفه، أمضروب أنت في كل زمن؟!

انتبه غريب على رجل جالس بجواره ويبكي بصوت مرتفع ، رق قلبه لهذا الرجل الأشعث المغبر فسأله: ما لك يا عم الحاج؟

- ابني غائب عني منذ ثلاثة أشهر، اختفى بعد أحداث محمد محمود،بحثت عنه في كل مكان فلم أجده.

- غائب ! أين ذهب؟

- الله أعلم.... وانهمك الرجل في البكاء.

- ما اسمك يا عم الحاج؟

- أنا صادق.

- والله العظيم أنا عارف إنك صادق، حكايتك أوجعت قلبي.

- اسمي صادق يا أستاذ....

- غريب يا حاج، اسمي غريب.

- ما غريب إلا الشيطان يا أخي.

- قل لي يا عم صادق بالراحة، ما سبب اختفاء ابنك؟

- ابني يا أخ غريب اسـمه حسـين وهو من الثوار، كان أول من وقفوا في ميـدان التحرير، وظل ثابتًا لا يغادر الميـدان، ويوم الجمعة الثامن والعشرون مـن يناير أصيب برصاصة في بطنه ولكن الله سـلَّم حيـث قام الأطباء بإنقاذه بعد عملية جراحية اسـتأصلوا فيها جزءًا من القولون، وظل الولد يا سـيدي تحـت العـلاج فـترة، إلى أن جاءت أحداث محمـد محمود فإذا بـه يترك البيت بـدون علمـي ويذهب إلى هناك، كنـت خائفًا عليه، فيكفيه مـا قدمه للثورة، يكفيه دمه الذي سال وجسده الذي استأصلوا جزءًا منه، تعرف يا حاج، يوم أن تم الاسـتئصال قلت له بعد أن أفاق من البنج «ولا يهمك يا حسين، جزء من جسـدك سـبقك إلى الجنة، وهذه بشرى خير، وأنت إن شاء الله ستذهب إلى الجنة وستكون دليلنا إليها، أنا وأمك».

كنت أضحك يا حاج غريب في وجهه وقلبي يبكي، تعرف يا عم غريب، إذا تألمت فمن الممكن أن يعرف الناس أنك تتألم، ولكنهم لن يشـعروا بمدى ألمـك، الوحيد الذي يشـعر بألمك ويتألم مـن أجله هو أبـوك، والوحيدة التي

يكتـوي قلبها بالنار من أجـل ألمك وتتمنى أن يصير هذا الألم إليها بدلًا منك هي أمك.

كان الإمام ابن حنبل يستمع إلى الحوار بأذن صاغية فكان أن سأل الرجل: سمعتك تقول أحداث محمد محمود، من هو محمد محمود هذا؟

مال صادق ناحية غريب وقال له همسًا: هل هذا الرجل غريب عن مصر؟

رد غريب: نعم يا عم صادق، هو غريب عن مصر، وأنا أكثر منه غربة.

وجَّـه صـادق كلامه لابن حنبـل: محمد محمود هـذه يا سـيدنا كانت منذ ثلاثـة أشـهر، كانت هـي الموجة الثانيـة للثورة، خـرج الثوار كلهـم وذهبوا إلى شـارع محمد محمـود عند وزارة الداخلية، وكانت مظاهرتهم سـلمية، كل مـا كانوا يطالبـون به هو أن يقوم المجلس العسـكري بنقل السـلطة لحكومة مدنيـة منتخبة، كان الثوار يا سـيدنا يطالبون العسـكر بتحديد موعد لإجراء الانتخابـات الرئاسـية، ورغـم أنهـم كانـوا سـلميين، فـإن وزارة الداخليـة والعسـكر اسـتخدموا معهـم كل وسـائل العنـف، ضرب بالرصاص الحي يـا مولانا، والرصاص المطاطي والخرطوش والقنابل المسـيلة للدموع وهلم جرا، ضربوهم بأشـياء لا تستخدم إلا في الحرب الكيماوية ! تصدق يا سيدنا شرطتنـا وجيشـنا يعتـدون عـلى شـبابنا بأسـلحة محرمـة دوليًا! سـيبك انت يـا مولانا من كلام الحكومة الذي كان مدهونًا بالزبدة وطلعت عليه شـمس الحقيقـة فـذاب، لكن الذي أوجعنـا كلنا هو أن الإخوان لم يشـاركوا في هذه المظاهرات، ليس الإخوان وحدهم، ولكن الجماعات الإسلامية كلها، ولماذا

لم يشاركوا في المظاهرات؟ لأنهم كانوا يستعدون لانتخابات مجلس الشعب، وقالوا إن انتخابات المجلس أهم من أي شيء. سبحان الله يا عمنا، هل هذا الكلام يرضي ربنا؟ تتركون دماء الشباب تسيل، وتقولون إن البرلمان أهم! هل الكعبة يا عمنا - وشكلك رجل بتاع ربنا - أهم من دم المسلم؟! دم المسلم والمصري كان يسيل أنهارًا، الدم روى أرض الوطن، والأرض لا تشبع من الدم، فهو في الأصل منها، والإخوان وقتها لم ينصروا الثوار ولم يقفوا مع الشعب، وقالوا لتبرير موقفهم: إننا نأسى لأحداث محمد محمود. يا سلام على المشاعر المرهفة! والله لقد قطعوا نياط قلبي! ثم قال واحد منهم اسمه راغب السرجاني لضحايا محمد محمود: «صبرًا آل محمد محمود فإن موعدكم الجنة». أما الإخوان يا مولانا فإن موعدهم البرلمان.

استدار صادق ناحية غريب قائلاً: تعرف يا عم غريب الكاتب جلال عامر.

لم يرد غريب فاستمر صادق متحدثًا: جلال عامر قال هل تعرفون الفارق بين المسلم والإسلامي؟

رد ابن حنبل سريعًا: نعم أنا أريد أن أعرف، ما الذي قاله الشيخ عامر هذا؟

- قال: إن المسلم هو من يتخذ الدين طريقًا ليتبوأ مقعدًا في الجنة، أما الإسلامي فهو من يتخذ الدين طريقًا ليتبوأ مقعدًا في البرلمان... آه يا حسين، أين أنت؟

قال غريب مستفسرًا: وما الذي حدث لحسين ابنك؟

- الله أعلم، لم يعد إلى البيت، بحثت عنه في السجون كلها والأقسام،

والنيابات، ثم أخذت أتجول بين المستشفيات، لم أترك مستشفى إلا ودخلته بحثًا عن ابني الوحيد وفلذة كبدي إلا أنني لم أعثر عليه، قالوا لي اذهب ابحث عنه في المشرحة، ولكنني رفضت، مشرحة، مشرحة لماذا؟ حسين لم يمت يا عم غريب، حسين ما زال حيًا يرزق، هل الثوار يموتون؟!! الثوار لا يموتون أبدًا مثلهم مثل الشهداء، الثوار أعطاهم الله منزلة أعلى من منزلة البشر العاديين الذين يأكلون ويشربون وينامون كما البهائم، الثوار لا يبحثون عن الدنيا أو المناصب أو المال أو الجاه، هل يثور الثوار من أجل عرض الدنيا الزائل ! الثوار يا عم غريب يثورون من أجل الحرية، ستقول لي: حرية مَن؟ سأقول لك: حرية الذين يأكلون ويشربون وينامون ويضطجعون مع زوجاتهم كما البهائم، ثم يقولون عندما يستيقظون من نومهم وهم يعبثون بأنوفهم المقززة: ماذا يريد هؤلاء الثوار، لقد خربوا البلد.

نظر غريب إلى ابن حنبل فوجد عينيه قد اغرورقتا بالدموع، فقال لصادق وكله أسًى: كان يجب أن تذهب للمشرحة يا عم صادق، لا تترك ضناك هناك.

ـ ابني لم يمت يا عم غريب، لو كان الثوار يموتون لمات يوم أن ضربوه بالرصاص في بطنه، ابني ليس في مشرحة، ولكنه في أحسن مكان خلقه ربنا.

ـ ربنا يهديك له ويعيده سالمًا غانمًا، ولكن ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ أنا ساكن في دائرة القسم وكنت قد حررت محضرًا بفقد ابني وطلبت

من الشرطة أن تبحث عنه، الشرطة مسئولة عنه، والحاكم مسئول أمام الله، وكنت كل فترة آتي إلى القسم لأسأل: هل من جديد؟ واليوم أخذت ألح على الضابط بالسؤال، فقال لي اذهب إلى مشرحة زينهم، ثم قال وهو يضحك: لن تجده حتى في المشرحة، فبالتأكيد تم دفنه في مقابر الصدقة، أو تبرعت المشرحة بجسده لكليات الطب، فانفعلت على الضابط وأخذت أقول له: أنت كذاب، كذاب، فاعتبر أنني تعديت عليه أثناء ممارسة عمله وحرر لي محضرًا، وسيعرضني ليلًا أمام النيابة المسائية ، ولو قال لي وكيل النيابة إن ابني مات وجسده في المشرحة سأضع أصابعي هذه في حبة عينه.

انطلقت أفكار ابن حنبل معلنة رفضها هذا الظلم، قال لنفسه: «أنا كنت ثائرًا، ثرت في وجه الحاكم الذي أراد أن يخضعنا لكلامه وأفكاره، لك أن تعتقد ما تشاء يا مأمون ويا معتصم، ولكن ليس لك أن تجبرنا على أن نؤمن بما تعتنقه، الثورة شكل من أشكال تطهير الذات، فكما نطهر أنفسنا بالوضوء قبل الصلاة، فإننا نطهر أرواحنا بالثورة في وجه الظالم، ولكن كيف تضيع الأولويات ممن يسمون أنفسهم إسلاميين، يبحثون عن الدنيا ولا يهتمون بالدماء، أكاد الآن أوقن أنهم لا يهتمون إلا بدماء الحيض والنفاس، ولكن دماء الثوار والشهداء لا تعنيهم.. كل إنسان في شأن، ونحن هنا في هذا الحبس العطن، وأنت، أين أنت يا مصطفى؟».

مصطفى كان له شأن آخر، ولكلٍّ شأن يغنيه، فعندما اشتدت الشرطة في ضرب المتظاهرين أمام مسجد الفتح برمسيس تراجعوا إلى قرب محطة رمسيس، وأخذ البعض يجمع الحجارة ويكسر بلاط الأرصفة ويناولها لفتية

ينقلونها سريعًا للمتظاهرين في الصفوف الأولى فيقذفونها على قوات الأمن، والأمن من ناحيته أخذ يطلق القنابل المسيلة للدموع والخرطوش على أولئك الذيـن يريدون اسـتمرار الثـورة، كان مصطفى قد اندس وسـط المتظاهرين إلا أنه أدرك خطأه بترك الشيخين في هذا الموقف فأراد أن يعود إليهما سريعًا، وحين استدار تلقى ضربة على رأسه لا يعلم سببها ففقد الوعي.

■■■

أفاق مصطفى من غشـيته فوجد نفسـه يسـتطب في مدخل فسيح لعمارة، كانت بوابة العمارة مغلقة وبعض الشباب يتنقلون بين مجموعة من المصابين، شـعر بألم شديد على رأسـه فتحسس موضع الألم ليجد أربطة تحيط برأسه «آهٍ على هذا الوجع، من الذي ضربني وأين أنا الآن؟».

ومضت في ذهنه صورة الشيخين فقفز من مكانه واقفًا: أين أنا؟ ما الذي حدث لي، من أنتم؟

رد أحد الشـباب: هذا مستشفى ميداني يا حضرة، أنت مصاب في رأسك من ضربة حجارة ألقاها جنود الأمن المركزي، احمد ربنا أن رأسـك اسْـتَقْبلَ حجارة ولم يستقبل قنبلة غاز، أو رصاصة خرطوش.

ـ مستشفى ميداني؟! ومن حضراتكم؟

ـ نحن من الثوار، وبعضنا طلبة في كلية الطب نقوم بإسعاف المصابين.

جلس مصطفى كما كان، وأخذ يتأوه شاكيًا من وجع الرأس وحرقة الألم، فتقدم إليه الشـاب الذي كان يحدثه وأمسك يده وأخذ يسأله: قل لي إذا كنت تشعر بدوار أو غثيان أو صداع؟

- هل أنت طبيب؟

- لا، أنا علاء طالب في كلية الطب جامعة عين شمس.

- لا أشعر بشيء مما سألت.

- هل توجد زغللة في عينيك؟

- لا والله، عيني سليمة ونظري سليم.

- هل تعرف في أي يوم نحن؟

- الخميس.

- هل كنت في المظاهرة؟

- دهده دهده ! هو تحقيق يا حضرة؟

- أنا أريد أن أطمئن أنك لم تصب بارتجاج في المخ.

- الحمد لله يا دكتور، دماغي مصفحة، هل المظاهرة ما زالت مستمرة؟

- ابتعدت قليلًا، هل تريد أن تخرج لتنضم إليها؟

- لا والله، أريد أن أخرج لأنضم إليهم.

قام مصطفى خارجًا من المستشفى الميداني وأخذ يحدق ببصره ليعرف موقعه، فرأى من الناحية الأخرى محطة رمسيس، فأسرع يهرول إليها، وحين وصل إلى المكان لم يجد الأمانة، اختفى الشيخان ! تلفت يمينًا ويسارًا وأنفاسه تلهث من فرط الهرولة والانفعال، دخل مسرعًا إلى المحطة واندفع

ذات اليمين وذات الشمال ونظرات عينيه تسبقه، إلا أنه لم يعثر لهما على أثر، وحين رأى بعض الأشخاص يقفون في جمع ذهب إليهم وقلبه يتمنى أن يجد خبرًا لديهم.

- السلام عليكم يا جماعة.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- هل رأيتم رجلين غريبين نحيفين أحدهما أسمر الوجه والثاني أبيض وكلاهما ملتحٍ.

- بتوع حماس؟

- حماس ! يا داهية دقي، أين هم؟

- قبضنا عليهم وذهبت بهم مجموعة من الشباب إلى قسم الأزبكية، هل أنت معهم؟

ولى مصطفى مدبرًا ولم يعقب، واتجه على الفور إلى قسم الأزبكية، وأمام الضابط النوباتجي أخرج بطاقته وأفهمه أنه مدير في المجلس المحلي لمدينة بلبيس، وأنه كان في زيارة للقاهرة مع قريبين له، ولكنه فقدهما.

قال له الضابط ببرود: وهل تريد مني أن أبحث لك عنهما؟!

- لا العفو يا افندم، أنا خايف تكون الشرطة قبضت عليهما (اشتباه) لأنهما لا يحملان بطاقات شخصية، فقد نسيناها في البلد.

- وما اسماهما؟

ـ الإمام أحمد بن حنبل والعمدة غريب يوسف.

– نعـم يا حضرة، انت جاي تفـوق علينا، الإمام أحمد بن حنبل ! ولماذا لم يأت معه الإمام الشافعي والإمام أبو حنيفة وباقي الأئمة؟

– نصيـب والله يا حـضرة الضابط، كل شيء نصيب ومكتوب، لو رويت لك فلن تصدقني.

– اسمع يا رجل انت، افتح فمك عن آخره.

تعجـب مصطفـى إلا أنـه فَغَـر فمـه، فاقـترب الضابـط منه وأخذ يشـم أنفاسه.

– هو حضرتك فاكر إني سـكران؟ أنا رجل متدين والحمد لله ولا أقترب من هذه المنكرات.

– اتفضـل امش من قدامـي وإلا أدخلتك الحجز وحولتـك للنيابة حتى تأمر بإجراء تحليل لدمك إن كان عندك دم.

هـرع مصطفى خارجًا والضابط يصيح خلفـه: بطَّلْ مخدرات، ولو أتيت هنا مرة أخرى فسأحبسك.

جلس مصطفى على الناحية الأخرى من شارع الجلاء مرتكنًا على الرصيف، أيـن يذهـب الآن؟ هل سـدت الدنيـا أبوابهـا في وجهه؟ لا لم تسـد أي باب في وجهـه فهو يسـتطيع العودة إلى بلده مرة أخرى، وكأنك يـا أبو زيد ما غزيت، ولكن هل يليق هذا به، أبعد أن وعدهما بالذود عنهما ومناصرتهما ينسل منهما، هل هذه رجولة ! ثم كيف يجرؤ قلبه على أن يترك جده نهبًا للأحداث؟

«ألم تكـن تفكر يا مصطفى في السـياحة في الأرض وحيدًا والبعد عن كل النـاس؟ ها هي الفرصة قد جاءتك، أنت الآن وحدك، خذ نفسـك وابتعد، اذهـب إلى طنطا حيث السـيد البدوي ومقامه، ادخـل وقَبِّل الأعتاب وتبرَّك بهؤلاء الصالحين، وعش ما بقي لك من العمر في الذكر والعبادة».

«ولكـن ولـماذا لا أتبرك بالصالحين الذين معي؟ يكفينـي أنني أرافق إمام الأمة أحمد بن حنبل».

«ومن قال إن ما رأيته كان حقيقيًا؟».

«وهل كان خيالًا أو هلاوس سمعية وبصرية؟».

«أنت أفقت من ضربة على رأسـك وقد تكون هذه الضربة قد أثرت على عقلك وجعلتك تتوهم هذه القصة العجيبة».

«إذن لـماذا أنـا في القاهرة؟ ألم أكن في البلد ! أنا لم أتحرك من السـعيدية إلا لكـي أرافق الشـيخين، إنـما الهواجس هي ما يبثـه الشـيطان في روعي الآن، قسـماً بالله العظيم، ورحمة ابني نور لن أترككما، سـأبذل كل الحيل حتى أصل إليكما».

انتبـه مصطفى من أفكاره التي غيبته عن الدنيا على رجل يمرق من أمامه متجهًا ناحية القسـم، كان هذا الرجل متوسـط العمر وقـورًا نحيفًا يبدو من سـيماه وملابسـه أنـه شـخصية ذات اعتبـار وحيثيـة، أسرع مصطفى خلف الرجل صائحًا: يا أستاذ، يا أستاذ.

التفت إليه الرجل قائلًا: خير يا عم الحاج.

- هوَّ حضرتك نيابة أو مباحث؟

- لا نيابة ولا مباحث أنا محام، خير.

- طيب ممكن تساعدني؟

- لو كان في إمكاني فلن أتأخر عليك، ما هي مشكلتك؟

- كان معي شيخان من أقاربي، وهذه أول مرة في حياتهما ينزلان مصر، ومن حوالي ساعتين كانت هناك مظاهرة عند جامع الفتح ووو... واسترسل مصطفى في شرح الأزمة التي تعرض لها هو والشيخان وما لاقاه داخل القسم من تجهم وإعراض، فطلب منه المحامي بيانات الشيخين، تردد مصطفى إذ خاف أن يعتقد المحامي أن به لوثة عقلية إن ذكر له اسم الإمام ابن حنبل، فاكتفى بأن قال له: والله يا أستاذ من الحظ النكد أنهما مريضان، وقد أحضرتهما للقاهرة من أجل العلاج، واحد منهما عمدة قد الدنيا من الشرقية اسمه الحاج غريب يوسف غُرَيب، والثاني اسمه الشيخ أحمد أبو عبد الله ، وهو رجل بركة من أهل الله، وليس معهما تحقيق شخصية.

أشار له المحامي بالسير معه حتى دخلا على الضابط النوباتجي، انزوى مصطفى سريعًا في ركن قصي حتى لا يلحظه الضابط، إلا أنه وجد الضابط يبش في وجه المحامي محييًا إياه: أهلًا بك يا أستاذ سيد، خير إن شاء الله.

- أريد أن أسألك عن بعض الشباب الذين كانوا في مظاهرة جامع الفتح، قيل لي إنهم هنا في القسم.

- لا والله يا أستاذ سيد، المقبوض عليهم في المظاهرة يأخذونهم مباشرة

كـما تعـرف إلى معسـكر مـن معسـكرات الأمن المركـزي، الحجز في القسـم لا يتسع لأعداد المقبوض عليهم، ولو كان عندي أحد لأخبرتك.

- هل تعرف إلى أي معسكر ذهبوا؟

- في الغالب سيكونون في معسكر الدرَّاسة.

- أشكرك يا باشا، لكن لي خدمة صغيرة عندك لو تفضلت.

- خير يا أستاذ سيد، أنا تحت أمرك.

- يوجـد شـيخان في الحجـز عنـدك، أحدهمـا عمـدة مـن الشرقيـة، ولا يحمـلان تحقيـق شـخصية، انت تعـرف طبعًا أننـا في ثـورة، وهؤلاء من الفلاحين الذين لا يعرفون شـيئًا عن القاهرة ووووو.... وأخذ الأستاذ سيد المحامـي يشرح للضابط محـاولًا إقناعه بإخلاء سـبيل المحتجزين، والضابط يقاوحـه، والمحامـي يلوح له بأنـه ليس من حقه أن يحتجـز مواطنًا دون وجه حـق، ودون أن يرتكـب جريمـة، وأننـا في عـصر الحريـات، ولا شيء يعلو عـلى حرية المواطن، وأن منظمات حقوق الإنسـان من الممكن أن تفضح هذا الاحتجاز خاصة أن المحتجزين مريضان وقد يهدد الحجز سلامتهما، لم تسفر محاولات المحامي عن نتيجة فاتجه بالحديث إلى منحى آخر.

- أنـت حـر يا حـضرة الضابط، لكن أريـد أن أخـبرك أن أحدهما عمدة كبـير، وإذا لم تفرج الآن عنهما فسـتفتح عينيك بعد قليـل على أهل بلده وهم يحاصرون القسم، وقتئذ ستكون كارثة، ألا هل بلغت اللهم فاشهد، السلام عليكم.

- انتظر يا أستاذ سيد، الكلام أخذ وعطاء، المشكلة أن من أحضروهم يقولون إنهم شكُّوا في حقيقتهما، يظنان أنهما من حماس.

- وهل حررت لهما محضرًا وسألتهما؟

- ليس بعد.

- إذن أحضرهما الآن لنسمع ردهما على ما قيل في شأنهما، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

جاء الشيخان يتكئان على بعضهما، يسيران على مهل وضعف، ووجه الإمام ازدان بالكدمات، وآثار دم على وجه العمدة، نظر الأستاذ سيد إلى الضابط مستنكرًا: ضرب وتعذيب يا حضرة الضابط داخل القسم.

- ضرب ! لم يضربهما أحد يا أستاذ داخل القسم، ولكنهما جاءا لي بهذه الحالة.

تقدم مصطفى لأول مرة ليظهر في دائرة الرؤية وهمس في أذن المحامي، فتقدم المحامي إلى حيث الإمام أحمد وطلب منه أن يكشف عن ظهره، وإذ فعل الإمام هذا ظهرت علامات الضرب بالسياط بوقاحتها وقسوتها، صاح المحامي: ما شاء الله يا حضرة الضابط، ضرب بالسياط على ظهور المحجوزين، هل جاءا لك بهذه الحالة أيضًا!

ارتبك الضابط وأخذ يلين بين يدي المحامي الأريب، وإذ حاول أن يستنطق الشيخ المضروب بالسياط عن سبب هذا الضرب ومن الذي فعله إلا أنه لم يتلق إجابة إذ لزم الإمام الصمت.

خرج المحامي من القسم ومعه الغنيمة التي اغتنمها، حصل على حرية رجلين بريئين، كانت هذه هي أسعد لحظات هذا المحامي الذي عاش عمره يكد من أجل الحرية، نذر نفسه للناس، ظل في عونهم دون أن يبحث عن مقابل، هل في الدنيا من يضحي بوقته وجهده وماله بل وعمره كله من أجل مبادئه؟ نعم يوجد ولكنهم يعملون في صمت لا يراهم أحد، لا نشعر بهم إلا إذا افتقدناهم، هؤلاء هم الذين يعملون من أجل قناعاتهم ويستغنون من أجلها عن طموحاتهم الشخصية، أما أصحاب الشهرة والحديث المتراص المنمق البارد الذي لا يحمل حرارة الرجال، فهؤلاء يضحون بقناعاتهم ومبادئهم ويبيعون أخلاقهم من أجل طموحاتهم، ويبدلون مواقفهم كما يبدلون جواربهم، وحين يبدلونها يشعرون في قرارة أنفسهم بنقيصتهم فيقولون إنما التبديل كان من أجل الوطن، نحن مع الوطن ندور، وهم في الحقيقة مع «الوثن» يدورون، يقيمون في أوثانهم التي صنعوها، ويهجرون أوطانهم التي صنعتهم، ولأن الشرف ينقصهم فهم لا يتكلمون إلا عنه، تناظر رجلان ذات يوم، فأخذ أحدهما يتحدث عن الشرف والوطنية، فأعجب به الجمهور أيما إعجاب رغم برودة كلماته ونمطيتها، بينما قال الآخر موجهًا كلامه لمن نظم المناظرة: ما قدر المال الذي سنأخذه من وراء هذه المناظرة؟ فإنني أرى عددًا كبيرًا من الجمهور دفع من ماله ليحضر، كما أن قنوات التلفزيون المتعددة تصورنا على الهواء!

بوغت الجمهور بكلام الرجل واستصغر شأنه، ووجدها الآخر فرصة للنيل منه، فقال له وهو يظن أنه يوجه له الضربة القاضية، أتحدث عن الشرف والوطنية، وتتحدث أنت عن المال.

فرد الآخر ردًا مسكتًا: كل واحد منا يتحدث عن الشيء الذي ينقصه.

وعلى باب القسم أخذ مصطفى يشد على يد المحامي شاكرًا إياه لحسن صنيعه: جميلك في رقبتي يا أستاذ لن أنساه ما حييت، كم تريد من أتعاب؟

رد المحامي باسمًا: أنا لا أتقاضى أتعابًا في قضايا الحريات أو العمال أو الفلاحين.

قال العمدة غريب: أتعابك عند ربنا يا متر، ولكننا نريد أن نتعرف عليك، ممكن نأخذ اسمك وعنوانك لربما احتجنا إليك مرة أخرى.

- اسمي سيد فتحي المحامي يا حضرة العمدة، مدير مؤسسة الهلالي للحريات، خذ هذا الكارت ففيه عنواني ورقم هاتفي.

وقبل أن يقرأ العمدة ما في الكارت كان سيد فتحي قد اختفى.

■■■

حادث المنصة

(اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار، وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والمات، اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، يارب إنك القائل في كتابك ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ وأنت القائل ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾ وقد أسلمتك نفسي يا الله وانخلعت عن أنانيتي وذاتي، يا رب نجني من هذا الأمر الذي أنا فيه كفافًا، لا عليَّ ولا لي، اللهم إنك تعلم السرَّ وأخفى،

ومـا وقـر في قلبي وما أخفيتُـه عن العالـمين، وتعلم أن شـيئًا في الدنيا لم يكن أبغض لقلبي من أن يُكتب شيء من رأيي أو فتواي، ولكن من عرفوا بُغضي عصوا أمري، ويوم أن عرفتُ أن «إسـحاق الكوسـجي» روى عني مسـائل في خراسـان رجعت عن كل الذي روى، اللهـم لا تؤاخذني بما قالوه ونقلوه عنـي، اللهم اجعل التقوى زادي والآخرة أمامي، واجعلنـي مُتَّبِعًا لا مُتَّبَعَا، آمين يارب العالمين.. السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله).

أنهى الإمام صلاته وأخذ يسبح لله سبحانه، فاقترب منه المأمومان غريب ومصطفى وصافحاه، اندهش ابن حنبل من المصافحة، وزادت دهشته عندما قال له العمدة غريب: حرمًا يا إمام.

ابتسم الإمام ابن حنبل وقال: سمعت أنكم في بلادكم تصافحون بعضكم بعد الصلاة وتقولون حرمًا فيقال لكم جمعًا، وأعرف أنهم يفعلون ذلك أيضًا في بلاد المغرب.

العمـدة غريب: نعم يا إمام هذا صحيح، فنحن نتوق شـوقًا للذهاب إلى بيـت الله الحـرام، فندعو لبعـض ونحن نتصافح بالصـلاة في الحرم، فيرد من نصافحه «جمعًا» تأمينًا لهذا الدعاء له ولنا، ولكن هل هذه بدعة يا إمام؟

- هل هي في الصلاة نفسها؟

- لا.

- أليس دعاءً هو؟

- بلى.

- فهل الدعاء بالخير بدعة؟

- لا بالقطع.

- وهل المصافحة بدعة؟

- أيضًا لا.

- أجبت بنفسك.

تدخل مصطفى: ولكن هناك من يقولون نقلًا عنك يا إمام، إن هذا الفعل بدعة.

مندهشًا ومستغربًا: لم أقل هذا أبدًا ومن نقله عني افترى عليَّ، قل لي يا مصطفى هل سمعت دعائي بعد التشهد وقبل التسليم؟

- نعم يا إمام سمعته، كنت تدعو بصوت خافت ولكنه مسموع.

- الدعاء الذي تعبدت به لله سبحانه فيه ما هو مأثور عن الرسول ﷺ وفيه ما كان إلهامًا أجراه الله على لساني ولم يقله الرسول، فهل هذا الدعاء بدعة... وهو في الصلاة نفسها.

- لا ليس بدعة.

- فكيف تكون مصافحتكم ودعاؤكم بعد الانتهاء من الصلاة بدعة!

قال العمدة غريب: ولكن لماذا تكره أن ينقل الناس علمك يا إمام؟!

- أحبُّ أن ينقلوا عني الحديث الشريف، وليس عندي في الدنيا أحب من هذا، ولكن الرأي والفتوى فلستُ أهلًا لهما.

- ولكن كل الخلق نقلوا عنك رأيك في القرآن.

- هذا لم يكن رأي، هذا دين، ولم أقله من عندي ولكن من كتاب الله.

- أتكره من ينقل الرأي والفتوى عنك؟

- لا ولكن أكره أن يُنقل الرأي عني، ذات يوم يا غريب كنت أجلس مع أبي بكر المروذي، فجاء لي رجل من خراسان يحمل أوراقًا فأعطانيها، فنظرت فيها؛ فإذا فيها كلام لي، فغضبت وألقيت الأوراق كراهية أن يروي عني أحد شيئًا.

قام مصطفى واقفًا: أتحب أن أحضر لك شايًا باللبن يا إمام، لقد كان يوم أمس متعبًا لكما؟

- اجلس يا مصطفى أريد أن أتحدث معك قليلًا.

جلس مصطفى فاستطرد الإمام: قلت لي بالأمس عن هذا الصندوق العجيب الذي صعد بنا إلى هنا أن اسمه «المصعد» !

- نعم يا إمام اسمه مصعد.

- هذا من عجائب ما رأيت في حياتي، ويخلق ما لا تعلمون، هل هذا المصعد كان في أيامك يا غريب؟

- نعم يا إمام ولكنني لم أركبه إلا مرة واحدة عندما ذهبت إلى مكتب حامد باشا زكي في القاهرة.

- سمعتكما تقولان إننا في القاهرة، ما القاهرة؟ لم أسمع عنها في زمني، كنت أعرف الفسطاط والعسكر.

مصطفى: القاهرة هي عاصمة مصر يا إمام، ونحن الآن في منطقة مدينة نصر إحدى ضواحي القاهرة.

- وما المسجد الذي بجواركم؟

- اسمه مسجد خضر التوني، سنصلي فيه الجمعة إن شاء الله.

- لقد عرفت في هذا اليوم يا مصطفى الكثير من لهجتكم، فقد كان الحجز مدرسة لي، إلا أنني لن أكلم أحدًا من أهل مصر حتى أعرف كيف يفكرون، وكيف هو دينهم، من اليوم سأكون مستمعًا ولن أتكلم إلا معكما.

كان السكن الذي أوى إليه الرجال هو شقة في «عمارات التوفيق» بمدينة نصر كانت لأحد أقارب مصطفى، وكان هذا القريب قد سافر سفرًا بعيدًا وأعطى مفتاح شقته لمصطفى كي يراعيها ويقيم فيها إذا نزل إلى القاهرة ليقضي بعض شئونه، وعلى الناحية الأخرى من هذه العمائر ترتفع مئذنة مسجد خضر التوني الشهير.

أعد مصطفى الإفطار فأكل الإمام لقيمات وشرب رشفات من اللبن، وبعد إفطارهم صلوا الضحى ثم ناموا، وحين رن جرس المنبه انتفض الإمام من نومه فزعا: يا رب سلم سلم، ما هذا، ما هذا!

قام مصطفى يفرك عينيه: هذا هو المنبه يا إمام؟

مط غريب جذعه متثائبًا: يضرب الجرس في الموعد الذي نحدده.

ابن حنبل: وكيف تعرفون الوقت؟

مصطفى: بالساعة.

ابن حنبل: الساعة! يا رب سلم ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

مصطفى: أقصد ساعة الدنيا يا إمام وليست ساعة الآخرة، والساعة هي أداة اخترعها الإنسان ليتعلم منها المواقيت.

ابن حنبل: ويخلق ما لا تعلمون، ولكن الإنسان يستطيع - إذا أراد - أن ينبه نفسه ويستيقظ في الوقت الذي يريد.

مصطفى: هذه أشياء انطفأت فينا يا إمام فمع كل اختراع تضيع ملكة من ملكات الإنسان، المهم الآن أن نقوم لنغتسل غسل الجمعة حتى نستعد للصلاة.

كان مسجد خضر التوني مزدحمًا الأمر الذي أبهج قلب الإمام: ما شاء الله، هؤلاء هم عُمَّار المساجد، همس مصطفى في أذنه: يقولون إن الخطيب اليوم هو العالم السلفي والداعية الشهير أبو إسماعيل الرويني، لذلك فإن المسجد مزدحم عن آخره، ولو تأخرنا قليلًا ما وجدنا مكانًا داخل المسجد.

- رغم أنني لا أستسيغ كلمة سلفي هذه فإنني أتمنى أن نسمع خطبة طيبة إن شاء الله.

كانت عين الإمام ابن حنبل قد تعودت نوعًا ما على الدنيا الجديدة، ولهجتها، وطبيعة الناس فيها، أهل مصر من السهل أن تألفهم وتتواد معهم ورغم أنه تلقى في المحطة ركلًا وضربًا منهم فإنه عذرهم، فالناس أعداء ما يجهلونه.

ارتفـع صـوت أبي إسـماعيل وارتجـف مكـبر الصـوت الـذي أمامـه من حشرجة صوته:

(يـا من ارتكبتـم الخطايا في النهـاااااار، توبـوا في الليل، ويا مـن ارتكبتم الخطايا في الليل، توبوا في النهار يغفر لكم رب الليل ورب النهار، من أعرض عن ذكر الله فإن له معيشة ضنكًا ويحشره يوم القيامة أعمى، اذكروا الله» فقال المصلـون: لا إله إلا الله، عاد أبو إسـماعيل يقول «أنت يا من تجلس أمامي في الصف الأول - وأشـار إلى ابن حنبل - «هل تريد أن يحشرك الله يوم القيامة أعمـى؟ اذكر الله» نظر ابن حنبل إليه ولم يتمتم بشـفتيه... اسـتكمل الشـيخ أبو إسـماعيل «سـتقول له وأنـت أعمى: يا رب لم حشرتنـي أعمى وقد كنت بصيرًا، هل تعرف ماذا سـيقول لك رب العزة يا من أعرضت عن ذكره؟... سيقول لك ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ ظهرت أمامك آيات الله يا عبد الله فأيقنت بها ثم جحدتها، فاليوم ينسـاك الله... حد يسـألني: هل الله ينسـى؟ لا طبعًا يا فالح ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لكن خلي بالك، نسـيانك هـذه الآيـات في الدنيـا ليس هـو جهلك بها، أو سـقوطها من بالـك، ولكن النسـيان هنـا - خـذ بالك - هـو الجحود والإنـكار، لذلك يابـن آاااادم فإن الجـزاء من جنـس العمل، اليوم سـيُعرض عنك وتـتركُ في النـار خالدًا فيها أبدًا، وحدوا الدايم».

وفي الخطبـة الثانيـة قـال الشـيخ أبو إسـماعيل (فيـه واحد ظريـف ودمه خفيف سألني، هل الكافر سيكون خالدًا في النار، يا ظريف يا أبو دم خفيف أين تريده خالدًا؟ هل سـيخلد في جنينـة الحيوانات مثلًا؟ لا يا عم الظريف،

سيخلد في نار جهنم لا يخرج منها أبدًا، تعرفوا الظريف ده قال لي إيه؟ قال لي: ومن هو الكافر؟ شوفوا السفسطة! حاجة غريبة والله، هل نحتاج الآن بعد هذه القرون الطويلة من بعثة الرسول ﷺ إلى تعريف جديد للكفر، هل سنُبدل ديننا من أجل أن يفرح بنو العلمانيين والليبراليين وساء أولئك رفيقًا؟ الكافر يا ظريف يا بتاع السفسطة هو كل من أنكر وجود الله وأنكر دين الإسلاااام، وحدوا الديّاان، ربك قال لك يا مسلم ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ هل هناك أكثر من ذلك؟ نعم، فقد قال في محكم آياته ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ قام الظريف سألني: وهل المشرك غير الكافر؟ نعم يا عبد الله، المشرك غير الكافر، وكلاهما في نار الخلود، فالمشرك من يعبد الله ولكنه يعبد معه إلهًا آخر، زي النصارى كده، إوع حد فيكم يفتكر إن النصارى دول أهل كتاب، هم أهل شرك، الذي يقول إن الله ثالث ثلاثة مشرك، وكافر، لماذا مشرك، لأنه كما قلت لكم أشرك مع الله إلهًا آخر، ولماذا كافر؟ لأنه كفر بوحدانية الله، الظريف ده يا إخوانا لا يهدأ أبدًا، هؤلاء هم أهل الباطل، يريدون البحث عن ثغرة لينشروا الفتنة، فسألني عم الظريف: هل عندما أقابل النصراني أحييه بتحية الإسلام، شوف يا اخويا، إذا قابلت النصراني فلا تحيه بتحية الإسلام، قل له أي تحية؛ صباح الخير أو صباح الفُل، وإذا وقع في مشكلة فلا مانع أن تقدم له يد المساعدة؛ لأن الرسول ﷺ قال: (دخل رجل الجنة في كلب سقاه). يا أخي! نزِّل هذا منزلة ذاك».

كانت أفواج المصلين خارج المسجد لا حصر لها، استند ابن حنبل على

العمـدة مـن ناحيـة وعلى مصطفـى مـن الناحية الأخـرى ومـرق معهما من الزحـام، وقال بصوت خافـت لصاحبيه: أصابني هـذا الرجل بدوار، كيف تحمَّله الناس.

كان مصطفى قد طلب من خلال الهاتف سمكًا مشويًّا من أحد المطاعم، وعندما رُفع أذان العصر قال ابن حنبل: سنأكل إن شاء الله تعالى بعد أن نقيم الفرض.

استفهم مصطفى: أراك لم تستعد للنزول للمسجد يا إمام، هل سنصلي هنا؟

ـ سنصلي هنا جماعة، هذا الخطيب أصابني بالصمم والغثيان.

وبعد أن فرغوا من الصلاة تحلقوا حول السمك المشوي، لم يكن ابن حنبل قد تذوقه من قبل، فأخذ منه قطعة صغيرة أخذ يلوكها، سأله مصطفى: هل الكلام الذي قاله الخطيب صحيح من الناحية الدينية يا إمام؟

ـ هـذا الرجـل ليس عنـده أثارة من علـم، وهو يلبس الحـق بالباطل، إما جهلًا، وإما قصدًا.

ـ وما هو الصحيح إذن؟

ـ ليـس الآن يـا مصطفـى، ليس الآن، لكـن أخبرني ما هذا الذي تسـميه هاتفًـا أو تليفونًـا؟ إنه أعجب ما اخترعتم، صوتي يصل إلى غيري الذي يقيم بعيدًا عني، سبحان الله، ويخلق ما لا تعلمون.

مصطفى: هذا من اختراعات الكفار يا إمام، هم يخترعون ونحن نستعمل؟

- نريد أن نعرف يا مصطفى المساجد التي يلقي فيها علماء الأمة دروسهم، أود أن أستمع اليوم لدرس من عالم غير هذا الذي أسمعتني إياه.

كان غريب يوسف صامتًا لا يتكلم وكأنه نذر الصوم عن الكلام، كانت قسوة الشيخ أبي إسماعيل الرويني وهو يخطب أرهقته وشوشت على فؤاده، أين الرقة في الأداء واللين في مخاطبة الناس، ولكن.. لكل زمن رجال، ويا لفظاظة رجال هذا الزمن.

مرت أيام والإمام يتجول مع رفيقيه في مساجد القاهرة، تعرف خلالها على ملامح القاهرة وشوارعها وحواريها، ودروبها ومسالكها، أخذ يستمع لحوارات الناس وشئونهم وشجونهم، رأى بعينيه معظم المخترعات الحديثة، حتى إنه جلس في أحد مقاهي الإنترنت وأخذ يشاهد ويستمع لكثير من الشيوخ مثل محمد حسان وأبي إسحق الحويني ومحمد حسين يعقوب ومحمود المصري، وأصابه الفزع عندما استمع إلى الشيخ وجدي غنيم، وشيخ آخر اسمه عبده قمر وهو الظلام بعينه، وعند مساء الأربعاء أول فبراير عاد الإمام ورفيقاه إلى البيت، فأخذ غريب ومصطفى يسألان الإمام عن أشياء جرت على خاطريهما، قال غريب: ماذا نفعل يا إمام عندما نستمع من التلفزيون أو المذياع، أو تسجيلات الكاسيت، أو هذا المسمى بالإنترنت، لآية من آيات السجدة، هل نسجد عندها، أم لا؟

- لا أدري والله أعلم يا غريب.

قال مصطفى: وهل عندما نستمع لدعاء أحد الشيوخ يخرج من هذه الأجهزة، هل يصح أن نؤمِّن على هذا الدعاء؟

- لا أدري والله أعلم.

مصطفى: وهل يجوز أن نصلي جماعة خلف الإمام الذي يؤم الصلاة مباشرة على التلفزيون؟

- لا أدري والله أعلم.

غريب يوسف: عرفت أن بلاد العرب خرج منها سائل يسمى البترول يستخدم في توليد الطاقة وأشياء أخرى، فهل تلتزم هذه الدول بسداد زكاة المال عن هذا البترول يا إمام؟

- كان رأيي الذي قلته في زمني إن الذي يعثر على معادن بلغت النصاب فعليه زكاتها ذهبًا كانت أو فضة أو غير ذلك، وهي ربع العشر عند الظهور عليه، وتسمى زكاة الركاز،ولكن الواقع الآن يختلف، فالذي عرفته منكما أن الذي يمتلك الآن هذه المعادن ليسوا الأشخاص، ولكن الدول، والشركات، والله أعلم هل تجب على الدول والشركات الزكاة أم لا؟

قال مصطفى وقد يئس من أن يحصل على إجابة: كلما سألناك عن شيء من المستجدات لم تجب علينا يا إمام، بل إنك لا تقول إلا:الله أعلم، لا أدري!

قال ابن حنبل:هل تعرف يا مصطفى أن الإمام مالك سُئِل عن ثمان

وأربعين مسـألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري، يا مصطفى لا تبحثوا عن اجتهادات الأولـين فكلٌ اجتهد لزمنه وواقعه، ولكن اجتهدوا لزمنكم، اجتهـدوا لمكانكم، هـذا ليس زماني فلا أسـتطيع أن أجتهد فيـه إذ لا أعرف واقعه كما تعرفونه.

وبينـما الحـوار دائـر بينهـم إذا بصراخ مفـزع يأتي من شـقق العـمارة التي يسكنون فيها وباقي العمائر المجاورة.

■■■

عـاد مصطفى إليهما وهو يحمل أخبارًا حزينـة، كانت هناك مباراة في كرة القدم في مدينة بورسعيد بين فريقي الأهلي والمصري البورسعيدي، وقبل أن تنتهي المباراة نزلت الجماهير إلى أرض الملعب، ويبدو أن البعض كان قد بيَّت النيـة على ارتكاب مجزرة فدسَّ بعـض المجرمين بين الجمهـور، وعند نزول الجماهـير أرض الملعـب هجم هؤلاء الأوغـاد المجرمون على جمهـور النادي الأهـلي وأعملـوا فيهم القتل والذبح، هـذه مذبحة لم يحـدث مثلها في تاريخ مـصر، لم تنطلـق صرخات النـاس في بيوتهم من هول ما حـدث، ولكن لأن الذي حدث هو الهول ذاته، مصر لم تكن هكذا أبدًا، لم تكن فيها هذه الدموية المرعبـة، أفجأة تتحول تلك الطبيعة الوادعة المسـالمة إلى عدوانية شرسـة، ما الذي حدث للمصريين؟ كنا في أزمنة مضت وانقضت نفخر بأننا أهل المروءة والشـهامة حتـى أصبح تعبـير «الجدعنة» مـن ألصق التعبيرات بالشـخصية المصريـة، وقـد اسـتمد المصريون هـذه الكلمة مـن كلمة جـذع، والجذع هو الشاب القوي، كانت قوتنا في الخير فوجهها البعض إلى الشر.

كتبت كل الصحف عن هذه الجريمة التي هي من جرائم «الإبادة» وتحدث المحللون في القنوات الفضائية كل يشرح ويحلل ويُنَظِّر، قال البعض: إن هذا الإجرام لم يخرج إلا من بعض فلول النظام السابق انتقامًا من الثورة، ورد البعض عليهم: ولماذا يقوم فلول النظام السابق بهذا الفعل؟! هذا تصرف من يريد إبعاد النظر عن أمر ما، كهذا الموظف الذي يسرق مخزنًا خلسة فيحرقه ليخفي جريمته، هناك جريمة سطو تتم على البلد، ولكي تتم بسهولة ودون أن يلتفت إليها أحد فليكن هناك حدث ضخم يشغل الأذهان ويؤرق الضمائر ويزيد كراهية الشعب للنظام السابق الذي أحاط به الفساد والطغيان، الأمر إذن يتلخص في مجرم مفسد تخلصنا منه، فإذن الذي يريد أن يسرق البلد من الثوار ليس مفسدًا مجرمًا فحسب، فالإجرام يتقاصر عن تصرفاته وسلوكه، ولكنه مفسد سفاح.

ظل ابن حنبل عدة أيام لا يستطيع النوم ألمًا مما سمع به ورآه في التلفزيون، كان من عادته أن يستيقظ في الثلث الأخير من الليل ويظل مصليًا إلى أن يؤذن للصبح، وبعد حادث بورسعيد انحسر النوم عنه فصار لا ينام إلا ساعة ثم يستيقظ ليقوم الليل كله، ولم يكن هذا الأرق بعيدًا عن غريب، بل صاحبه هو الآخر،كان قيام ليله مختلفًا عن قيام ابن حنبل، فقد كان الإمام لا ينفك عن الصلاة، أما غريب فيصلي أربع ركعات متفرقات ثم يقضي الليل في الذكر والتسبيح وتلاوة الأوراد، وزاد على غريب أن رقة شعوره أسالت الدموع من عينيه مدرارًا، وعلى حين غفلة وجد أن رعشاته وارتجافاته تزداد يومًا بعد يوم، وعندما وجد أن حركة اهتزازية لا إرادية أصابت يده عرف أنه

أصيب بمرض الشلل الرعاش، فقد خبر هذا المرض وعرف آثاره وأعراضه عندما أصيب به والده.

حـال مصطفـى لم يختلف عنهـما، فكل حادثـة من حوادث المـوت كانت تُقَلِّـب عليـه الأوجاع وتعيد لـه ذكرى موت ابنـه نور، ومـا أدراك مَن نور، وإذا كانت فجيعته ذات يوم في ابن واحد ففجيعته اليوم في أموات وأموات، لذلك لم يكن يقيم الليل إلا بقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

كادت الأمـوال التـي مـع مصطفى تنفـد، ورغـم أن الشـيخين لا يكادان يـأكلان فإن توالي الأيام بـدد معظم ما كان معه من مال، الآن تذكر مصطفى أسرته التي تركها، لم يسـتطع أبدًا أن يضعها في غياهب النسـيان، وأنى له أن ينسـاهم وهم دمه ونبضه، ولكنه حاول أن يبعد ذاكرته عنهم حتى لا يتذكر ذلـك الوجـع القاتـل الذي أصابـه بموت نـور، وجع ما بعـده وجع، كأنهم أحضروا نصلًا حادًّا ومزقوا به نياط قلبه تمزيقًا «يا ويح وجعي وألمي وشوقي لـك يانـور، في لحظـات ضعفي أسـتدعيك دائمًا أشـد بـك أزري وأحاورك وأتفاهـم معـك وأوصيـك أن ترعـى نفسـك، وفي لحظـات ضعفـي هذه لم أسـتدعك وحـدك، ولكنني اسـتدعيت أمـك وإخوتك، فحـين الضعف لا نتذكـر إلا من نحبهم، وأنا تواطأ عليَّ الضعف من كل ناحية، كيف تتحملين غيـابي يا ثريا، هـل تبحثون عنـي أم فقدتم الأمل في عـودتي؟ أعرف أن هذا المكان الـذي أوينا إليه لن يرد على خاطركم أبـدًا، وإن ورد فأنتم لا تعرفون السبيل إليه، انتظروني يا ثريا فموعدي معكم قريب».

حين نفد المال من جيب مصطفى اصطحب صاحبيه وذهب بهما إلى البنك الأهلي وسحب مبلغًا من رصيده كان قد ادخره لوقت الحاجة، أهناك حاجة أهم من هذه الحاجة؟! أخذ الإمام أحمد يسأل مصطفى عن البنوك وطبيعتها، فشرح له مصطفى بخبرته كمحاسب أعمال البنوك سواء كانت ودائع أو قروضًا، وطبيعة النقود، وأفاض معه وهو يتحدث عن الفائدة البنكية، سواء في الإقراض، أو في الوديعة، وحين عادوا إلى البيت استكمل مصطفى شرحه، كان يريد من خلال هذا الشرح أن يضع الإمام أمام واقع الأمة فيما يتعلق بالبنوك، والإمام كان يستمع باهتمام وتركيز شديدين، وبعد أن خُيل لمصطفى أنه وضع كل شيء أمام الإمام قال له: انظر يا إمام الأمة، سأسألك عن شيء مهم ولا تقل لي كعادتك: لا أدري، هل فائدة البنوك حرام؟ أنا شخصيًا أخاف منها، ولذلك أضع مالي فيما يسمى بالحساب الجاري وهو لا يرتب فائدة، وما فعلت ذلك إلا اتقاءً للحرام مخافة أن أقع فيه.

- وماذا قال علماء عصركم عن تلك الفوائد؟

- معظمهم قال إنها هي الربا المحرم.

- قياسًا على أي شيء، هل المال هو المال، أم تغيرت طبيعته؟

- الله أعلم فأنا لا أعرف شيئًا في دروب الفقه، ولكن مع ذلك هناك قلة قليلة أجازت هذه الفوائد في حالة واحدة فقط هي: إذا كان الشخص هو المُودع وكان البنك هو الذي سيدفع الزيادة.

- لكي يجتهد علماء عصركم في هذا الشأن يا مصطفى يجب أن يبحثوا

عـن طبيعة النقود ونوعيتهـا، فمالكم الذي رأيته يختلف عن مالنا، وقد رأيت عندكم ما تسـمونه الأوراق النقدية الورقية، فهل قيمة هذه الأوراق ثابتة أم متغيرة؟وقد عرفت منك أن هذه الأوراق كانت في بدايتها عبارة عن سندات تعطـي الحـق لصاحبها في أن يأخـذ قيمتها من بيت المال ذهبًـا، فهل الأمر ما زال يسـير على نفس المنوال أم اختلف؟ وهل أوراقكم النقدية هذه سـلعة أم أداة للوفاء؟

- سـلعة! لم يرد هذا الخاطر على بالي من هذه الناحية يا إمام، ولكن النقد ليس سلعة، هو فقط أداة تمكنك من اقتناء السلعة.

- وهل تظل قيمتها ثابتة أمام السلعة أم أنها تختلف من حين إلى حين؟

- تختلف طبعًا، فما أستطيع اقتناءه اليوم بقيمة نقدية معينة قد لا أستطيع اقتناءه غدًا بنفس القيمة.

- إذن مـا هـو الحال بالنسـبة للقـروض طويلـة الأجل عندمـا تقل قيمة النقـد الورقي بشـكل كبير فلا يسـتطيع أحدكم بالمال الـذي أودعه في البنك منذ سـنوات أن يشـتري به نفس السلعة الآن بسـبب انخفاض قيمة النقد؟! ألا يشـكل هذا ظلمًا للمودع من ناحية أو للمقرض من ناحية أخرى؟! والله سـبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فهل رأس المال الذي يتم إيداعه اليوم بقدره وعدده وقدرته على الشراء يكون هو هو بعد سنوات عند الاسترداد؟ كل هذه أشياء يجب أن يدرسـها العلماء عندكم يا مصطفى قبل أن يفتي أحدهم في شيء مما سـألتني

فيه وإلا يكن قد أفتى بغير أن يعلم شيئًا عن الواقع، فالفتوى تدور بين النص والواقع، فإن وقع أحدهما من المفتي سقطت الفتوى.

- وهل كان في زمنكم يا إمام من يفتي بغير علم؟

ضحك ابن حنبل لأول مرة منذ أن جاء إلى هذا الزمن ثم قال: العلم والجهل يلتقيان في كل زمن يا مصطفى، سأروي لك حكاية حدثت لي، فذات يوم أخبرني أحدهم أن هناك رجلًا يعطي دروسًا في مسجد الرصافة ويذكر أحاديث غريبة وينسبها لي، فأخذت يحيى بن معين وذهبنا نستمع للرجل، فقال: حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيرًا، منقاره من ذهب وريشه من مرجان! فجعلتُ أنظر إلى يحيى، ويحيى ينظر إليَّ فقلت ليحيى: أنت حدثته بهذا؟ فقال لي: والله ما سمعت به إلا الساعة!! فسكتنا حتى فرغ، وإذ قمنا له أشار له يحيي بيده أن تعال.. فجاء متوهمًا أنه سينال منا مالًا، فقال يحيى: مَن حدثك بهذا؟ فقال: أحمد وابن معين. فقال يحيى وهو يكتم ضحكة كادت أن تخرج منه: أنا يحيي وهذا أحمد وما سمعنا بهذا قط، فإن كان ولا بد الكذب فعلى غيرنا يا رجل!! فقال الرجل: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم. قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق وما تأكدت إلا الساعة!! كأن ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما.

تضاحك الشيوخ وتفاكهوا، وكانت هذه أول مرة تظهر نواجذ ابن حنبل

مـن الضحـك، أما مصطفى فقد اسـتلقى عـلى قفاه من كثـرة الضحك وهو يقول وسط ضحكاته: ده راجل حزين[1] يا إمام.

كانـت هـذه هي ضحكـة العمـر، وضحكة العمـر لا تـأتي إلا بعد حزن العمـر، ومـا كان ضحـك مصطفى إلا لأنـه تيقن أن ابنه نـور يجلس الآن في هناءة في مكان ما من ملكوت الله يتبادل معهم الضحك.

مـرت عدة أسـابيع والحـال هو الحـال، مشـايخنا يتجولون في المسـاجد، ويحـضرون الـدروس الدينية، ويجلسـون عـلى المقاهي ويأكلـون في المطاعم ويسـتمعون للنـاس، عرف الإمام ابن حنبل كل المسـتجدات، وخبر أخلاق النـاس وطباعهـم وقدر العلم الـذي عند علماء الأمة، وتوجهات الشـعوب السياسـية، ومعاني الليبرالية والعلمانية واليسارية، ثم تطرق إلى نظام المحاكم ودخـل إليهـا وشـاهد القضـاة والمحامـين واسـتمع لمرافعاتهم وقـرأ بعض الأحـكام القضائيـة، نسـتطيع القول: إن ابـن حنبل عاش دنيانـا كأنها دنياه، وعـلى الناحيـة الأخرى أخذ العمـدة غريب ينكمش على ذاتـه فزعًا من هذا الزمـن الذي لم يـرق لقلبه، وتاقت نفسـه لزمنـه وزوجته سـيادة التي تركها وحدها في خيمتها، أيعود إليها ذات يوم أم أن الله كتب عليه أن يُحبس في هذا الزمن فيصير حبيس الزمن؟! ما الذي أجرمته يا رب حتى آتي إلى هذا الزمن قسرًا رغمًا عن إرادتي؟!

---

(1) كلـمات حزين وحزانـى ويحزنك هي من لهجة أهل الشرقية ويـستخدمونها في معـانٍ متعددة معظمها يصـب في معنـى الخيبـة، فيقال: «ولـد حزين»: أي ولـد خائب، وكلمـة «يحزنك» هي دعـاء بالخيبة، وهكذا.

وضع ابن حنبل تصورًا للنكبات التي حلت على رأس هذه الأمة والفتن التي أصابتها، الفتنة الكبرى هي التكفير، والفتن المتفرعة عنها كثيرة وشائكة، والفتنة الكبرى الثانية هي تقديس العلماء ورفعهم إلى مصاف الأنبياء، والفتن المتفرعة عنها كثيرة ومقلقة، والفتنة الثالثة هي انحصار اهتمام العلماء بالأمور الشكلية والفرعيات والسفاسف وتركهم الأصول التي لا تقوم أمة إلا بها.

وبعد أن تحدث ابن حنبل مع صاحبيه عن هذه الفتن وغيرها رأى أن يواجه علماء هذا الزمن ويصوب لهم ما وقعوا فيه.

- ولكن كيف ستواجههم يا إمام؟ قالها غريب وهو يحدودب بقلبه على إمامه.

- سأواجههم بما وهبني الله من علم.

- أخشى عليك من قسوتهم.

- وماذا سيفعلون بي؟ هل سيفعلون أكثر مما فعل المعتصم؟! ملة الظلم واحدة يا غريب.

قال مصطفى: يا إمام هناك فرقة من فرقهم تسمى الجهادية السلفية، وهؤلاء إذا عارضتهم فسيستحلون دمك.

رد ابن حنبل: ما أتيت إلى هذا الزمن إلا لأواجه فتنتهم كما واجهت فتنة خلق القرآن، وقد يكون موتي هنا ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وأنا يا أحباب سأستقبل الموت هنا أو في زمني فكلها أزمان الله.

قال غريب: نحن معك ولن نتركك، ولكن، كيف سنبدأ المواجهة؟

- سنذهب لهم في عقر دارهم.

■■■

بارك الله في بعض علماء الأمة، يتبعون السنة، ويرفضون البدعة! ولأنهم يسيرون في فهمهم للدين على حرف؛ فإنهم يفهمون حديث «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» فهمًا ظاهريًّا! لذلك فإنهم رفضوا الاحتفال بالمولد النبوي الذي جاء في الرابع من فبراير، ولكن عندما جاء شهر مارس نشرت الصحف أن عددًا من العلماء سيذهب إلى المملكة المغربية للاحتفال بالذكرى الثالثة عشرة لوفاة الملك الحسن، وكان هؤلاء العلماء - ومعهم بعض علماء الإخوان - قد ذهبوا إلى ليبيا منذ سنوات لإحياء ذكرى ثورة الفاتح من سبتمبر حيث تقابلوا مع معمر القذافي.

ليس هناك من يخاف الله مثل هؤلاء العلماء، وهم من فرط خشوعهم وتقواهم يخافون اتباع سنن الغرب والسير خلفها شبرًا بشبر، أهل الغرب يحتفلون بمولد المسيح، فهل نُجن نحن ونحتفل بمولد النبي! ولكن لا مانع من الاحتفال بإحياء السنة النبوية، لذلك فإنهم بعد موعد المولد النبوي بشهر ونصف قرروا عقد مؤتمر إسلامي كبير احتفالًا بإحياء السُنَّة في مدينة كفر الشيخ بمسجد «السُنَّة النبوية» الذي أقامه الشيخ أبو إسماعيل الرويني وجعله مقرًّا رئيسيًّا له ولدروسه وخطبه.

أقيمت الزينات وعُلقت التعاليق والمصابيح، وغسلت الأمطار يومها

مدينة كفر الشيخ فاستبشر أهل المدينة، اليوم تحل البركة، فكل شيوخ وعلماء الدعوة السلفية سيفدون إلى المدينة احتفالًا بهذا الحدث الديني الضخم الذي لم يحدث بالمدينة منذ عقود طويلة.

جلس الشيخ أبو إسماعيل يرتب اليوم مع تابعه ومدير أعماله الشيخ «إبراهيم حجازي» قال له حجازي: أريد رأيك يا مولانا.

- خير يا برهومة.

- عرفت أول أمس أن أحد علماء السُّنة الكبار بالعراق جاء إلى مصر للاحتفال معنا بالسُّنة النبوية، ويقولون إنه من علماء الحديث الكبار في بغداد، ولي رأي أن نستضيف هذا العالم في أمسيتنا.

- وما الفائدة من استضافته يا برهومة، هي «المشرحة ينقصها قتلى»؟

- عندي سبب لاستضافته وإعطاء كلمة له يا مولانا؛ إذ بذلك سنفتح معه صلة، وسيكون طريقًا لنا للذهاب إلى بغداد وفتح أسواق لتجارتنا هناك.

- تقصد تجارة الأسمنت؟

- نعم يا مولانا، وهل لنا تجارة غيرها؟ والعراق في هذه الأيام تفتح بطنها لاستيراد الأسمنت وليس أحسن من الأسمنت الذي تستخرجه محاجرنا وتنتجه مصانعنا، وهذا الشيخ يقولون عنه إن له سطوة كبيرة بين أهل بغداد.

- وما اسمه؟

- اسمه الشيخ أحمد أبو عبد الله.

- ومن قال لك عنه؟

- منذ يومين كان هنا، أحد أتباعه قابلني وأخذ يحدثني عنه وعن تأثيره في أهل بغداد وتخصصه في الحديث الشريف.

- خلاص لا مانع، سأخبر باقي العلماء باستضافتنا هذا الشيخ، والله أنا خائف يا برهومة تكون عملتها وأخذت من تابعه هذا عمولة، هذه هي عادتك.

لم يكن برهومة وحده هو الذي تعود على مد يده، فيد الشيخ أبي إسماعيل عرفت طريق المد منذ سنوات بعيدة، فقبل مظاهرات الثورة خطب في أحد المحافل قائلًا: والله الذي لا إله إلا هو إن الكلمات التي قالها الرئيس مبارك عن أننا لن نقف مكتوفي الأيدي أمام حصار الشعب الفلسطيني هي كلمات رائعة يجب أن تثمنها الأمة وتقدر صاحبها، ولذلك فإنني أقول للرئيس أحسنت قيادة مصر يا سيادة الرئيس، وأحسنت تمثيلها وأنا أحييك على ما قلت وما فعلت، وأقسم بالله الذي لا إله إلا هو إنني قلت: لو أن الرئيس رفع هاتفه وتحدث، فسيتغير الموقف، وجاء الصباح لنجد أن الموقف قد تغير، وما تغير إلا بفضل هاتف الرئيس.

وعندما بدأت مظاهرات الخامس والعشرين من يناير ـ قبل أن تتحول إلى ثورة ـ ظهر الشيخ أبو إسماعيل بناء على اتفاق مع أمن الدولة كي يُجرم هذه

المظاهرات ويقول إنها بدعة وضلالة وإنه لا يجوز الخروج على الحاكم، وبعد أن ظهرت بشائر الثورة بقوة، وأخذت تباشيرها تغمر الآفاق، خرج الشيخ على التلفزيون المصري وقنواته الفضائية وهو يبكي خوفًا على المصريين ويطالب الشباب بالعودة إلى بيوتهم مخافة أن تراق دماؤهم.

وبعد أن نجحت الثورة بفترة وأخذ المجلس العسكري زمام الأمور بالاتفاق مع الإخوان، خطب الشيخ من مسجده قائلاً: والله الذي نفسي بيده، لقد رأيت قبل الثورة أربعة من الرجال يحملون صورة كبيرة للرئيس المخلوع وينقلونها إلى مجلس الوزراء لتعلق هناك خلف رئيس الوزراء، فقلت أما آن لنا أن نترك تأليه البشر، هذا الرئيس الذي ظللنا ثلاثين عامًا تحت طغيانه واستبداده تحول إلى إله فرعوني مستبد، وقتها دعوت الله أن يخلعه كما خلع فرعون،وأقولها لأي حاكم سيأتي من بعده: هي صورة واحدة التي ينبغي أن نعلقها في كل مكان، لا يكون فيها إلا لفظ الجلالة الله.. الله... الله.

- ذهبت الذكريات وتوارت، وكما قال الحكيم المصري الأصيل: آفة حارتنا النسيان، نسي الناس ما قاله الشيخ قبل وأثناء وبعد، والناس تنسى لمن تحب ما تكره، وأقبلت ساعة الاحتفال، وكما قال الشاعر: يا بلادي كل شيء فيكِ ينسى بعد حين.. إلا حين الاحتفال.

■■■

بدأت الأمسية بعد صلاة المغرب حيث أمَّ الصلاة الشيخ «أبو الرجال» أحد المتخصصين في علوم القراءات، ثم بعد أن انتهى من الصلاة أخبر المصلين أنهم سيؤخرون العشاء إلى بعد انتهاء الأمسية.

جلس كل الشيوخ على منصة أعدت لهذا الغرض، لا يوجد واحد من كبار الدعاة إلا وله مكان، فاليوم يستمع المسلمون لحديث العلم والعلماء، وقبل أن يبدأ الحفل سمعوا صخبًا وضجيجًا يأتي من خارج المسجد فأسرع برهومة يستطلع الأمر ثم سرعان ما عاد ليهمس في أذن الشيخ أبي إسماعيل بكلمات، ومن بعدها ظهر رجل غريب القسمات أسمر الوجه له لحية عظيمة ويرتدي جلبابًا أبيض وعمامة أشبه ما تكون بالقلنسوة، ويحيط به رجلان أبيضان كالبدر ليلة تمامه لهما مهابة ووقار، تقدم الرجل الأسمر إلى المنصة وصافح شيوخها فأجلسوه في أحد أماكن الصدارة، وجلس تابعاه في الصف الأول بعد أن أفسح لهما الجالسون مكانًا.

رحب الشيخ أبو إسماعيل الرويني بالضيف البغدادي وقال عنه إنه «الصديق العزيز» وإنه أحد أكبر علماء الحديث في العراق، وبدأ الشيخ إبراهيم حجازي يقدم وقائع الاحتفال وكلمات الخطباء التي بدأها الشيخ أبو إسماعيل، فأخذ يتحدث عن السنة النبوية وفضلها وفضل علم الحديث، وتمادى في مدح الإمام أحمد بن حنبل، ثم عرج على الذين لا يتبعون السنة، والذين يبدلون الدين، والذين ينتهجون مناهج أرضية مثل الاشتراكية والليبرالية والعلمانية، ووصمهم بالكفر مستدلًا بقوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ثم تحدث من بعده الشيخ محمد حسانين فأسهب في وصف القبر وأحوال

الميت فأبكى الحاضرين، وتوالى الخطباء هذا يتحدث عن ملة الإسـلام وملة الكفـر، وذاك يقول إن من لم يحكم بـما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، وآخر يهاجم المسيحيين هجومًا ضاريًا، وهكذا إلى أن قدَّم الشيخ إبراهيم حجازي الشـيخ العراقـي أحمد أبو عبـد الله، وكان التعب قد أصـاب الحاضرين وكاد بعضهم أن ينصرف.

اقـترب فـم الإمام أحمـد من الميكروفـون إلا أنه لم يرفع صوتـه بل قال بما يشبه الهمس بعد الاستعاذة والحمد والصلاة على النبي: أنا من بغداد، أعرف حديث رسـول الله ﷺ كما أعرف نفسي، وأعرف سـنة النبي كما أعرف ابني، وقـد أتيـت إليكم بعـد أن عرفت أن أمتكـم تتعرض لمحنة، وقـد ظهرت لي المحنة في أقوال من خطبوا قبلي، إن جلوس هؤلاء للخطابة فيكم والتدريس لكـم هـو أكبر محنة مرت عـلى الأمة... ثم نظـر الإمام لمن يجلسـون معه على المنصة وقال لهم: أفٍّ لكم ولما تقولون.

سـاد السـكون لحظة كأن الناس فقدوا القدرة على النطق أو كأنهم تحولوا إلى تماثيـل مـن نحاس:أفٍّ لكـم ولما تقولـون. قالها مرة أخرى فلـم يتلق رد فعل، بل ظل الناس على ارتباكهم وحيرتهم، كانت مفاجأة مسـكتة، فمن ذا الذي يتصور أنهم يستضيفون عالمًا يبدأ كلامه بصبٍّ جام غضبه عليهم، هل هذه طريقة جديدة في الخطابة للفت الأنظار، انتظر الجالسـون على المنصة أن يسترسل الرجل ليوضح مقصده، ولكنه استمر قائلًا: كنت أنتظر أن أجلس مـع أهـل العلم فإذا العلم لا أهل له، كنت أنتظـر أن أناظر من لديه علم فإذا الجالسـون معي هم خصوم العلم وكنـ... وقبل أن يسـتكمل الكلمة قاطعه

أبو إسماعيل: ماذا تريد أن تقول أيها الغريب، استضفناك في بلادنا لتشتمنا، والله يا أهل العراق إنكم أهل نفاق، تدَّعُون العلم وتنشرون الهم والغم، إذا كانت لديك حاجة إلى مقارعة العلماء فنحن لها، تكلم معنا لتأخذ نصيبك وتنصرف إلى بلادك والقلب داعيلك غير مأسوف عليك، قل ما عندك يا حلو.

رد ابن حنبل: لست أعرفكم من أهل العلم فأكلمكم، ولكن أكلمكم لأكشف خبيئتكم، وما أنتم إلا كالخوارج، تقولون بالتكفير ولا تعرفون كنهه، تدَّعُون الإسلام ولا تدركون سلامه وتسليمه، وتنشدون الجَنة بجِنتكم، وتتقون النار بالشَّحناء... تقسمون ملكوت الله وتتألهون عليه، فتقولون لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتنا، والنار لملة الآخرين، والله حذركم ونهاكم فقال لكم عن الأمم السابقة: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

قاطعه الشيخ أبو إسماعيل: امسك... عرفت الآن حقيقتك، أنت مرجع من مراجع شيعة العراق، أيها المسلموووون يجلس الآن بيننا رجل خدعنا وادعى أنه من أهل السنة وهو من مراجع الشيعة، خيبكم الله يا شيعة، يا أصحاب العبادة الشنيعة، اخسئوا نحن أنصار الشريعة.

زاط جهور المسجد وصخب وأخذ يصيح: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الخميني عدو الله... واختلطت الأصوات وهم بعضهم بالقيام للإمساك في

خناق هذا الشيخ الذي تهجم على سادتهم العلماء، ولكن الشيخ أبا إسماعيل قال للجمهور: من يحب الله ورسوله فليجلس في مكانه، نحن سنتكفل به، اجلسوا اجلسوا.... تدخل الشيخ محمد حسانين: أستحلفكم بالله يا إخوة أن تجلسوا في أماكنكم، من كان في قلبه مثقال ذرة من خير، فليجلس في مكانه وأنا الكفيل بالرد على هذا الرجل، ألا تحبون أن تسمعوني وأنا أناظره؟ والله الذي لا إله إلا هو، لو كان في قلب هذا الرجل مقدار خردلة من إيمان لترك المسجد الآن حتى لا يثير فتنة بين المسلمين، ولكنني سأستبقيه حتى ولو أراد الخروج كي أرد عليه.

ورويدًا رويدًا بدأ المسجد يعود إلى هدوئه، وحين التزم الجميع بالصمت قال الشيخ حسانين: قولوا معي: لا إله إلا الله.

ردد الجمهور خلفه: لا إله إلا الله.

واستمر الشيخ: محمد رسول الله.

الجمهور: محمد رسول الله.

الشيخ: رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

ارتج المسجد بصوت الجمهور وهو يردد كلمات الشيخ.

قال الشيخ حسانين موجهًا حديثه للإمام أحمد: من أنت أيها الرجل؟ وماذا تريد؟ ولماذا تنقم على علماء الأمة؟ قل ما عندك وسنستمع إليك، ونرد عليك بكلام الله ثم سنبلغك مأمنك.

قال ابن حنبل: لقد عشت فترة في بلادكم، وتعرفت أحوالكم وأفكاركم، ورأيت أنكم تلقون بالتكفير في وجوه عباد الله غير آبهين بمعنى الكفر، وتهدرون أصول الإسلام من أجل إقامة الفرعيات، ولا تعرفون معنى الإسلام، ولا معنى الأديان، وأقول للجمهور الحاضر إنني سأواجه من تعتبرونهم علماء، فإذا كنتم تثقون بعلمائكم فدعوا الأمر لهم، وإن لم تكن لكم ثقة بهم فشوشروا عليَّ أثناء المناظرة أو قوموا الآن وأخرجوني من مسجدكم مخافة أن أهزم من تولونهم الثقة، وحين أرد عليهم فلا تقاطعوني، فإن فعلتم فأنتم تخافون أن يفشل من سيتولى الرد عليَّ.

وأثناء كلام الإمام أحمد كتب الشيخ محمد حسانين ورقة مررها على علماء المنصة، وما إن فرغ الإمام من كلمته الأولى حتى قال الشيخ حسانين: وافقني العلماء على أن أتولى الرد على هذا الشيخ الدعي، وسأبدأ بسؤاله: من تمثل أيها الشيخ؟

قال الإمام: أمثل نفسي، كل إنسان في الدنيا يمثل نفسه، وكل إنسان عن قوله مسئول وفقًا لقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ وكل واحد منا سيحاسب وحده، كل واحد من جماعتكم سيذهب إلى الله وحده ليحاسبه ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾.

الشيخ حسانين: أما نحن فنمثل الإسلام، والإسلام دين الخالق الذي أراده لنا.

الإمام: أنتم لا تمثلون الإسلام، ولا يوجد في العالم من يُمثل الإسلام؛

لأن الذي كان يمثله هو الرسول ﷺ، وليس من يمثل الإسلام غيره، أما أنتم فكل قول لكم منسوب إليكم ومحسوب عليكم ومردود إليكم.

الشيخ حسانين: يا جاااااهل، أظهرت جهلك بين الناس، وفضحت خَواءك، ألا تعرف أن كل واحد منا يقف على ثغرة من ثغور الإسلام؟ ألا تعرف أننا فقهاء الإسلام، ومَن نقيم فريضته ونقف عليها ونعلمها الناس، وأننا أيها الجاهل ورثة الأنبياء؟ أفلا تريد من ورثة الحبيب ﷺ ألا يمثلوا الإسلام.... فلتعلم أيها الجاهل أن ابن قيم الجوزية أحد علماء مذهب إمام الأمة أحمد بن حنبل قال في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين»: (إن فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خُصُّوا باستنباط الأحكام، وعُنُوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء....) أيها الناااااس، أيها المسلموووون، يا أحباب رسول الله ﷺ بمن يهتدي الناس بعد الرسل والأنبياء؟

صاح جمهور المسجد: بالعلماء.

الشيخ حسانين مستكملاً: اعلم أيها الجاهل أن ابن القيم قال عنا: حاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفْرَضُ عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب، قال الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ من هم أولو الأمر؟ قال عبد الله بن عباس في إحدى الروايتين عنه، وجابر بن عبد الله، والحسن

البـصري، وأبـو العاليـة، وعطاء بن أبي ربـاح، والضحاك ومجاهـد بن جبر في إحدى الروايتين عنه: أولو الأمر هم العلماء، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد. وقال أبو هريرة وابن عباس في الرواية الأخرى وزيد بن أسلم والسدي ومُقاتل: هم الأمراء. وهذه هي الرواية الثانية عن أحمد بن حنبل.

تعالـت آهات الجمهـور إعجابًا بالذي قاله الشيـخ حسـانين وسلاسـته وانطلاقه في الكلام وسرعة بديهته.

الإمـام أحمد: والله لو أعلم أنكم سـتفهمونها هكذا ما رويت هذه الرواية ولاكتفيـت بالثانية، ولكنني نقلت هذا ليس فقهًا ولكن حديثًا، وللفقهاء أن يستنبطوا الصائب والأصوب.

الشـيخ حسـانين: تقول رويت، مـن أنت أيها الجااااهـل، وهل لك دراية أو روايـة، هل تظن نفسـك عارفًا بالحديث، أو في مرتبـة الإمام ناصر الدين الألباني عليه رحمة الله؟! نحن العلمااااء يااااارجل نقف على رأس هذه الأمة، نحن الإسلاميون حقًّا، رد على بياني هذا وإلا فانصرف.

الإمام: لايوجـد في ديننا ما يُسـمى الإسـلامي، ولكن يوجد المسـلم، الله قـال لنـا ذلك، قـال في كتابـه الكريـم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل هو سـمّاكم الإسـلاميين، وقال ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ولم يقل واشـهد بأنا إسـلاميون؛ لذلك فإننـي لا أعرف هذه الكلمـة ولم تصادفني في حياتي، هذه كلمة تطلقونها من أجل المخاتلة، كلمة الإسـلاميين هذه يا رجل لم تكن معروفـة في عهد الرسـول ﷺ ولا في عهـود الصحابـة ولا التابعين، بل كان

كل مـن يجتهد فإنما كان ينسـب الاجتهاد لنفسـه، لا للإسـلام، فهذا حنفي، وذاك مالكي، وذلك شـافعي، لم يجرؤ أحدهم على أن ينسـب الإسلام لنفسه أو يقول أنا صاحب المذهب الإسـلامي. ومن الأعاجيب التي رأيتها عندكم في عصركـم أنكم تقولون: «المذاهب الإسـلامية» وهذه كلمة لا أصل لها، لم يقـل بها أصحابها، ثـم رأيتكم أيها الرجل تقولون: «الفقه الإسـلامي» وهذا مـن خطل الرأي وزلل الكلام، فالصحيح أنه « فقه المسـلمين»، وسـمعتكم تقولـون كلمة شـيطانية هي «الحضارة الإسـلامية»، والله مـا كانت حضارة الإسـلام أبـدًا، ولا تنسـب إلى الإسـلام البتـة، هـي فقط حضارة المسـلمين لا الإسـلام، فلماذا تنسبون ما هو لكم للإسـلام؟! وسمعتكم يا من تدَّعُون العلم وأنتم تقولون: «التاريخ الإسـلامي» وما هو بتاريخ الإسلام، هو فقط تاريخ المسلمين، تاريخ الإسلام لم يكن إلا في عهد الرسالة فحسب، وما بعد ذلك كان تاريخ أجيال من المسلمين، أصابوا وأخطئوا.

ثم اسـتطرد: لا ينبغي أن يختلط «الإسـلام» في الأذهان بـ«المسـلم» فثمة مسـافة بينهما، ولذلك لا يوجد من يمثل الإسـلام إلا نبي الإسلام المعصوم وحده، أما كلام ابن القيم هذا الذي لا أعرفه ولم أسمع عنه فهو يحسب عليه لا على الإسلام لذلك فإن استدلالك به باطل.

ومـا إن نطـق الإمـام أحمـد بكلمته الأخـيرة حتـى اندفع إليـه واحد من الجمهـور من الصفـوف الخلفية وهو يحمل عـكازًا يتوعده بـه صائحًا: والله لأقتلنك أيها الشيعي المجرم.

■■■

اختلـط الحابـل بالنابـل وارتفعت الأصـوات وزاد الهرج والمـرج، وكاد العكاز أن يقع على رأس الإمام أحمد لولا أن مصطفى الشرقاوي أمسـك يد الرجـل المعتدي قبل أن تهوي بالعكاز على مبتغاها، وفي الوقت ذاته ارتفعت أصـوات العلـماء تحض الجمهـور على الهـدوء وضبط النفس حتى لا يفسـد المؤتمر الإسلامي الكبير، وكانت لرجوات الشيخ محمد حسانين الأثر الأكبر في عودة الهدوء بعد أن قال: أرجوكم، أرجوكم، أرجوكم، إذا كان بينكم من يكره الرسول ﷺ وآل بيته فليصخب وليتكلم وليحدث ما يشاء من الجلبة.

وبعـد أن هـدأ الناس، عاد الشـيخ حسـانين للحديـث قائـلاً: إن الحمد لله، نحمده ونسـتعينه ونسـتغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسـنا ومن سيئات أعمالنـا، إنـه من يهده الله فلا مضل لـه، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشـدًا، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أيها الشيخ الذي جاء لنا من العراق، أرأيت ماذا فعلت؟ لقد أثرت فتنة بين المسلمين، نسأل الله أن يهديـك ويكف شرك عنـا، وأنا أقول لك أمام هذا الجمـع الطيب: ماذا تريد يا شيخ، إلى الآن لم نعرف ما الذي أغضبك على أهل السنة والجماعة.

الإمـام أحمد: أنا لم أغضب على أهل السـنة يا رجـل، ولكنكم أنتم الذين أغضبتم السـنة، فـما هي هكذا، وما هكـذا كانت، ما هكذا سـتكون، ولكي ندلـف إلى أصـل الموضوع قبل أن يعود أتباعكم إلى إثارة اللغط، قل لي يا من تدعي أنك تمثل الإسلام: من هو الكافر، وما هو الكفر؟

الشـيخ حسـانين: هـذا سـؤال يجيـب عنـه المبتدئـون، ومع ذلك اسـمع

فسأعلمك، والله يهدينا وإياك، الكفر في اللغة: ستر الشيء وتغطيته،وأما في الاصطلاح الشرعي فهو «عدم الإيمان بالله ورسله، سواء، كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب، أو إعراض عن الإيمان حسدًا أو كبرًا أو اتباعًا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، فالكفر صفةٌ لكل من جحد شيئًا مما افترض الله تعالى الإيمان به، بعد أن بلغه ذلك سواء جحد بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معًا، أو عمل عملًا جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان؛ ولذلك فإن الكافر هو من مات على غير ملة الإسلام، ومن سمع عن الإسلام ولم يتبعه فهو كافر، وكل من سمع عن الإسلام يجب أن يبحث وينظر، فإن لم يفعل وكان قادرًا على البحث والنظر فهو كافر مخلد في النار، فكل من كان في أقاصي الجنوب والشمال، والمشرق وجزائر البحور والمغرب، وأغفال الأرض من أهل الشرك فسمع بذكره ﷺ ففرض عليه البحث عن حاله وأعلامه والإيمان به، ومن ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة فهو كافر بإجماع الأمة.

الإمام أحمد: هذه خربطة وخبطة.. قل لي ما الذي يلزم غير المسلم بالبحث في الإسلام؟

الشيخ محمد حسانين: دين الحق يا رجل هو الذي يلزمهم بهذا، الإسلام يلزم الجميع.

الإمام أحمد: ولكنهم لا يؤمنون بالإسلام أصلًا، فكيف يلتزمون من خلال دين لا يؤمنون به، الإسلام يا شيخ حسانين لا يكلف إلا من اعتنقه،

اعلم يا شيخ أنت ومن معك أن الإسلام تكليف ودعوة، تكليف لمن اعتنقه، ودعوة لمن لم يعتنقه؛ لذلك فإن الداعية هو من يدعو غير المسلمين إلى دخول الإسلام.

الشيخ حسانين: ها أنت تضع تعريفات جديدة ما أنزل الله بها من سلطان، الداعية يا رجل هو كل من يدعو الناس جميعًا إلى سبيل الله، مسلمين أو غير مسلمين.

الإمام أحمد: الذي يخطب في المسلمين هو الواعظ، أنت واعظ يا شيخ مصداقًا لقوله تعالى في سورة البقرة في آية الطلاق: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ وما دمنا تحدثنا عن غير المسلمين فهل لك أن تقول لي: من هم أهل الكتاب وما مصيرهم عند الله؟

الشيخ محمد حسانين: كنت أظنك عالمًا فإذا بك تائه، ولكن اسمع وافهم.. إنه من كان يهوديًا أو نصرانيًا، ولم يدخل الإسلام ولم يؤمن بنبينا محمد ﷺ، ومات على يهوديته أو نصرانيته فإنه كافر قد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، لذلك فإن من دان بغير الإسلام فهو كافر، ودينه مردود عليه وهو في الآخرة من الخاسرين، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾.

الإمام أحمد: خربطة ولخبطة، قل لي: أين هو أبو الرسول ﷺ؟

الشـيخ حسـانين: هو في النار كما جاء في الحديث الـذي رواه الإمام أحمد «أن رجـلًا قـال: يا رسـول الله، أين أبي؟ قـال: في النار، قال: فلـما قَفَّا دعاه، فقال: إن أبي وأباك في النار».

الإمـام أحمـد: والله لقـد رويـت الحديـث وتركتـه للفقهـاء فهـذه هـي بضاعتهم.

الشـيخ حسـانين: والله يـا رجل يظهر لي مـن كلامك أن بـك جِنة، فكلما تحدثتُ عن الإمام أحمد أشرت إلى نفسك وكأنك تظن أنك هو.

الإمـام أحمد متجاهلًا تعقيبه: أيهـا الرجل، هل تريد أن أحدثك عن الحق الـذي تجهلونـه، أيها الناس هل تريدون أن أصحح مـا وقر في أفهامكم، إذن فاسـمعوا وعـوا، وإذا وعيتم فانتفعـوا، فإن قاطعني أحدكـم فقد حكم على علمائكم بالعجز عن الرد.

تميزت الوجـوه من الغيظ واشرأبت الأعنـاق وانتصبت الآذان، وبرقت العيـون وتعلقت بالشـيخ محمد حسـانين الذي قطـع الصمت قائـلًا: تكلم يا هذا ودعك من اللجلجة والشقشقة والنطاعة.

كانـت الكلمات قاسـية على فؤاد ابن حنبل، قسـوتها تفوق السـياط التي ألهبـت ظهره في زمن المعتصم، أما الآن فهو في زمن لا يعرفه فيه أحد، وحين يجهلـك الناس يمقتونك، فالناس أعداء مـا يجهلونه، والجاهل يُعذر بجهله، وإن كان البعـض قـال أن ليـس كل جاهـل يعـذر بجهلـه ! وهـذا من أشـد الأمور غرابة على النفس، إذ كيف يسـتوى الشـاهد والغائب، والشاهد يرى

ما لا يرى الغائب ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الذي يعلم هو الـذي تلزمـه الحجة، والذي لا يعلم لا إلزام عليه، هكذا قال الله في كل كتابه الكريـم، كلماته واضحة تعبر عن نفسـها، فكيف غفـل من فقهوهم عنها، ألم يقـل: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا هو ما يؤاخذ عليه الإنسـان، إذا جاءه العلم ثم أهدره واتبع الهوى فهو إذًا لمن الظالمين، أما من لم يأته العلم فاتبع الهوى، فهل يكون مـن الظالمين؟! اعذرهم يا إمام فهـم يجهلونك ويجهلون الحال الذي أتى بك إلى هـذا الزمـن، حـاضرك عندهم غيـب، وما هو غيـب إلا لأنـه غُيِّب عن عقولهم وأفئدتهم، فهل يحاسب المرء على ما غاب عنه!

تحدث الإمام أحمد بتؤدة: الحمد لله على ما علَّـمنا إياه، وعلى ما لم يعلمنا، أعطانا فشـكرناه، وحجب عنا فحمدنـاه، وكان في عطائه وحجبه هو المانح، فالعطـاء منـح، والحجب منح، وكلاهما بحكمته فتح، وصلى الله على سـيدنا محمـد الـذي علمنا حاله ودينه فاتبعنـاه، ولم يعلم غيرنا حالـه ونبوته فبحثوا عنك يا ألله بعقولهم التي خلقتها لهم عن غير طريقه، يا أيها الشيخ، ليس كل من لا يؤمن بالله كافرًا، وليس كل من لم يؤمن بالرسول ﷺ كافرًا، وليس كل يهـودي أو نصراني يعيش بينكم سـيكون مآله النـار، وليس كل من أنكر أمرًا اشـتهر في الدين وتطلقون عليه «معلوم مـن الدين بالضرورة» كافرًا، وليس لنا أن نحكم بكفر أحد أيًا كان.

الشـيخ حسـانين: ما أحسـبك إلا مبتدعًا أو فاسـقًا ماجنًا أراد أن يعبث بعقول المسلمين.

الإمـام أحمـد متجاهـلاً غلظتـه: العقـل منـاط التكليـف، ولا يكلف الله نفسًـا إلا ما آتاها في اسـتعدادها الأزلي، فهو خالقها وهو الذي يعلم بواطنها وخوافيها، فلا تكليف على من عجز عقله عن الوصول إليه.

الشيخ حسانين: هذا كلام الفلاسفة.

الإمـام أحمد: وما نقمت إلا على الفلاسـفة، ولكن هـذا هو كلام العقول الراشـدة، اعلمـوا أيهـا النـاس أن خَلْـق الله ثلاثة، هـم أهل الإيـمان، وأهل الجهـل، وأهـل الكفر، أما أهـل الإيمان فهم من عرفوا الحـق فاتبعوه، وأهل الجهـل هـم من لم يعرفوا الحق فلـم يتبعوه، وأهل الكفر هـم من عرفوا الحق فجحـدوه وأنكـروه، ألم تعـرف لنـا الكفر يا شـيخ حسـانين فقلت إنه سـتر وتغطية، صدقت في تعريفك، فالكافر حاجب وساتر للحق، أما الجاهل فهو مسـتور عنه ومحجوب عنه الحق، وهذا غير ذاك، لذلك يقول الحق سـبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ في هـذه الآية وفي غيرها يتحدث الله ليس عن أهل الكتاب جملة، وليس عن المشركين جملـة، ولكـن يحدثنا عن الذين كفـروا من أهل الكتـاب والمشركين، أي عن أولئك الذين عرفوا الحق، فكفروه أي حجبوه وسـتروه، أما غيرهم من أهل الكتـاب والمشركين ممـن لم يعرفوا الحق، ولم تهدهم عقولهـم إليه فهم مكفور عنهم وليسـوا كافرين، والكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة كلكم يصيبه، تعـرف أن حجة من يناظرك هي الأصح فتكفرها أي تحجبها عن الناس كبرًا أو بطـرًا أو غرورًا، فأنت بجحدك تكون قد دخلت إلى الكفر الأصغر، فكل مسلم عرف أمرًا من أمور الحق فحجبه بطرًا أو عنادًا فهو كافر أصغر، أما إذا حُجب عن عقله أمر من أمور الحق فهو مكفور عنه لا كافر أصغر.

ارتفعت همهمات الجمهور اعتراضًا على كلام الإمام أحمد، إذ لم تألف عقولهم هذا المنطق، ولكن الشيخ حسانين أسكتهم قائلًا: اسكتوا، أطلق الله ألسنتكم في الحق، فنحن نريد أن يستكمل كلامه حتى نقيم عليه الحجة، ثم استطرد: أكمل أيها الغريب.

كان قلب الشيخ برهومة حجازي قد امتلأ حقدًا وغلًّا وهو يرى الإمام أحمد يطلق حججه في وجوه العلماء ويتدفق بعلمه فأراد أن يفسد عليه، فتحرك من مكانه، وجاء من خلفه وأمسك ظهر المقعد الذي يجلس عليه ودفعه للخلف فوقع ابن حنبل وصوت وقعته يدوي في المكان.

■■■

عاد الهرج والمرج إذ جذب برهومة الإمام من ملابسه يريد طرده من المسجد، ومصطفى وغريب يحولان بين الإمام وزبانية العلماء، أدار الشيخ حسانين حوارًا هامسًا خطر على باله مع شيوخ المنصة، فلو طردوه الآن لقال الناس إنهم فشلوا في الرد عليه فأهانوه وطردوه: «ولكن يجب أن نكشفه ونكشف تهافته ثم نطرده»، فتدخل شيوخ المنصة سريعًا وعنفوا الشيخ برهومة حجازي وأعادوا الإمام إلى مكانه وطيبوا خاطره وهم يتبسمون ابتسامة التشفي، ثم عاد الشيخ حسانين يسأل الإمام بعد أن هدأ الجمهور: حدثنا عن والد الرسول، هل ترى أنه في النار أم أنه من أهل الفترة فتجحد بذلك حديث رسول الله الصحيح؟

الإمام أحمد: من قال إن عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول في النار فقد

أخطأ وإنما حديث رسول الله عن عمه أبي طالب، فالعم أب، كما كان آذر عم إبراهيم أبًا له، وأبو طالب كفر لأنه عرف الحق ولم يتبعه خوفًا من أن تعيره العرب، وهذا كبر، أما والد الرسول فهو من أهل الفترة إذ قال الله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقال في سورة المائدة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ والرسول ليس هو صاحب الرسالة فقط، ولكن الرسول أيضًا هو الدليل، فكل نبي أرسله الله كان يأتي قومه بآية أو علامة، فيعرفون أنه مرسل من قبل الله، فكانت لإبراهيم آياته، ولموسى آياته، ولعيسى آياته، ولمحمد آياته، هذه الآيات لأقوامهم، فإذا رأوها عرفوا أنها فوق إمكانية البشر، فآمنوا بهم، ولكن كان هناك من أقوامهم من يرى الآيات فيجحدونها ويقولون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ فهؤلاء هم كفار «الشهود والمعاينة» ومن هؤلاء من قال فيهم الله سبحانه في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ هنا يا أيها الشيخ، ويا عامة المسلمين وخاصتهم، جاءت آية الله مبصرة، واضحة، جلية، ولكنهم قالوا للناس حتى يفتنوهم: «هذا سحر مبين» رغم أن أنفسهم استيقنت الحق.

فإذا وصلت أخبار هذه الآيات لأمم بعد أمة الشهادة، فآمن بها البعض فهو مؤمن، وأيقن بها البعض الآخر وجحدها فهو كافر، ولم يصدقها البعض ولم تدخل إلى عقله فهو مكفور عنه لا كافر، ويُعذر لأنه لم يكن من أهل الشهادة والمعاينة.

الشيخ حسانين: كلامك مردود عليه، ولكنك وأنت تنكر أن أبا الرسول

في النـار تحدثت عن أهل الفترة فأخطأت إذ ظهـر من كلامك أن أهل الفترة سيدخلون الجنة !

الإمـام أحمـد: هـذا من تمـام عـدل الله، وهو سـبحانه الذي قـال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فهـو بعدلـه الـذي منـع التعذيب قبل إرسـال الرسل.

الشيخ حسانين: ألا تعلم أيها الدعي أن الإمام أحمد بن حنبل روى حديثًا عن أن الله سيمتحن يوم القيامة أهل الفترة.

الإمـام أحمد: أعرف هـذا الحديث كما أعرف نفسي، وأعرف أن الدنيا دار اختبار وابتلاء مصداقًا لقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وقولـه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهـي دار العمل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

استطرد الإمام أحمد مسترسلًا وقد أرهفت له الأسماع وانتفضت لكلماته القلـوب لأول مـرة منذ أن بدأ حديثـه: أما الآخرة فهي دار حسـاب وجزاء ومسئولية وليست دار امتحان مصداقًا لقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ثم أكمل حديثه وكأنه رجل من أهل عصرنا لا علاقة لـه بابـن حنبل إلا علاقـة المتابعة والاتبـاع، وما روى أحمـد الحديث إلا لأنه ثبـت عنده، فهو عالم حديث فحسـب، ولكن كما أن الحديـث إمامنا فالقرآن

إمامنا، وجلٍّ، فليُعمل الفقهـاء والمفسرون علومهم لإزالة التعارض والذي قاله بعض الفقهاء إن الإنسـان سيسأل عن عمله، سواء كان مؤمنًا أو جاهلًا مكفـورًا عنه، فالله قـال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ وقال: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ وهذا من تمام عدل الله.

كانـت قلـوب الجمهور قد رقت من فرط حـلاوة كلام الإمام وطلاوته، وقد ظهر هذا على وجوههم، فأراد الشيخ حسانين أن يسحب منه ما اكتسبه فقـال لـه: وما حكـم النصـارى واليهود الذيـن ماتـوا على دينهـم ورفضوا الدخول في الإسلام؟

الإمام أحمد: حكمهم هو ما قاله الله فيهم.

تنفس الشـيخ حسـانين الصعداء إذ ظن أنه أمسك تناقضًا في كلام غريمه فسأله: وماذا قال الله فيهم؟

الإمام أحمد: اعلم يا هذا أن الإسـلام هو التسـليم لله، لذلك قال سبحانه عـن إبراهيـم إنه ﴿كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ وقـال الله أيضا: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ وهكذا تجد كل آيات الله، فالإسلام إذن هو التسليم والخضوع لله، لذلك فإن الإنسـان محاسـب على خضوعه لله وحده، وفي الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ: «كل مـن قـال لا إلـه إلا الله دخل الجنة» وليـس في الحديث كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة، فالشهادة التي تدخل الجنة هي الشـهادة بوحدانيـة الله، وعندما أراد الصحابي أبو عمرو سـفيان بن عبد الله

الثقفي أن يعرف ما هو الإسلام قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك. قال: «قل آمنت بالله، ثم استقم»، فالإسلام إذن هو الإيمان بالله ثم الاستقامة.

صاح الشيخ حسانين وقد احمر وجهه: أنت تتهرب من الإجابة أيها الشيخ. سألتك عن النصارى واليهود فتحدثني عن الإسلام والتسليم، أنت تلف وتدور.

رد الإمام أحمد على البديهة: قال الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا قول الله لا قولي أنا، الذين هادوا والنصارى والصابئين ما داموا آمنوا بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ لأنهم في معية الله.

الشيخ حسانين: هذا استدلال في غير موضعه لأن النصارى لا يؤمنون بالله الواحد الأحد، هم يؤمنون بألوهية المسيح ويقولون إن الله ثالث ثلاثة.

الإمام أحمد: يا شيخ حسانين إن وحدانية الله منزهة عن الاجتماع، والافتراق، والامتزاج بالناسوت، والحلول، سبحانه عن هذا وتعالى علوًّا كبيرًا، ولكن هناك من ابتدع وهناك من اتبع، فالذي ابتدع وكان يعلم الحق ومع ذلك قال بالامتزاج بالناسوت والحلول فيه فهو الذي قال، وهو الذي كفر، أما من اتبع ظنًّا منه أنه الحق دون علم فهو المقول له لا القائل، إنما الذنب على القائل لا المقال له، هل تعرف أن المعتصم بالله اعتبر ابن حنبل

مشركًا لأنه قال إن القرآن كلام الله وليس خلقًا لله؟ الاختلاف في ذات الله حدث في الإسلام نفسه، ولكن لتعلم أن هذا الاختلاف في عقائد الناس هو اختلاف المحبين لا اختلاف الكارهين، المسلم يحب الله وأخذ يبحث في النصوص التي لديه ليتصور حبيبه، والنصارى الذين يعيشون بينكم أحبوا الله واختلفوا في تصوره، فلندع أمرهم إلى من أحبوه.

استطرد الإمام: هل تعرف يا شيخ حسانين المأثور عن الإمام أحمد؟

الشيخ حسانين: هل تمتحنني؟ أحفظه عن ظهر قلب.

الإمام أحمد: مر أحمد أبو عبد الله ومعه جماعة من أصحابه بقبر رجل في طرسوس فقالوا له: هذا كافر. فقال أحمد: الكافر هو أول من بدأ هذا الأمر.

الشيخ حسانين: هذا عن المأمون الذي كان مدفونًا في طرسوس، فقد كفـَّر الإمام أحمد المأمون.

الإمام: لا لم يحدث، بل امتنع عن تكفير المأمون لشبهة في تكفيره ووجود من يُلبِس عليه، فهو من المقول له فاتبع ظنًّا أن هذا القول هو الحق.

الشيخ حسانين: وهل تجيز أن نترحم على الأموات من أهل الكتاب؟

الإمام: أجاز لنا أن نتزوج منهم أفلا نترحم عليهم؟ يا شيخ إن رسالة الإسلام هي الرحمة والسلام، فكيف تحجب رسالة الإسلام الرحمة عن خلق الله، وهل يملك أحدنا أن يقسم رحمة الله وهو القائل: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾؟

ارتفع صوت الإمام أحمد وانتفخت أوداجه وارتعش صوته وهو يستطرد: وأين تذهبون يا شيخ حسانين من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وكلنا بمختلف عقائدنا شيء؟! وأين أنتم من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾؟ وإذا أسلم رجلٌ وظل أبواه على دينهما الكتابي، أفلا يجوز له أن يترحم عليهما مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾؟ وأين تذهبون من رحمة الله التي أسبغها على أبي طالب عم الرسول ﷺ فجعله أخف الكفار عذابًا في النار؟ وأين تذهبون من حديث الرسول ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن» وحديث: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»؟ والأحاديث هنا على عموم اللفظ مهما كان دين الرحماء، ولتعلم أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليكون رحمة للعالمين، وليس رحمة للمسلمين من دون الناس، وهذا من تمام عدل الله.

هدأ الإمام أحمد وظهر أن كلامه وصدق انفعاله قد تركا أثرًا كبيرًا في الجمهور، فاستدرجه الشيخ حسانين: وما قولك في قول الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؟

الإمام أحمد: هذه آية عن المشركين وليست عن أهل الكتاب، وهي آية عن الاستغفار وليست عن الترحم، والمغفرة غير الرحمة، ولو كانت المغفرة هي الرحمة لما كانت لله الأسماء الحسنى، ويجب على كل صاحب نظر أن ينزه الله عن أنه يطلق على نفسه الأسماء المتشابه، فالرحمن غير الرحيم والغفور

غيرالغافر والغفار، ولكل منهم موضعه، إيهِ يا شيوخ هذا الزمن الغريب، لو تعلمون من هو الرسول ﷺ ما خرجت منكم كلمة كره أو حرب أو شحناء، ولكنكم جهلتم قلبه الذي أنار الدنيا بالحب والرحمة، وغابت عنكم نورانيته وحبه لكل الخلق، حتى أنه رفض أن يدعو على كفار قريش، ورفض أن يخسف الله بهم الأرض ويطبق عليهم الأخشبين، أراكم تنقلون للناس ما في قلوبكم أنتم، لا ما كان في قلب الرسول عليه الصلاة والسلام، تنقلون لهم بغضكم لا حبه، كراهيتكم لا سماحته، أمراض قلوبكم لا نور قلبه. الذي أنتم عليه ليس هو الإسلام الذي جاء به الرسول، ولكنه الإسلام الذي شوهته نفوسكم وعاداتكم وغيرتكم وغروركم وكبركم وحقدكم.

وهنا تدخل الشيخ أبو إسماعيل الرويني لأول مرة مستأذنًا الشيخ حسانين: هل تسمح لي يا شيخنا وعالمنا أن أسأل هذا الرجل سؤالًا؟ أصله يا شيخ حسانين رجل مداور، تأتي له من اليمين فيستدير لك من اليسار، وقانا الله شر أهل اليسار.

الشيخ حسانين: تفضل أخي الكريم الشيخ أبا إسماعيل فالساحة مفتوحة للجميع، وكلنا نذب عن دين الله وعن حوض رسول الله ﷺ.

الشيخ أبو إسماعيل: شوف يا حضرة، أنا أحب الذي يأتي لي دوغري، وسأسألك سؤالًا لا أحب أن تراوغني فيه؛ هل تجيز إلقاء السلام على النصارى.

الإمام أحمد: وكيف تكون رسالة السلام تحرم السلام وتقصره على

المسلمين؟! السـلام لكل الناس ما عدا المحاربين، لأن مجال الحرب لا سلام فيـه، ولتنظر إلى آيـات القرآن الكريم، وخذ منها السـلام الذي يريح الخاطر ويطيـب القلـب واسـمع لقولـه تعـالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾، وقوله تعـالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ ولفظ بيوت وأهلها هنا جاءا على العموم لا الخصوص.

نظر الإمام أحمد للجمهور وقال: يا عباد الله انشـغلتم بالآخرة ولم تعملوا لها، وسيَّدكم الله على الأرض فلم تسودوها، واستعمركم فيها ولم تعمروها، وأنـزل لكم سـورة الحديـد، فلم تتقنوا صنـع الحديد، عرفتـم أن النظافة من الإيمان فلم تقيموا تلك الشـعبة في حياتكـم، نهاكم الله عن الكذب فكذبتم، ونهاكـم عن النفاق فنافقتـم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فقلتم ولم تفعلوا، وأمرتم الناس بالبر ونسـيتم أنفسكم، وجعلتم كل فقهكم حرمـان خلق الله من رحمة الله، فجعلتم الجنة لكـم وحدكم وفعلتم ما نهاكم الله عنـه عندما أعلمكم بخبر الأمم التي سـبقتكم بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾. أصابتكم الأمراض فتذيلتـم الأمم، ونشرتم الفرقة والخلاف في كل مـكان وتحزبتم، أخذتم من اجتهادات السـابقين ولم تجتهدوا لأنفسكم، أوقفتم آلة الاجتهاد، كل قولكم أخذتموه من ابن حنبل وغيره، وهم اجتهدوا لزمنهم ومكانهم، أنا لا أستطيع الآن أن أجتهـد لكم في أحوال مسـتجداتكم لأنني لا أعرف واقعها، فكيف تأخـذون برأيي في أمـر لم أره ولم أعرفه،وأنا الذي كنت أكـره أن يكتب أحد

رأيي؟! فتنة عصركم أيها الناس هي توسيع دائرة التكفير، واضمحلال التفكير، والتمسك بالفروع، وإهدار الأصول، أنتم أمة «اقرأ» ولا تقرءون، وأمة «اعملوا» ولا تعملون، وأمة «يسروا» ولا تيسرون، وأمة عمِّروا ولا تعمرون، وأمة اجتهدوا ولا تجتهدون، وأمة ارحموا ولا ترحمون، وأمة لا تكذبوا وتكذبون، وأمة أتقنوا ولا تتقنون.

انتفض الشيخ أبو إسماعيل: من أنت حتى تظن أننا نأخذ باجتهادك أيها الفسل النكرة؟ أجئت لتعطي لنا درسًا في الأدب يا عديم الأدب، لقد أخطأنا عندما أفسحنا لك وتركناك تهرف بسجعك وهرطقتك، وما كلامك إلا سفسطة ومراء، والله لا يحب المراء، فرسولنا الكريم هو القائل «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو محقًّا» اخرج من بيننا الآن، لا نريد أن نراك هنا مرة أخرى.

انتفض مصطفى الشرقاوي من قعدته وصاح في الشيخ أبي إسماعيل: أتطرد الإمام أحمد بن حنبل يا جاهل، هذا هو عالم الأمة ومن ذاد عنها في فتنة خلق القرآن، شرف لكم أن جاء لكم يضع ملامح فهم قويم للإسلام الذي جعلتموه حرامًا كله، وتكفيرًا كله.

ضحك بعض الجمهور وضحك من يجلسون على المنصة، وقال الشيخ حسانين: ابن حنبل مرة واحدة! الآن فهمت لماذا كلما حدثته عن الإمام أحمد قال: رويت كذا أو لم أقل كذا... ثم نظر للإمام ساخرًا: لماذا يا إمام لم تحضر معك البخاري والنسائي وعبد الرزاق والترمذي ومسلمًا؟

انطلقـت ضحكات الجمهـور، وأخذ البعض يقـول: خذنا على جناحك يـا إمام أحمد.... وآخرون يقولون: هل معك تحقيق شـخصية يا إمام الأمة؟ تحقيق شخصيتك هو المسند، هل سمعت عنه من قبل؟

وفي وسـط خضم الشـوشرة والضحـكات التـي أثارها الجمهـور خرج الثلاثة مسرعين، وعلى باب المسجد وجدوا سيارة شرطة رابضة، تقدم منهم ضابط وبعض العسكر فاقتادوهم إلى السيارة وهم يدفعونهم بقوة، والضابط يقول: أهلًا بكم، لن تخرجوا من السجن أبدًا.

■■■

في مركز كفر الشـيخ كانت التهمة جاهزة والمحضر معدًّا سلفًا، من الذي حرك الأمر سريعًا؟ ولماذا جاءت الشرطة؟

في ليالي احتفالات السلفيين الدينية تقف قوات الشرطة دائمًا لحماية محافلهم بجنودهـا وضباطهـا وأسـلحتها وسـياراتها، الـكل في خدمة علـماء الدعوة السـلفية، من أول مدير الأمن إلى أصغر جندي في المديرية، وإذ فشـل الشيخ برهومـة في طرد الإمـام وصاحبيه بعد أن أوقعه من فوق كرسـيه، انتظر على باب المسجد وهو يكاد يفقد رشده من الغيظ، وإذ نطق مصطفى بقوله: هذا ابـن حنبـل، خرج برهومة حجازي وذهب إلى أحد الضبـاط الكبار قائلًا: يا سيادة العميد، الرجل الذي يناظر العلماء بالداخل جاء من العراق وهو رجل مخبـول أو عميـل، فهو يدعي أنه المهدي المنتظر، ومعـه رجلان يؤيدان قوله، أليس من الخطر أن يُترك دون حسيب أو رقيب فيعيث في الأرض الفساد؟

جلس المأمور خلف مكتبه وأخذ ينفث دخان سيجارته، والثلاثة يقفون أمامه، لا حول لهم ولا قوة.

هل أنت المهدي المنتظر؟ قالها العميد مأمور المركز وهو يتفرس في وجه ابن حنبل.

الإمام أحمد: من قال ذلك؟! هذا غير صحيح، وهو قول واضح البطلان.

المأمور: وما اسمك؟

- اسمي أحمد.

المأمور: أكمل اسمك.

- أحمد أبو عبد الله بن محمد بن حنبل.

المأمور: أتقصد أنك الإمام ابن حنبل؟!

- نعم أنا هو؟

المأمور: ومن هم يا ترى أولئك الذين معك، أهم أئمة أيضًا؟!

لم يرد ابن حنبل فوجه المأمور كلامه لغريب ومصطفى إلا أنهما امتنعا عن الرد، وحين طلب منهم جميعًا التوقيع على المحضر لاذوا جميعًا بالصمت الذي يوحي بالرفض، فوقر في قلب المأمور أنهم مخابيل، وأمر أحد الضباط أن يتم عرضهم على النيابة في الصباح قائلًا: في مثل هذه الحالات تصدر النيابة دائمًا قرارًا بعرضهم على الطب الشرعي أو مستشفى الأمراض العقلية للبحث عن مدى سلامة قواهم العقلية، وأحسبهم مجانين.

لم تغفل عين أحد منهم داخل الحجز، وكيف تغفل وهم الذين تعودوا على قيام الليل، لم يجد الإمام أحمد ماءً فتيمم، وطلب من رفيقيه التيمم مثله، وصلى الإمام الليل كله، أما غريب فصلى ما استطاع وأخذ يتفكر في هذه الدنيا الغريبة «غريب أنا في بلاد غريبة، ومن عجب أن هذه البلاد الغريبة هي بلادي ولكن الزمن ليس زمني، غربتي عن الزمن هي التي شقت قلبي وأرقته، أهكذا كنتم يا أهل الكهف؟ ألهذا لم تتحملوا الاستمرار في الحياة؟ نَكِدٌ هو من عاش في زمن غير زمنه». أخرج غريب من جيبه خرقة كان يتحسسها بين الحين والآخر، نظر إليها وإلى العبارة المكتوبة فيها «من أبي عبد الله أحمد بن محمد الشيباني لعبد الله غريب بن يوسف السعيدي الثقفي باركك الله ورفع قدرك في الدنيا والآخرة».

«ستكون ذكرى لا أنساها، والحمد لله أن جعل الإمام يطرز لي هذه الكلمات وهذا الدعاء، لن أتركها ما حييت، وسأتبرك بها كما تبرك الإمام الشافعي بثوب ابن حنبل».

أخرج من سرواله صورة كان قد التقطها مع ابن حنبل ومصطفى في أحد استديوهات القاهرة، كان مصطفى قد تحدث مع الإمام في أن الإنسان من الممكن أن يوقف الزمن، إذا صوره أحد فوتوغرافيًا «فذهبنا إلى الاستديو والتقط المصور هذه الصورة لنا، ظلت الصورة ثابتة على ما كنا عليه، تحركنا نحن ولم تتحرك الصورة، هل بهذا يكون الزمن قد توقف؟».

«الزمن لا يتوقف أبدًا، ولكن الذي حدث هو أن المصور ضبط ظلنا وعكسه على هذه الورقة» هكذا قلت لمصطفى أمام الإمام فابتسم كلاهما:

«إلا أن فرحتنا بالصورة كانت لا توصف، أراني أتوق شوقًا لزمني، هل أعود إليه أم أظل معلقًا في هذا الزمن؟ أم تُرى أن الثرى سيحتويني فيفنى جسدي وتخرج روحي من نطاق أزمنة الحياة الدنيا إلى أزمنة وأمكنة لا يعلمها إلا الله؟».

ارتكن مصطفى إلى الحائط ودارت الدنيا برأسه: «لقد مررت على أمور غريبة وعجيبة حقًّا، إلا أن فؤادي استراح، فمما مررت عليه عرفت أن الموتى يعيشون بيننا، قد لا نراهم ولا نحس بهم ولا نشم طيبهم، ولكن عندما تقترب أرواحنا منهم نحس بهم ونشمهم، كانت لنور رائحة طيبة تميزه، ولكل إنسان رائحة ينفرد بها كبصمة الأصابع، يختلط فيها عرقه بجسده بطبقة جلده، بهواء دنياه التي يسير فيها، بالماء الذي ينضح به وجهه وجسده، بقبس من نور روحه، نعم تلك الرائحة لا يمكن أن تصل إلينا بعد أن يرحل صاحبها عن دنيانا إلا إذا اقترب منا كيانه الروحي وخالطنا، كأن العرق قد اختلط بقبس من نور الروح ولـمَ لا يختلط في واقعنا والروح قبلها كانت تسري في ذلك الهيكل الطيني المسمى بالجسد؟». وفي الأيام الأخيرة كان أنف مصطفى يطير خلف رائحة نور، نور في المكان كله ينشر عبقه «أنا الآن أقرب إليه من أي وقت مضى، هو في حضني ولن يفارقني».

وفي الصباح وبعد أن نقلتهم سيارة الشرطة إلى مبنى محكمة كفر الشيخ، جلسوا على السلالم بالقرب من مكتب وكيل النيابة انتظارًا للتحقيق، وجلس معهم عريف شرطة يحرسهم ويمسك بيده أوراق المحضر والأورنيك الخاص بهم، وإذ رأى عن بعد سكرتير التحقيق هرع إليه، وأثناء ذلك إذا بمجموعة من الشباب تحيط بالسكرتير والعريف وتقيم فيما بينها مشاجرة مفتعلة حتى

ينشـغل العريف بفض الشجار، وفي ذات الوقت اندفعت مجموعة أخرى من الشباب الملتحي صوب المتهمين الثلاثة تجذبهم وتسحبهم خارج المحكمة وهم في قمة الانقياد لهم، وكيف لا تنقاد الأجساد وهي متعبة مثخنة بالآلام؟

■■■

كان الخاطفون هم مجموعة من أنصار الشـيخ أبي إسـماعيل، فمع الوقت وبعد الثورة تكونت له مجموعات ومجموعات أخذ يسخرها في مواقف كثيرة، وبعـد أن كان يتلقى الأوامـر من أمن الدولة فينفذ ما يريدون دون مناقشـة، أصبـح قريبًـا من الند، فعندما يكون هناك الأتباع تكـون القوة والأنفة، ومع تزايد الأتباع تزداد القوة، والقوة دائمًا تتغلب على الضعف، رغم أن الضعف في بعض الأحيان يتغلب على القوة، ولكل وسيلته في فرض الذات.

حملتهـم سـيارة نصف نقـل ألقـوا في صندوقهـا وجلس معهـم فيه أحد الخاطفـين، إلى أيـن يذهبون بهم؟ الله أعلم! ولكن الذي حدث هو أن الإمام أحمد أخذ يردد: يارب سلم سلـم. وقلده غريب ومصطفى فأخذا يقولان مثل قوله وقد سلموا جميعا أمرهم لله، كان الرجل الذي يحرسهم في الصندوق ذا لحية عظيمة، يمسـك في يده سـلاحًا يشبه السـيف، وكان هذا السلاح كافيًا كي يلزم الجميع الصمت، أخذت السـيارة تسـابق الريـح وتأخذ طريقها إلى غـرب مدينة كفر الشـيخ ناحية دسـوق، اهتز مصطفى من رجرجة السـيارة فأسـند مرفقـه الأيمن إلى جانـب الصندوق واعتدل بجسـده وأخذ ينظر إلى أقـصى مدى للنظـر، يريد أن يحفظ الطريق، لمح شـبحًا غائمًا، علـق نظره به، جسـد هذا الشـبح يشبه استقامة جسـد نور وفي نفس عوده، اقتربت السيارة

من الشبح، ارتفع صوته: «يا ألله كأنه نور!» زاد ارتفاع صوته: «ابتعد يانووور عن السيارة، أنا حذرتك كثيرًا، ابتعد، السيارة ستدهسك». أمسك العمدة غريب بيده وأمسك الإمام أحمد باليد الأخرى، اقتربت السيارة أكثر وأكثر وهي تطوي الأرض طيًا: «أنا أشم ريحك يا نور، أنت هو، أنت هو ولا أحد غيره». اصطدم إكصدام السيارة الأمامي بالشاب الصغير فاهتزت السيارة من قوة الصدمة ولكنها لم تتوقف، طار الجسد بعيدًا ومصطفى يصرخ بعزم ما أعطاه الله من قوة، تحول في هذا اللحظة إلى مارد، في داخلنا قوة لا نستطيع أن نستبصرها ولكنها تخرج في أوقات استثنائية، الإنسان هو أقوى مخلوق على وجه الأرض، هذه حقيقة مؤكدة، ولكنه يعيش باثنتين من مائة من قوته، ويختزن الباقي، لا يستطيع أن يعيش بها كل حياته، وإلا لأهلك الحرث والنسل.

قللت السيارة من سرعتها حتى يستطلع السائق خبر من يصرخ في الصندوق، فإذا بمصطفى يضرب حارسه بقوة على صدغه ثم يقفز من السيارة حين تهادت، اعتدل الحارس المضروب وأحكم السيطرة على الرجلين اللذين بقيا في السيارة وأمر السائق أن يستمر في السير بأقصى سرعته، كان هناك رجلان آخران يجلسان في الكابينة مع السائق فأخذا يلهبانه بالكلمات حتى يذهب بهم جميعًا إلى مكمنهم.

حين قفز مصطفى من السيارة تدحرج ولكنه سرعان ما قام واقفًا، اقترب من الجثة الملقاة على جانب الطريق، وجد بعض سيارات تتوقف، نزل منها أصحابها وأخذوا يعاينون ذلك الجسد الملقى الذي يفترش بركة من الدماء، نظر مصطفى للجثمان وهو في ذهول، ظل نظره معه حينما رفعه بعض الرجال ووضعوه في

سيارة أحدهم ليسرعوا به إلى المستشفى، انصرفت السيارات ومصطفى لم ينصرف، جلس على قارعة الطريق، أفاق لنفسه: «أين أنا؟ ما الذي جاء بي إلى هنا؟ هذه ليست السعيدية وهذا ليس طريق بلبيس، هذا طريق غريب لا أعرفه» وحين تحسس جيوبه وجد قدرًا من المال في محفظته، كان في حيرة شديدة، آخر ما يتذكره أن مناديًا جاء له في المنام وقال له اذهب إلى نور. فقام ذاهبًا فإذا به هنا وقف مصطفى بعد أن جمع شتات أفكاره، وبعد حين استطاع إيقاف سيارة، عرف من صاحبها أين هو فأخذه العجب الشديد، ما الذي أتى به إلى كفر الشيخ وأنا الذي لم أذهب إليها من قبل؟! أخذ يضرب كفًا بكف، ثم توجه إلى موقف سيارات الأجرة وأخذ يبحث عن سيارة تقله إلى بلده.

■■■

في قبو مظلم تزكم عفونته الأنوف هوى أول سوط على الإمام أحمد، كانوا قد علقوه على عارض خشبي، وأحد الرجال يصيح فيه: أأنت جئت لتسخر من علمائنا؟ أنت كافر، كافر، وعقاب الكافر القتل، ستُقتل أنت وصاحبك، ولكننا سنفرغ منك أولًا فأنت الرأس، والرأس يجب قطعه.

كان غريب مقيدًا وملقًى على الأرض ينتظر دوره والسياط تهبط على ظهر ابن حنبل، يا للألم الذي يتعرض له الإمام، ويا للألم الذي يكابده غريب! ألم غريب كان أشد قسوة على نفسه من وقع السياط على ظهر الإمام، فهو مقيد عاجز عن نصرة حبيبه ابن حنبل والذود عنه، يود أن يفتديه بحياته، ولكن قدر ابن حنبل أن يفتدي الأمة كلها ويتلقى عنها آلامها، في كل عصر مضروب أنت يا بن حنبل، وكل ابن حنبل في كل عصر مضروب.

أخـذت الدموع تنهمر من عيني العمـدة غريب، ومع كل ضربة تقع على ظهر الإمام كان جسـده ينتفض وكأنـه هو الذي تلقى الضربة، ومع انتفاضة جسـده كان قلبه يقفز من مكانه يريد أن يغادر هذا الجسد الضعيف المغلوب على أمره، يود لو بذل الحياة إلى المنية وافتداه.

وحـين بغتة شـعر بحلقـه وقد جف وكأنـه أصبح عود حطـب، تقطعت أنفاسـه، وغامت الدنيا تحت جسده، ما بالها تدور به «الماء نفد من كياني كله، حتى إنني لا أسـتطيع الاسـتنجاد بأحد، وبمن أسـتنجد وأنا وسط الذئاب، يـا ألله ما هذا الألم الشـديد الذي أشـعر بـه في عيني اليمنى؟ النـور يغادرها، بـل هو الآن يغادر العينين، الظلام في كل مكان، وأذني امتنعت عن السـمع، صفير يطن في أذني، هل هذا هو الموت؟ أنا الآن أقاسي لهاث الموت، جسدي سيفنى في زمن غير زمني، ولكن روحي في طريقها للتحرر».

أخـذت الضربات تتوالى بعنف على ظهر الإمـام الممتحن، هذا هو قدرك يـا إمام، أن تثبت على قـول الحق فيجلدوك، ومع ذلك فإن صوتك سـيصل للعـالم كله وإن كان خافتًا، وأنفاسـك الحرَّى وإن هي أخمدت، سـتظل تغمر جهلهم فتبدده.

وبينـما هـو في هذا الحال نظر يمينـه فلم ير العمدة (غريـب)! أين أخذوه؟ هل قتلوه؟ أغمض عينيه حتى يحبس الدموع التي تهيأت للانزلاق، لا يريد أن يراه أحدهم وهو يبكي فيظن أنه يبكي على الدنيا أو من ألم السـياط، هؤلاء لا يفهمون المشاعر ولا يعرفون القلوب، وحين فتح عينيه مرة أخرى إذا بعبد الله الرصافي يظهر له، «هل رأوك؟» قالها ابن حنبل والفرحة والدهشة تغمرانه.

أعماهم الله بقوة «فأغشيناهم فهم لا يبصرون».

الحياة الخامسة

زمكان

عــودٌ عـلــى بـــدء

ولما كان يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من شهر رمضان من سنة مائتين وتسع عشرة للهجرة، والذي يوافق اليوم الأول من شهر أكتوبر عام 834 ميلادية:

نظر ابن حنبل حوله وهو يتحسس جسده، المكان مظلم، ولكنه ظلام يتيح الرؤية، شعر بألم شديد في ساعده حاول أن يرفع يده فلم يستطع: «يبدو أنني أصبت في كتفي من أثر الضرب، أو من أثر التعليق على الخشبة، رسغي[1] يؤلمني، ولكن من الذي أمر بضربي؟! المعتصم؟ لا ليس المعتصم ولكنه أبو إسماعيل الرويني، نعم أبو إسماعيل الرويني وليس أحد غيره، آهٍ ثم آه، ولكنهم كانوا يجلدونني بسبب ذلك الامتحان الذي تعرضت له الأمة، يالهم من أغبياء، كيف يقولون إن القرآن مخلوق، القرآن كلام الله، رب العزة يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ والقرآن من أمر الله، القرآن كلام الله،

(1) الرسغ: مفصل ما بين الساعد والكف.

هو يقول ذلك ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ ألم يكلم اللهُ موسى عليه السلام؟ فهل كلام الله لموسى مخلوق! والذي نفسي بيده هذا من أعجب الأشياء، ثم إن الله لم يقل أبدًا في كتابه الكريم إن القرآن مخلوق، ولو كان كذلك لقال، ولكنه قال ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ولم يقل: خلق القرآن، ولكن ما هذا الذي حدث لي من رجال أبي إسماعيل الرويني آه، إن جسدي يؤلمني بشدة، عقلي مضطرب، هل كنت أحلم؟! أين أنت يا غريب يا بن يوسف؟ تعال اقترب مني، كاد هؤلاء الأوباش أن يقتلوني لأنني وقفت لهم في فتنة تكفير المسلمين، هل أصابت لوثة عقول هؤلاء الناس؟ أصيبت الأمة بالخوارج ولن تشفى من هذا الداء العضال أبدًا، كادوا يقتلونني يا غريب لولا أن تغمدني الله برحمته فجاء لي عبد الله الرصافي وخلصني من بين أيديهم، ولكنني لا أتذكر الذي فعله الرصافي معي وقتها، هل تتذكر أنت؟».

نظر ابن حنبل حوله فلم يجد غريب، ووجد نفسه في مكان مظلم يتسلل إليه ضوء خافت، هل أنا في السجن؟! نعم سجن الخليفة، لا، يبدو أنني في سجن أبي إسماعيل «همَّ التكفيريون بقتلي! ولكن كيف يقتلونني وأنا في قصر المعتصم؟! الأمور مختلطة في ذهني، أأنا في مصر أم في بغداد؟! يا ألله هل كنت أحلم؟!».

وبَيْنَا[1] هو في ارتباك وذهنه في تشتت، وجد بعض الجند يدخلون عليه.

---

(1) بينا: ظرف زمان مبني على السكون ومعناه بينما.

- أين أنا؟ المكان مظلم جدًّا، ما هذه الظلمات التي وضعوني فيها؟

رد قائد الجند عليه: أنت في القبو، ولقد خرجت إلى الحياة بأعجوبة.

- أي قبو؟

- القبو الصغير الذي في قصر الخليفة.

- المعتصم؟

- وهل لك خليفة غيره؟!

- كم غبت عنكم؟

- غبت عن الوعي قليلًا، ولكن هأنتذا أنتذا تسترده، قم وتحرك معنا، فالقوم في انتظارك في غرفة التطبيب الشرقية.... ثم نظر إلى أحد الجنود وقال له: كتب الله له عمرًا جديدًا، فلقد ضربته بسوطي ضربًا لو كان على فيلٍ لوقع.

رد ابن حنبل بصوت واهن: لا أستطيع الحركة، قدماي لا تقويان على حملي.

فأشار قائد الجند لبعض جنوده فخرجوا من القبو وعادوا سريعًا وهم يحملون محفة حملوا ابن حنبل عليها، وابن حنبل ينتفض في داخله من الألم ولكنه كتم ما به وأخذ يعض على نواجذه، وحين حاولوا الخروج به وهو محمول على المحفة لم يستطيعوا إذ كان باب القبو ضيقًا، فحمله أحدهم من على المحفة ليخرج به من الباب، فاشتد الألم على ابن حنبل حتى لم يقو على

تحملـه فندت منه صرخـة أخافت الجند، فـأسرع الذي يحملـه وخرج به من البـاب الضيـق، ثم سرعان مـا وضعه على المحفـة مرة ثانيـة وصرخات ابن حنبـل تتكـرر، ولو عاد بك الزمـن إلى تلك اللحظة وأنصـتَّ إلى صراخ ابن حنبل لوجدت كل صرخة كانت تخرج منه تقول: «الله، الله» فقد كان يستعين بالله على ألمه.

دخلوا به إلى غرفة التطبيب فرأى أناسًا يعرف بعضهم ولا يعرف البعض الآخـر، اقـترب منه رجل غريب الهيئـة لا يرتدي عمامة، أمسـك الرجل يده حاملا إياها فتأوه ابن حنبل بصوت مرتفع ثم قال: من أنت وأين أنا؟

- أنا الطبيب يوحنا بن ماسـويه، وأنت في قصر الخليفة، هل أنت بخير؟ قل لي بماذا تشعر؟

وكأنه لم يسـمعه، اسـتمر ابن حنبل قائلًا: أنت يوحنا بن ماسويه الطبيب المسيحي السرياني؟

- نعم، أنا هو.

تـأوه ابـن حنبل وقال بصوت خافـت: لقد أكرمـوني إذن، فبعد الضرب أطلقوا أقيادي، وأحضروا لي طبيب الخليفة الذي لا يَأتمن أحدًا غيره.

ـ خذ هذا السويق الملتوت[1] اشربه وتقيأ.

ـ ألا تعلم يا طبيب أنني صائم؟ لن أشرب سويقك.

---

(1) السـويق الملتوت: طعام يصنع من دقيق القمح أو الشـعير، فإذا وضع عليه ماء وسـكر، صار سـويقًا ملتوتًا.

- وكيف تحملت هذا الضرب وأنت صائم؟ أنا لم أر مثل هذا من قبل!
- غفر الله للخليفة، أشهد الله أنني سامحته.

أخذ الطبيب يوحنا يداوي ابن حنبل ويطبب جراحه ويسكب من قنينته أدوية سائلة على هذه الجراح، ثم أعد لبخة الأرقطيون[1] ووضعها في بعض مواضع من ظهره، وحين أظهر ابن حنبل تألمًا من مفاصل رسغيه، وضع له الطبيب على مفصليه لبخة من نبات الخطاف[2] فأخذ ابن حنبل نفسًا عميقًا وأغمض عينيه.

حُمِل ابن حنبل إلى دار صاحب الشرطة إسحاق بن إبراهيم المصعبي، يتطبب عنده، ويستريح من عناء الضرب، كانت الدنيا تدور به، فقد تعرض لما لم يتعرض له في حياته، كانت هذه هي المرة الأولى التي يُجلد فيها هذا الرجل العنيد الصابر، ورغم أن الضرب يحمل في طياته معنى الإهانة، فإنه اعتبر جهاده من أجل القرآن هو الشرف نفسه بحيث تتقاصر دونه أي إهانة، ولكن الدنيا ما زالت تدور به، فضغف جسده ووهنه انضم إلى الصيام والضرب فلم تقو قدماه على حمله، كان جالسًا على فراش فأسند ظهره إلى الحائط ومد ساقية إلى الأمام، ولكن سرعان ما أحس بألم الجروح التي في الظهر إذ ارتكن للحائط، فنبا[3] بظهره عنه، ولكن الأفكار لم تنأ عنه وظلت

(1) الأرقطيون: نبات تستخدم سيقانه وجذوره وثماره في عمل لبخة تشفي الجراح وتخفف الآلام.
(2) نبات الخطاف: يسمى أيضًا مخلب الشيطان إذ إن شكله الخارجي مخلبي، وقد عُرف هذا النبات منذ أزمنة سحيقة في تخفيف آلام المفاصل.
(3) نبا: ابتعد وفارق.

تراوحه، وصورة أبي إسماعيل الرويني لا تفارقه، ومشهد هؤلاء الناس وهم يصيحون عليه ويحيطون به أفزعه، فأخذ يهز رأسه يمينًا ويسارًا هزات وكأنه يعلن رفضه للغباء الذي في الدنيا: « جُلدت في قصر الخليفة، وجُلدت في مسجد التكفيريين، خليفة يقول بخلق القرآن وبشر يقولون بتكفير المسلمين».

وحين أقيمت صلاة الظهر قام ابن حنبل واقفًا ليصلي متغلبًا بإرادته على ما أصابه، وتقدم قاضي بغداد محمد بن سماعة للإمامة[1] وحين دخل ابن حنبل في الصلاة كان كمن دخل في خَلوته، فلم يشعر بشيء وانعزل عن الدنيا كلها، هو الآن في معية الله: « يا الله، يامن أحببتنا فخلقتنا، وأحببتنا فأحسنت خلقتنا، وأحببتنا فرزقتنا، يا الله يا رب العالمين أنا الفقير إليك في غناي، فكيف لا أكون فقيرًا إليك في فقري، وأنا الجهول إليك في علمي، فكيف لا أكون جهولًا إليك في جهلي، يا الله يا خالقي، بيدك الخلق والأمر، ولك الرحمة والجود، والعفو والغفران، سمع العابدون بجزيل ثوابك فخشعوا، وسمع المولُّون عنك بجودك فرجعوا، وسمع المجرمون بسعة غفرانك فطمعوا، أتسلط النار على وجوه خرَّت لعظمتك ساجدة؟ وعلى جوارح سعت إلى عبادتك طائعة؟ وعلى ناس لم يختلفوا على محبتك ولكن اختلفوا فيها؟ إليك القصد، فاغفر لنا ولكل من أحبك وأخطأ الطريق إليك، فلئن أخطأنا في الذهاب إليك، فحسبنا أننا لم نَفِر منك، التمسنا نورك فوصل

(1) محمد بن سماعة هو العلامة المحدث أبو عبد الله، محمد بن سماعة بن عبيد الله بن هلال التميمي الكوفي كان قاضيًا لبغداد من عهد الرشيد إلى عهد المعتصم.

إليـه من وصل، وضلَّ عنه من ضل، والـكل- من وصل ومن ضل- أحبك وسعى إليك،فأكرم يا الله من وصل، واغفر لمن ضل، وارحم من فر فزل».

انتهـت الصـلاة، وانفتل[1] ابن سـماعة منهـا، وركن ابن حنبل إلى نفسـه يسـبح لله، وعـلى حـين بغتة صـاح القاضي ابن سـماعة: يا ألله! مـا هذا الذي فعلته يا أحمد؟!

■■■

ولما كان يوم الخميس الثامن من ذي الحجة من عام 1366 هجرية، الذي يوافق الثالث والعشرين من أكتوبر سنة 1947 ميلادية،

لم يصدق الحاج غريب يوسف نفسه: أين أنا؟ ما هذا المكان الضيق الذي يغلـب عليه الظلام؟ ومـا هـذه الرائحة الكريهـة؟ أخاف أن يكـون إخوان «أبو إسماعيل الرويني» يبحثون عني.

أخـذ الحـاج غريـب يتفـرس في المـكان الضيـق، بجـواره حفـرة صغيرة وصنبـور ميـاه، بعض الضوء يتسـلل للمكان، نحن في رابعـة النهار، أنا على مـا يبدو والله أعلم رأيت هذا المكان من قبل! آه، أنا في «الكنيف»[2] الذي في مِنى، أنا بجوار خيمتي، كيف حضرت إلى هنا؟ كاد هؤلاء الهمج أن يقتلونا، وكاد ابـن حنبـل يروح في شربة ماء، ولكنه فص ملح وذاب، الحمد لله، لكن كيف عدت لِمنى؟!

---

(1) انفتل: انصرف.

(2) الكنيف: المرحاض.

خرج غريب يوسف من الكنيف مسرعًا، وجد نفسه مرتديًا ثياب الإحرام، فنظر إلى الحزام القماش الذي يحيط بردائه، فوجد خرقة قماش تتدلى منه، نزعها فوجدها تلك القطعة البيضاء التي أعطاه إياها ابن حنبل ونقش عليها اسميهما، أسرع غريب إلى خيمته فوجد زوجته «سيادة» جالسة ممسكة بسبحتها، بَشَّت له عندما رأته وقالت: عرفت الصوت الذي سمعته؟ كان صوت من؟

ابتسم العمدة غريب يوسف وجلس على الفرش المفروشة على الأرض، وقال لسيادة: آه.. واحد من بلدنا.

- من السعيدية؟

- لأ، الدنيا كلها بلدنا يا سيادة.

- والله ما انا فاهمة حاجة منك يا عمدة.

- ولا أنا! إلا قولي لي، كم غبت عنك؟

- يادوب أقل من دقيقتين؟

أمسك العمدة بمصحفه وحاول أن يقرأ فيه ولكن ذهنه كان مشتتًا، ما الذي حدث وأين كنت؟ هل كان ما شاهدته حقيقيًا، وهل قابلت فعلا ابن حنبل؟ وهل مصطفى الشرقاوي حفيدي؟ أم أن الشمس أثرت في عقلي؟ ولكن كيف تؤثر الشمس فيَّ وأنا لم أغب إلا دقيقتين؟ معنى هذا أنني لم أكن في التيه! لا، أنا كنت في التيه ولم أكن أعرف طريقي، اتجهت في حياتي إلى الطريقة، ولكن الطريقة كانت صعبة، تنمحي فيها شخصيتي أمام الشيخ، لا أستطيع

أن أخالفه، قال لي الشـيخ الفضالي في البداية «أنت بين يدي شـيخك كالميت بين يدي من يغسـله، يقلبه كيف يشـاء» ولكنني لم أسـتطع، كان عقلي يغلب عـلّ فأفكر وأناقش وأبحث، ورغم أنني ولجت في الطريقة ثم عرجت فيها، فقد ظللت كما أنا، شـعر بي الشـيخ الفضالي فأفصح لي: ليسـت الطريقة هي طريقـك، فانطلق وراء روحك، دعها تقودك. كنت أقاوم رغبتي في التحرر، ولكننـي لم أسـتطع، كنت أحب كل مـن في الطريقة ولكننـي وجدت القيود تكبلنـي، وهكذا رأيت في المنـام، جمهرة يقيدونني بالأغلال وأنا لا أسـتطيع الحراك، يالها من رؤية أصابتني بالرعب! وإذ أنصتُّ لنصيحة الشيخ الفضالي تركت الطريقة، فرأيت في اليوم التالي رؤية أغرب من الأولى، كنت أسـير في طريـق ثـم إذا بي أرتفع عن الأرض ثـم رأيتني أطير بلا أجنحة، كنت أسـير في الهواء بسرعة وأجوب الأرض جوبًا، وحين قصصت رؤياي على الشـيخ قال لي وهو يغمض عينيه ويطأطئ رأسـه: «من الناس من يَتبع، ومن الناس مـن يُتبع، والـذي يَتبع يجب أن يكون مُقيدًا، أما الـذي يُتبع فيجب أن يكون حرًّا، وكلٌّ مُهيأ لما خـُلق له، وأنت طريقتك ليسـت عندي ولكنها في قلبك، لذلك أراك الله نفسك وأنت تنطلق، فانطلق في ملكوت الله، واجعل جسدك تبعًـا لروحـك». ومع ذلك ظللـت تائهًا مـترددًا، مالت نفـسي إلى الطريقة، ومالت روحي إلى الانطلاق، ذهبت نفسي للدنيا وشئون العمدية والأموال والأطيان، فقسـا قلبـي وضاقت الدنيا بي على رحابتهـا، فجئت للحج باحثًا عـن الحرية، كادت شـمس الدنيا أن تضربني ولكـن الحقيقة جذبتني، عدت من التيه وقد سـلم قلبي وخشـعت روحي، والآن بعد أن أراني الله ما رأيت سأسجد لك يا ألله وحدك، سأطيعك وحدك، أنا لست عبدًا إلا لك».

قالت له سيادة: ما لك يا عمدة، قفلت المصحف وسرحان؟ انت باين عليك عيّان.

لم يرد العمدة وبدا أنه لم يسمعها، فقد كان مستغرقًا في خواطره، فأعادت عليه السؤال مرة أخرى فانتبه وقال لها: لأ، أنا بخير يا حاجة والحمد لله.

وحينها دخل عليهما الحاج محمد فرّاج ـ زوج ابنته ناجية ـ بعد أن تنحنح وقال: يا ساتر، دستوركم[1] يا جماعة.

قال العمدة غريب يوسف بصوت مرتفع: ادخل يا محمد اتفضل.

دخل محمد فراج وبادر غريب يوسف: هناك مجموعة من بلبيس ومنيا القمح ستقيم الآن صلاة الظهر والعصر جمع تقديم وقصر، قم نصلي معهم يا حضرة العمدة.

ـ وهل أذّن الظهر.

ردت سيادة متعجبة: يوه، إنت جرى لك ايه يا عمدة! إنت تـوّك مصلي الضحى... ثم أشارت لزوج ابنتها: خذ الساعة وشوف فاضل كم على الضهر يا شيخ محمد.

- مش محتاجة يا حاجة، فاضل ربع ساعة، بس انا غرضي العمدة يقعد معاهم شوية ويتعرف عليهم.

---

(1) دستوركم: الدستور هو القواعد التي تضبط العلاقات في المجتمعات، وهي كلمة تقال في الريف المصري والأحياء الشعبية لطلب الإذن والسماح بالدخول لمكان فيه نساء.

قام العمدة غريب واقفًا، واتجه مع محمد فراج، وفي خيمة كبيرة بجوارهما وجد جمعًا من الرجال هبُّوا للترحيب به، عرف بعضهم وتعرف على البعض الآخر، وأخذوا يتحدثون عن أحوالهم في الحج والصعوبات التي قابلت بعضهم، وعرجوا بالحديث عن الشرقية وأحوالها وطلب بعضهم من العمدة أن يرشح نفسه كي يكون رئيس لجنة العمد والمشايخ بالمديرية، ثم مرت عليهم أكواب الشاي، المرة تلو الأخرى إلى أن أقام أحدهم للصلاة، فوقف الجميع ولم يتقدم أحدهم للإمامة، فقال العمدة: حد يتقدم للإمامة يا جماعة.

قال واحد من الواقفين: حالًا يا حضرة العمدة، سيحضر شيخ مبارك قلبه أبيض زي البفتة البيضاء وحافظ للقرآن، وسيكون هو الإمام إن شاء الله.

وما إن انتهى الرجل من كلامه حتى دخل رجل أبيض الوجه مشرب بحمرة، وأشار بيده للجميع إشارة السلام ثم تقدم للإمامة.

ظل العمدة واقفًا في مكانه لم يتقدم للانضمام للصف، أشار له أحدهم: تقدم يا حضرة العمدة، تعالَ في الصف هنا.

ولكنَّ العمدة لم يتقدم وكأنه لم يسمع، فاقترب منه زوج ابنته هامسًا: مالك يا عمدة؟

- الإمام!!

- ما له؟

- أعرفه.

- من هو؟

أشــاح العمـدة بوجهه عـن زوج ابنته وصــاح في الإمام: انتظر يا شـيخ، لا تدخل في الصلاة.

■■■

ولما كان بعد صلاة الظهر من يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من شهـر رمضان من سنة مائتـين وتسع عشرة للهجرة، والتي توافق اليوم الأول من شهر أكتوبر عام 834 ميلادية،

صاح القاضي ابن سماعة في ابن حنبل: ما هذا الذي فعلته يا أحمد؟

التفت ابن حنبل حوله ثم نظر لابن سماعة وقسمات وجهه تنطق بالدهشة ثم قال: ما الذي حدث يا بن سماعة، هل فعلت شيئا أغضبك؟

- صليتَ والدمُ يسيل في ثوبك، أليس هذا يبطل صلاتك؟!

- قـد صـلى عمـر - رضي الله عنـه - وجرحـه يسـيل دمًـــا، أليس ذلك كذلك!

- ستظل تغلبني يا أحمـد، في علمك ومواقفك، ولكنـي أرى أن الخليفة خلع عليك خلعًا كثيرة، مبطنة وقميصًا وطيلسانًا[1] خفًّا وقلنسوة[2] وها هو الدم يسيل على القميص فيفسده.

---

(1) الطيلسان: قطعة كساء خضراء غير مخيطة، يرتديها خواص العلماء والمشايخ.

(2) قلنسوة: غطاء للرأس.

- الحمد لله أنه أفسده ولم يفسد الصلاة، ولكن اطمأن يا بن سماعة، فقليل من الماء ينظفه، أتخشى على القميص من الدم ولا تخشى على الأمة من سفك الدم؟

- اسكت يا أحمد أنسيت أننا في بيت صاحب الشرطة الذي يسفك الدم؟

ضحك إسحاق صاحب الشرطة قائلًا: وما فعلته عن أمري، إنما أنا عبد الخليفة.

رد ابن حنبل بحسم: أنت لست عبدًا لأحد، أنت عبدٌ لله، هو وحده الذي سيحاسبك، اللهم اغفر له وللمعتصم، فإنهما يجهلان.

عاد ابن إسحاق للحديث قائلًا: آمين يا رب العالمين، كادت الفتنة تثور من أجلك يا بن حنبل، واقترب الناس من باب القصر يرغبون في اقتحامه، لولا أن الله ألهم الخليفة فخرج إليهم ومعه عمك إسحاق ثم قال للناس وهو يشير لعمك: أتعرفون من هذا؟ فقال الناس: نعم إنه عم أحمد بن حنبل، وبعد أن هدأ الضجيج قال للناس: فانظروا إلى عم أحمد بن حنبل وسأسأله أمامكم: أليس ابن أخيك صحيح البدن؟ فأومأ عمك إسحاق برأسه أي نعم، فقال الخليفة للناس: الحمد لله، لقد سلمته لكم صحيح البدن، فهدأ الناس وانصرفوا كالذين ينصرفون من صلاة الجمعة زرافات.

انهمرت الدموع من عين ابن حنبل المقهور لأنه ثبت على رأيه وجاهد من أجل ما اعتقده، وحين رأى من في الغرفة ينظرون إلى دموعه غالبها وقال:

وهل كادت الفتنة أن تثور من أجلي أنا؟ أنا المقتول من أجل أن تحيا الحقيقة! أنا المقهور ظلمًا إذ نطقت بغير ما قال الخليفة، قد أثار الفتنة العمياء من قال بأن الله قد خلق كلامه، وهذا القولُ إفكٌ فيه شرٌّ للخليقة، هذا القول لا يبغي الحقيقة.

رد القاضي ابن سماعة: كان بإمكانك أن تظل على رأيك وتستخدم التقية.

- ألم يصل لك يا بن سماعة حديث الرسول ﷺ: «كان الرجل فيمن كان قبلكم يؤخذ فتجعل المناشير على رأسه فيفرق بفرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه».

- أعرف هذا الحديث يا أحمد، ولكنك كنت على وشك أن تموت.

- لا يخشى الموت إلا الموتى.

تدخل صاحب الشرطة: والله يا أحمد لقد شعر الخليفة بخطئه ناحيتك، رأيته وهو يبدي الندم ويقول لابن أبي داود: ليس ابن حنبل هذا كما وصفتم، لقد سمعته وعرفت قدره. فقال ابن أبي داود له: احبسه يا مولانا الخليفة فإنه فتنة. إلا أن الخليفة نهره وأمرني أن أطلق سراحك، فأحضرتك إلى داري، وقبل أن أنصرف بك سمعت الخليفة يأمر أحدهم قائلًا: لا تنقطع عنه وائتني بأخباره كل يوم، حتى يبرأ مما ألحقناه به.

حُمل ابن حنبل بعد ذلك إلى داره، وما إن وصل حتى خلع قلنسوته وملابسه التي أهداه إياها المعتصم، ثم أعطاها لابنه عبد الله وأمره أن يبيعها

ويتصدق بثمنها، وظل أحمد في داره عدة أشهر لا يبرحها، وانقطع عن الناس حتى إنه لم يعد يرى جاره عبد الله الرصافي.

ولَمّا وليَ الواثق بعد المعتصم، لم يتعرض للإمام أحمد بن حنبل في شيء إلَّا أنه بعث عليه يقول: لا تخرج من بيتك. فصار الإمام أحمد يختفي في منزله، فاختفى عدة أشهر إلى أنْ مات الواثق، وبعد ذلك تولَّى الخلافة المتوكل بعد الواثق، فخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد، وطعن عليهم فيما كانوا يقولونه من خلق القرآن، ونهى عن الجدال والمناظرة في هذا الشأن، وعاقب عليه، وأطلق من كان اعتُقِلَ بسبب القول بخلق القرآن، ورفع المحنة عن الناس.

كان الإمام أحمد يفكر في الفتنة التي عاينها في زمن المعتصم - فتنة خلق القرآن - والفتن التي رآها في مصر في الزمن الآخر الذي ارتحل إليه، وظل الإمام يتذكر ما مر به من أحداث، وما تعرض له من أهوالٍ، وكلما شخصت أمامه صورة الحاج غريب يوسف بكى، وانهمرت منه العبرات، فإذا داعبه خيال مصطفى الشرقاوي ابتَسَم، وتمنى أن لو كان احتضنه قبل أن يفارقه، ما أوجعك أيها الفراق! أنت والموت صنوان: «ولكن أرجو أن يجمعني الله بهما في مستقر رحمته في جنة الخلد التي ليس فيها فراق، ولا ألم، ولا تعب، ولا نصب، أحببتكما وعشت معك يا غريب كأنك أخي، ورأيتك يا مصطفى ابني، فتت فؤادي موت ابنك، لكنك إن شاء الله ستصير إلى ما صار إليه، ثم ستجتمع به، ولعلك اجتمعت في جنات حبيبك رب العزة بأمر كن فيكون، ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾.

ضعف جسد ابن حنبل كثيرًا، ولم يستطع السير إلا إذا اتكأ على أحد، ولكنه كان يهب للصلاة واقفًا ويقول: أنا في صلاتي لا أشعر بذاتي، فليست قدمي هي التي تحملني، ولكن قدرة القادر تُبدلني، فتصيرني شابًا لا يني[1].

وفي أحد الأيام أخذ ابن حنبل يبكي، فجزِع ابنه عبد الله من بكائه وهرول إليه: ما بك يا أبي؟

- أضناني الشوق يا حبيبي.

- لمن؟

- لله خالقي.

ثم عاد ابن حنبل للبكاء، وهو يقول: ثقل عليَّ أن يغيب عني الرصافي.

- يقولون في الحي يا أبي إن الرصافي مات غريقًا في أحد أسفاره.

وما إن انتهى عبد الله بن حنبل من آخر كلمة حتى وجد أباه قد خر مغشيًا عليه.

■■■

كررها مرة ثانية: لا تدخل في الصلاة. ثم اندفع العمدة للأمام واقترب من إمام الصلاة محتضنًا إياه وهو يقول: غير معقول، غير معقول، الحمد لله أنك أتيت لي، كنت أظن أننا لن نلتقي ثانية.

---

(1) لا يني: لا يضعف.

أبـدى الإمـام ارتبـاكًا وقـبَّـل كتـف العمدة محييًـا إياه بوقار، ثم اسـتدار للصلاة ودخل فيها.

وإذ انفتلـوا مـن الصـلاة قام العمدة وجلـس بجوار الإمام ثـم انتحى به جانبًا من الخيمة وبادره قائلاً: وقع في قلبي أنك لا تعرفني.

رد الإمام مندهشا: ومن ذا الذي يجهلك يا حضرة العمدة.

- ألست عبد الله الرصافي؟

- نعم أنا هو.

- ولماذا تتجاهلني؟ طريقتك تدل على عدم الاهتمام بي!

افـترَّ ثغـر الرصـافي عـن ابتسـامة وقال: كنـت معـك حينـما كان التيه في داخلـك، والآن عرفـتَ الطريق وتخلصت من المتاهة،أصبحـَت حرًّا عارفًا، لم تعد تحتاج إلى مرشد.

- من أنت يا رصافي؟

- أنا عبد الله.

- كلنا عبيد الله.

- لا لسـنا كلنـا عبيـد الله يا رصافي، عبيد الله هم مـن تخلصوا من عبودية البـشر واستشـعروا الحرية في عبوديتهم لله، ألم يقـل الربعي بن عامر لكسرى وهو يدعوه للإسلام: «لقد ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها»؟

- صدقت.

- ولكـن بعضنـا يرتـد بنا إلى عبوديـة العبـاد، ولم يجد هـؤلاء أفضل من عبوديتنا لله لتغييرها إلى عبودية العباد، إذ لن يستنكف المغرر بهم أن يصبحوا عبيدًا لأصنام صنعوها مادامت ستقودهم - في ظنهم - لعبودية الله.

- صدقت.

- ما فتئ الشـيطان يغير طرقه ويسـتخدم حيله ليبعدنا عن عبادة الله، وإذ أيس[1] من أن نعبد أصنام الحجارة، يَسَّر لنا طريق عبادة أصنام من لحم ودم، فقـال الجاهلـون الذين لعب الشـيطان بأحلامهم: إنها أصنامنـا البشرية هذه تقربنا إلى الله زلفى وترشدنا إلى طريق عبادة الله.

- صدقت.

- مالك يا أخي؟ أقول وتصدقني، أقول وتصدقني! أليس لك توجيه؟

- قالها لك أبو الفضل منذ زمن، أنت مرشـد روحك، اتبع قلبك يدلك، استغنِ عن العباد وعذ برب العباد.

- ولكن قل لي يا رصافي، أين ابن حنبل؟

- في محنته يذود عن أمته.

- ومحنتنا؟!

- يذود عنها أبناء زمنها.

---

(1) أيس: يئس وانقطع رجاؤه.

قام الرصافي من مجلسه وألقى السلام على الجميع وخرج مسرعًا إلى دنيا الله.

انتهت أيام الحج وركب العمدة وأهله الباخرة، وفي ميناء السويس كان البلد كله في انتظاره عن بكرة أبيه، وفي السعيدية تناوبت الوفود عليه للتهنئة، فأقام لهم المآدب، وأعطى الهدايا، وأمر رجاله بتوسعة مسجد سيدي سعيد فانشغلت القرية الهادئة الوادعة بهذا الحدث، وفور أن انتهت التوسعة عهد العمدة لابنه المهندس الزراعي أن يخطط لإنشاء حديقة كبيرة بجوار بيته تكون مراحه ومغداه، فأصبحت الحديقة مضربًا للأمثال.

وإذ جاء له الشيخ الفضالي زائرًا فكر العمدة في أن يحكي له ما مربه، ولكنه أحجم، وأمر رجاله ونساء البيت بإعداد مائدة طعام كبيرة للشيخ الفضالي ومن معه، على أن تكون في الحديقة.

أكل القوم ولما فرغوا من الطعام قال أحد رجال الشيخ الفضالي هامسًا لآخر يجاوره: قبل أن نأتي إلى هنا قال لنا الشيخ إننا سنزور رجلًا زاهدًا وعابدًا، ولكنه كما رأينا يُبعزق المال يمينًا ويسارًا وينفق عن سعة، ويسكن في بيت كالقصر له حديقة غنَّاء، وكأنه لا يعيش إلا من أجل الدنيا هل هذا هو الزهد؟! فماذا نقول فيَّ أنا، حيث لا أسكن إلا في كوخ، ولا آكل إلا وجبة واحدة، وأظل على قيام الليل فلا أنام أبدًا، إن هذا لشيء عجيب!

وبعد أن انصرف القوم، حطوا رحالهم في مسجد بقرية الجوسق المجاورة للسعيدية من أجل صلاة العشاء، وبعد الصلاة قال الشيخ الفضالي لهم: أعطى الله عبده غريب بن يوسف الدنيا، ولكنه وضعها في يده، وأعطى لبعضنا كوخًا ووجبة طعام ولكنه وضعهما في قلبه.

وبعد شهر من هذه الواقعة قام حريق محدود في السعيدية، استطاع الأهالي محاصرتـه ووأد أثـره، وبعد خطبة الجمعـة صعد العمدة إلى المنـبر وقال: أيها الناس لن تعاودنا الحرائق إذا أخذنا من الدنيا وسـائلها، فاسـعوا إلى الوسيلة يرفع الله بكم النوازل [1].

وبعـد أن فرغ من كلامه ذهب إلى بيته ودخل حجرته وأخرج من خزينته قطعة قماش بيضاء، ثم حمل دورقًا به ماء زمزم، وقال لنفسـه: «سـأذهب بهما إلى جوانب القرية، ولن تعرف الحرائق طريقها إلينا أبدًا».

■■■

مـرت عـلى ابن حنبـل منذ أن جلـده المعتصم بـالله اثنان وعـشرون عامًا وأصبحنا في سنة مائتين وإحدى وأربعين من الهجرة.

مـا فتئ ابن حنبل يتذكر أيام الرصـافي وأعوامه، وذلك الزمن المتناهي في الصغر غير المتناهي في الامتداد، الذي مكث فيه شـهورًا مع غريب يوسـف ومصطفـى الشرقـاوي، وحين عاد وجـد أنه ذهب وبقي وظـل مقدار طرفة عين وانتباهتها: «ليست الدنيا شيئًا واحدًا وزمنًا واحدًا وفعلًا واحدًا ومكانًا واحـدًا، ولكـن أزمنـة وأمكنـة، ولكننـا لانرى إلا الـذي أمامنا، ولا نشـعر إلا بالذي ندب عليه وتلمسـه أجسـادنا، سبحانك يا رب يا من قلت لنا في كتابـك الكريـم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ ثـم أقسـمت في سـورة أخرى ﴿لَتَرۡكَبُنَّ

(1) النوازل: المصائب الشديدة.

طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ وقد وهبت لي وأنا في محنتي منحة، فسببت الأسباب لأركب طبقًا عن طبق».

اندفعت الدموع من عيني ابن حنبل كالنافورة، فاحدودب عليه ابنه الكبير صالح، وقال له وهو يتدفق من الحنان: ما لك يا أبي، أصبحت الدموع تجري منك مجرى الدماء، لا تغادرك أبدًا؟!

- بها أروِّح عن نفسي يا بني، وبها أعبِّر عن شوقي ولوعتي.

- هوِّن على نفسك يا أبي، فقد أنهكك المرض، وبالباب الطبيب السرياني يوحنا بن ماسويه يريد أن يطببك.

- دعه يدخل يا بني.

دخل الطبيب وألقى السلام فرد عليه ابن حنبل بأحسن منها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

تعجب الطبيب وقال: يقولون إنك تحرم إلقاء السلام على غير المسلمين.

- ليس الفقه دينًا، ولكنه رأي، وقد أقول رأيًا ثم أعدل عنه، وكان قولي للناس عامة ولتلاميذي خاصة: «لا تكتبوا رأيي لعلي أعدل عنه».

أخذ الطبيب يفحص ابن حنبل فحصًا دقيقًا ثم قال له: ما طعامك يا إمام؟

- ماء الباقلاء[1].

زم الطبيب شفتيه امتعاضًا ثم نظر لصالح وقال له: لم أر مثل هذا إلا في راهب في دمشق! يجب أن يأكل الإمام كما يأكل باقي الناس، ولنبدأ بزيت السمسم، ثم دهن الخل، وعليه أن يأكل ربع سويق[2] كل يوم، وعليكم بالتمر صباحًا ومساءً، أما الآن فليقم أحدكم بشواء قرعة[3] له ثم تسقونه ماءها.

قال ابن حنبل بصوت واهن لابنيه صالح وعبد الله: إذا كان لابد من ماء القرعة فلست أرضى أن تُشوى في داري.

رد صالح وعبد الله في صوت واحد: فلتكن في داري.

- ولا أريدها تشوى في دار أيكما.

رد صالح سريعًا: اطمئن يا أبي، سأشويها في دار أحد الجيران.

تعجب الطبيب من الحديث وقال لصالح: هل يحرم الإمام القرعة؟

- لا، ولكنه حرم على نفسه أن تطهى في بيته... ثم أخذه صالح خارج الغرفة وسأله، ما به؟

فقال الطبيب بأسى: هو يشكو من ضعف وانحلال في الجسم نشأ عن قلة التغذية، وإذ هزل جسده أصابته الحمى وصعوبة التنفس، أبوك يا صالح أصابته الهموم والأحزان واتسمت حياته بالزهد والحرمان، وقد أتلف هذا كله أعضاء جسمه الداخلية وقوضها وجعل الرجاء في برئه ضعيفًا.

---

(1) الباقلاء: الفول.

(2) السويق: طحين القمح والشعير الناعم.

(3) القرعة: نبات القرع.

- وهل ستعاوده ثانية أيها الطبيب؟

- كنت أتمنى ذلك، ولكنني سأسافر في الصباح إلى سامراء[1] وقد أظل بها بقية عمري.

انتشر خبر مرض ابن حنبل فأخذ أهل بغداد يتسابقون على زيارته، وهو راقد لا تقوى قدماه على حمله، إلا أن أهله أوقفوا الزيارات حتى لا تجهده، وذات صباح وابن حنبل مستغرق في خواطره لا يكلم أحدًا، دخل عليه ابنه صالح فوجده ساهمًا.

- فيمَ تفكر يا أبي؟

- أفكر في رفاق لي أوشكت أن أقابلهم، أنا في طريقي إليهم.

- كيف يا أبت وأنت لا تبرح مكانك؟

- الأجساد مقيدة والأرواح منطلقة.

- إذن فاعلم أن هناك جارًا لنا بالخارج يقف على بابنا يريد أن يراك.

- وهل أذنت له؟

- لا، فإني منتظر الإذن منك.

- من هو؟

وقبل أن يجيب صالح دخل الجار عليه وألقى السلام بخفوت صوت،

---

(1) سامراء: مدينة عراقية تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة وتبعد عن بغداد تسعين ميلًا.

حدَّق فيه ابن حنبل وسأله: من أنت؟ نظري ضعف فلا أستطيع تبين ملامحك، اقترب مني إذ يخيل إلي أنني أعرفك.

اقترب الجار من فراش ابن حنبل فأخذت قسمات وجهه تتضح للإمام، كان ربعة أبيض الوجه مشربًا بحمرة، مخضوب شعر الرأس واللحية، انفرجت أسارير الإمام وكاد أن يقوم من مكانه إلا أن جسده لم يطاوعه، فبكى فرحة وابتهاجًا وقال والعبرات تخنق كلامه: غبت عني وأنا حبيبك.... ثم نظر لأهله وقال لهم: هذا رجل من أحباب رسول الله ﷺ.

فأخذ الجار يدعو لابن حنبل والإمام يرد قائلًا: «آمين».

وبعد أن فرغ الجار من الدعاء قال لابن حنبل: عليك كفارة يمين.

فابتسم الإمام وقال لابنه صالح: نعم عليَّ كفارة يمين.

جاء في المقفى للمقريزي[1].

(قال صالح: جاء رجل من جيراننا قد خضب، فقال أبي: إني لأرى الرجل يحيي شيئًا من السُّنة فأفرح به. فجعل الرجل يدعو وأبي يؤمن، ثم قال أبي: اقبض من السكان دراهم واشتر تمرًا وكفر عني كفارة يمين).

ثم قال المقريزي: (وزاد الدينوري في كتاب المجالسة: إن الإمام أحمد قال: فإني حنثت في دهري في يمين واحدة).

(1) أحمد بن علي المقريزي هو واحد من المؤرخين الكبار وله تصانيف كثيرة في التاريخ منها كتابه «المقفى».

وطلب الجار من صالح أن يسمح للناس بزيارة الإمام للدعاء له، فسأل صالح أباه فوافقه، فجعل الناس يدخلون عليه أفواجًا حتى تمتلئ الدار وكثر الناس وامتلأ الشارع حتى إن الشرطة أغلقت باب الزقاق لمنع تدفق البشر.

وذات صباح مات ابن حنبل كما تموت كل الخلائق «كلنا لها»:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

وشيع الآلاف جنازته حتى إنهم لم يستطيعوا دفنه إلا قبل المغرب من الزحام، وبعد أن تم الدفن انسل من بين الجموع واحد من الناس شق طريقه وسار في أحد المسارب البعيدة إلى مكان لا يعرفه أحد، وإلى زمن لا يستشرفه أحد.

أحدث إصدارات

الأستاذ
ثروت الخرباوي

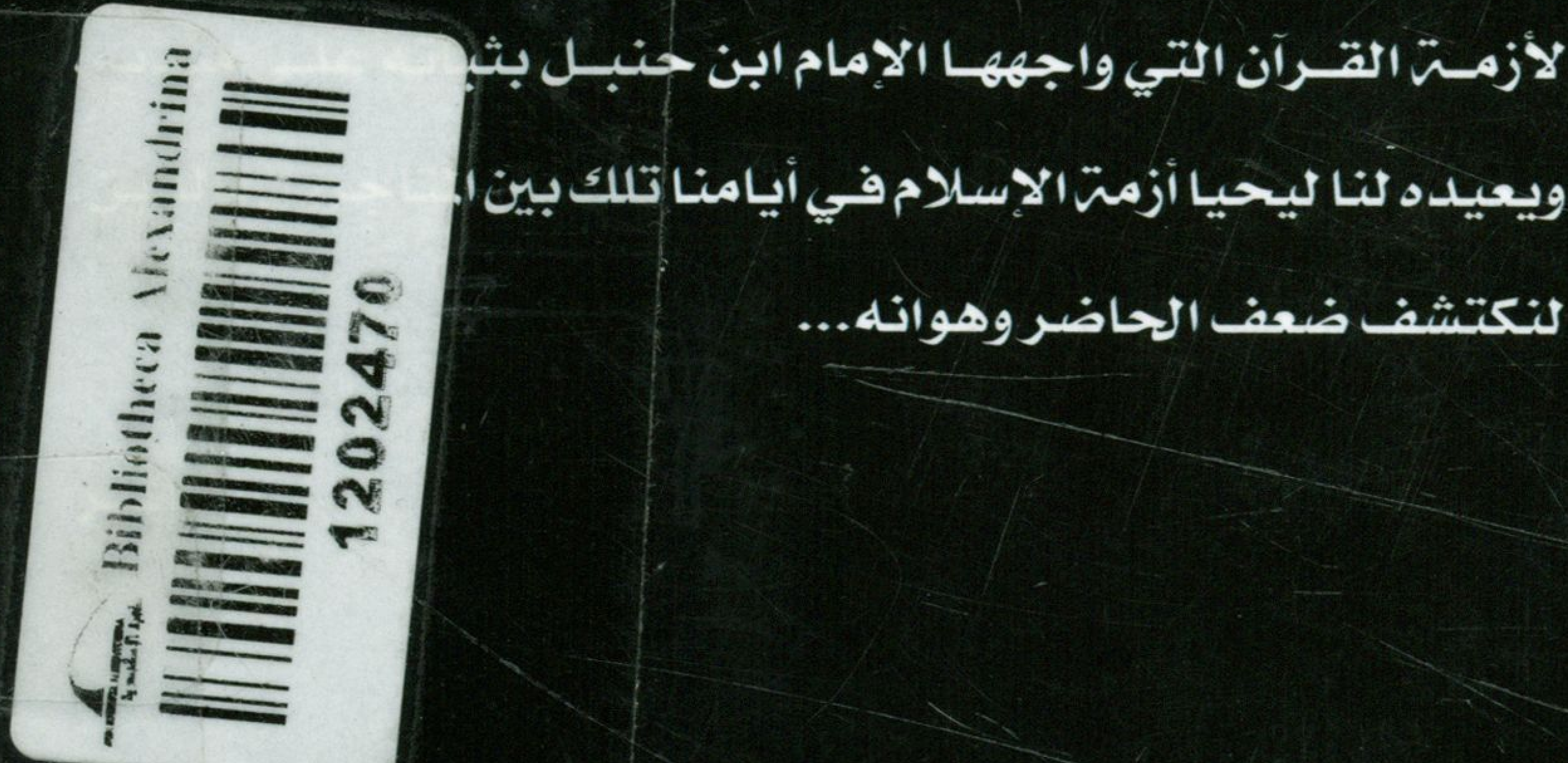
- سر المعبد.. الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين
- قلب الإخوان.
- زمكان.



رواية

زمكان

«...يجتازنا الزمن ولا نجتازه، يمر بنا و لا نمر عليه، وحين يمر
بنا لا نستطيع أن نخرج منه أو نوقفه إلا أن يشاء الله إن الله على
كل شيء قدير...» هكذا تقول أحداث رواية «زمكان»، التي تعيدنا
لأزمنة مضت و تعيد إلينا الماضي بشخوصه لتتفاعل مع الحاضر
فندرك عبر أحداثها المازجة بين التاريخ و الخيال والواقع المعيش،
أننا مجرد نقاط زمنية تضيء كلما حان وقتها. ومن تلك الرؤية
يصحبنا الكاتب ثروت الخرباوي في رحلة عبر الزمن يعود فيها
لأزمة القرآن التي واجهها الإمام ابن حنبل بثبات
ويعيده لنا ليحيا أزمة الإسلام في أيامنا تلك بين الما
لنكتشف ضعف الحاضر وهوانه...



للطلب والاستفسار اتصل على
16766
www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group





